الهداية

فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مجلة إسلامية دورية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
مملكة البحرين - العدد (٣٥٥)
السنة (٤١) - ربيع الآخر ١٤٤١هـ - ديسمبر ٢٠١٩م

في هذا العدد:

- المواطنة وأهميتها في تعزيز الأمن المجتمعي (٢/٢).
- فلسفة الهدي النبوي في حماية البيئة.

الهداية فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مملكة البحرين - العدد (٣٥٥) السنة (٤١) - ربيع الآخر ١٤٤١هـ - ديسمبر ٢٠١٩م

الهداية
فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مجلة إسلامية دورية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
مملكة البحرين – العدد (٣٥٥)
السنة (٤١) – ربيع الآخر ١٤٤١هـ – ديسمبر ٢٠١٩م

هيئة التحرير

رئيس التحرير: الشيخ د. محمد طاهر القطان
مستشار التحرير: أ.د. عامر حسن صبري
مدير التحرير: أ. علي أمين الريس
مشرف التحرير: أ. زينب مجيد سلمان
التدقيق العلمي واللغوي: الشيخ فهمي المتولي الشيخ
د. محمد عبدالله الوائلي
سكرتارية التحرير: أ.صفاء عبدالعزيز بوعلاي

ص.ب: ٥٦٠ المنامة – مملكة البحرين
هاتف: ١٧٨١٢٨٠٧ – ١٧٨١٢٨١٠
فاكس: ١٧٨١٢٨٤٩

البريد الإلكتروني: alhedaya@moia.gov.bh
وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
www.islam.gov.bh

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

الفهرس

مناسبة أوائل السور لأواخرها

أ.د. عبد الكريم إبراهيم عوض ٦

قواعد التدبّر الأمثل للقرآن الكريم
عند الإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)

د. أسامة عبدالوهاب الحياني ٣٦

فلسفة الهدي النبوي في حماية البيئة

د. سفيان ناول ٧٥

المواطنة وأهميتها في تعزيز الأمن المجتمعي
(الحلقة الثانية)

د. راشد عبدالرحمن العسيري ٨٩

الوعد الملزم في العقود المصرفية وعلاقته بالمخاطرة
(دراسة على عقدي بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة
المنتهية بالتمليك)

د. باسم عامر ٩٩

عقد المضاربة
وكيفية تطبيقاته العقارية في البنوك التشاركية
أ. محمد لحبيب لسيق
١٢١

علماء الإسلام القدامى،
وموقفهم من المعارف الحديثة
د. رائد أبورية
١٤٨

خطوات في الطريق إلى التفوق العلمي
«النحو العربي أنموذجاً»
د. هادي أحمد الشجيري
١٦٣

دراسات أكاديمية حديثة

المنهج النبوي في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين
المسلمين من خلال مرويات السيرة النبوية
د. علي خليفة الزياني
١٨١

الحوار الدعوي في القرآن الكريم دراسة موضوعية
أ. محمد عبدالعزيز الشامي
١٩٢

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،

عشرون عامًا مضت منذ أن تولىٰ حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسىٰ آل خليفة -أيده الله- مقاليد الحكم في البلاد، شهدت تلك السنوات إنجازات نوعية علىٰ الأصعدة كافة، بفضل الله تعالىٰ، ثم بفضل المشروع الوطني الإصلاحي الحضاري لعاهل البلاد المفدىٰ، وكانت جهود الحكومة الموقرة مشهودة في شتىٰ الميادين لإرساء دعائم هذا المشروع الرائد.

لقد تميّز العهد الزاهر لجلالة الملك المفدىٰ بإعلاء قيم التعايش والسلم وتعزيز الحوار البنَّاء علىٰ أساس من المواطنة التي تحتضن الجميع، لما لذلك من دور أساسي في نشر ثقافة التسامح، وإبراز أهمية التضامن بين الأفراد والأمم، ودوره في تنمية الصداقات بين الشعوب، ودعم ازدهار الأوطان وبناء السلام، ومكافحة الغلو بشتىٰ أشكاله ومظاهره؛ فمفهوم السلام في ديننا الإسلامي، مفهوم لا محدود، جامع لمعاني السلامة والصلح والاطمئنان والرضا والمودة والبر والقسط مع النَّفس والغير.

وإنَّ هذه القيم لَتعكس ما عُرف به شعب البحرين طوال تاريخه العريق من وسطية واعتدال؛ فلقد قدَّمت البحرين علىٰ مدىٰ تاريخها الحافل نموذجًا حيًّا في الانفتاح علىٰ التنوع الثقافي باعتباره مصدر إثراء، مع الحفاظ علىٰ الهوية الأصيلة الجامعة، حيث كانت ولا تزال ملتقىً حضاريًّا للأديان والتعدد الثقافي، بل ولقد أثبت هذا النموذج قدرته علىٰ التفاعل والتأثير الإيجابيين في إطار الاتصال الإنساني العالمي، وهو ما يعكس مدىٰ التآلف والوئام والانسجام النابع من تجذُّر التسامح في الهوية العربية الإسلامية الجامعة لأهل البحرين الكرام باعتباره قيمة إنسانية وحضارية عالمية.

وما احتضان مملكة البحرين لعشرات المؤتمرات والمنتديات الدولية الرامية إلىٰ تعزيز الحوار بين أتباع الأديان والحضارات، والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وتحديث لغة الخطاب الديني، فضلًا عن تدشين مركز الملك حمد العالمي للتعايش السلمي، إلا ترجمة لجهود مملكة البحرين بقيادة جلالة الملك المفدىٰ، لبث مبادئ الاعتدال وروح الإخاء بين البشر علىٰ اختلاف معتقداتهم وأديانهم، بما يصون الحقوق العالمية للإنسان التي تُمثل جوهر التسامح، وذلك من خلال التأكيد علىٰ الحريات الأساسية وبخاصة حرية الفكر والضمير، وصون كرامة الفرد، وحرية ممارسته الشعائر الدينية باعتبارها القاعدة الأساس لتكريس روح التسامح، في ظل الاحترام المتبادل والاعتراف بالآخر تفعيلًا لمبدأ التعارف الإنساني الذي دعا إليه القرآن الكريم في قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾. الحجرات:١٣

إنَّ إرساء قيم التسامح بات اليوم ضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضىٰ وخاصة مع التطور السريع الذي تشهده وسائل الاتصال الإنساني، والتي صاحبها العديد من أشكال التطرف والكراهية، وهو الأمر الذي يستلزم منا جميعًا العمل علىٰ المستويات كافة لبث الوعي والمعرفة، وتأصيل الهوية الوطنية الجامعة لأجيالنا، وتكريس الاحترام للتنوع الثقافي باعتباره رافدًا لتطور الشعوب ونمائها ورخائها، وهو ما يتطلب تضافر جميع الجهود الرسمية والأهلية والدولية نحو تعزيز التسامح.

والله ولي التوفيق

خالد بن علي آل خليفة

وزير العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف

مناسبة أوائل السور لأواخرها

أ.د. عبد الكريم إبراهيم عوض

الحمد لله الذي أنزل كتابه هدىً ورحمة، وجعله شفاء ونعمة، وأودعه علومًا وأسرارا، وضمنه أحكامًا وأخبارا، والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو حجة الله الباهرة، وحكمته البالغة، ومعجزته الخالدة، وصراطه المستقيم، ونوره المبين، الذي لا تنقطع نفحاته، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنعقد عطاءاته، أنزله الله تعالىٰ علىٰ خير خلقه صلوات الله وسلامه عليه، تبيانًا لكل شيء، وهدىً ورحمة وبشرىٰ للمسلمين، وجعله حجة لمن تدبر آياته وعمل به، وحجة علىٰ من أعرض عنه وانصرف عما فيه من عظات، وفتح به أبوابًا من العلم كانت مؤصدة عن الباحثين، فنهلوا من فيض علمه ما كشف لهم عن الكثير والكثير من الحقائق التي كانت خافية عليهم، واستطاعوا بشيء من التدبر أن يصلوا إلىٰ بغيتهم، وعلموا من خلال البحث والدرس المتصل أنه كتاب معجز في سمو فصاحته وبلاغته، ودقة نظمه وأسلوبه، ورقعة تعبيره وتصويره وعذوبة بيانه ومنطقه... وغير ذلك من ألوان الإعجاز التي لا تنحصر، ومن ذلك أنه يذكر طرفًا من الشيء ثم يتركه ثم يعود إلىٰ إتمامه بطريقة لا تسأم النفوس هديه، ولا تستثقل حديثه، مراعيًا في ذلك تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها، فتجد الآية متسقة في كلماتها، متآزرة مع أخواتها من الآي، ويلتقي مطلع السورة مع مقطعها برابط لا يجعل منها جنسًا غريبًا عنها، بل تبدو فيه كعقد نظمت حباته، ورتبت أبدع ترتيب، فكان بذلك معجزاً نظمه، بديعًا في اتساقه، متناسبًا في آياته وسوره وأجزائه.

وقد شاء الله العلي القدير أن أسبح في بحار هذا القرآن الكريم سبحات لأستطلع بعض الأسرار المتعلقة بتناسب مطالع السور ومقاطعها، وأتعلم شيئًا عن حقائقها ودقائقها، وأقف علىٰ بعض مراميها ومعانيها.

ومن المعلوم لدىٰ أرباب التأمل والنظر أن آيات القرآن الكريم أرفع من أن تحيط بكل معانيها الأفهام مهما أوتيت من قوة الإدراك، فالقرآن الكريم كون واسع فسيح، إلىٰ الله وحده علمه ومنتهاه.

وحسب الباحث أن يتدبر آيات الله البينات في مطلع كل سورة وخاتمتها، ويستنبط منها قدر الطاقة ما يثبت فؤاده، ويصحح اعتقاده، ويهذب أخلاقه، ويهديه إلىٰ سواء السبيل.

قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] .

وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر: ١٧].

وقد سلكت في هذا البحث منهجاً علمياً، حتىٰ تتضح صورته لدىٰ القارئ، فقد عمدت إلىٰ بيان المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها إن كانت واضحة من غير تكلف، وإلا نظرت إلىٰ سياق الآيات في أول السورة محاولاً بيان المناسبة بينه وبين آخرها، مبتعداً عن التكلف.

وقسمت بحثي هذا بعد المقدمة إلىٰ مبحثين وخاتمة:

المبحث الأول: تمهيدات بين يدي البحث وفيه ما يلي:

١ – تعريف المناسبة

٢ – اهتمام علماء السلف بعلم المناسبات

٣ – فوائد علم المناسبات وأهميته

٤ – أنواع المناسبات

المبحث الثاني: مناسبة أوائل السور لأواخرها من أول سورة الفاتحة إلىٰ آخر سورة الكهف.

وأما الخاتمة: فتتضمن نتائج البحث.

ولست أدعي أنني خرجت من بحثي هذا بما يسد الرمق، ويروي الظمأ وأنىٰ لمثلي ذلك!!

والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعله حجة لي لا علي، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

١ – تعريف المناسبة

أولاً: في اللغة:

المناسبة لغة المشاكلة والمقاربة، يقال: فلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه أو يشاكله، كما يقال: ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة[١].

(١) لسان العرب لابن منظور (نسب) ٦/ ٤٤٠٤ ط دار المعارف.

وقد أصَّل هذا المعنىٰ ابن فارس في معجمه فقال: « النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء. منه النّسَب، سمي لاتصاله وللاتصال به. ومنه النسيب في الشِّعر إلىٰ المرأة، كأنه ذِكرٌ يتصل بها، ولا يكون في النساء. تقول منه نَسَبْتُ أنْسُبُ. والنسيب: الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض»[1].

فالاشتقاق اللغوي للتناسب يدل علىٰ شدة التلاحم وقوة الصلة بين عناصره، وقوة الترابط بين أجزائه، وليست علاقة ظاهرية إنما هناك تلازم بين الظاهر والباطن، وبذا فالمناسبة إذن تعني الاتصال والمقاربة، والمماثلة.

ثانيًا: في الاصطلاح:

والمناسبة في الاصطلاح: علم يعرف به ارتباط آي القرآن الكريم بعضها ببعض، حتىٰ تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، يربطها رابط عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غيره من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحو ذلك[2].

أو كما يقول الإمام البقاعي: « علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وهو سر البلاغة لأدائه إلىٰ تحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال»[3].

ويبدو توافق بين المعنىٰ اللغوي للمعنىٰ الاصطلاحي للمناسبة، فكلاهما يعني: أن الآية وجارتها شقيقتان يربط بينهما رباط من نوع ما، كما يربط النسب بين المتناسبين، غير أن ذلك لا يعني أن تكون الآيتان أو الآيات متماثلة كل التماثل، بل ربما يكون بينهما تضاد، أو تباعد في المعنىٰ، المهم أن هناك صلة، أو رابطًا بين الآيتين، أو تقاربًا بينهما سواء توصل إليها العلماء أم لا، فقد تظهر أحيانًا، وتختفي أحيانًا أخرىٰ، وفي هذا مجال لتسابق الأفهام.

٢- اهتمام علماء السلف بعلم المناسبات

لا شك أن لكل علم هواة وطلابًا، ولكل فن مُحِبُّون لاسيما ما يختص بالقرآن الكريم،

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق الشيخ عبد السلام محمد هارون ٥/ ٤٢٣، ٤٢٤ ط دار الفكر.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق د/ يوسف وآخرين ١/ ١٣١ ط دار المعرفة.
(٣) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للبقاعي، بتحقيق د/ عبد السميع محمد أحمد حسين ١/ ١٤٢ ط مكتبة المعارف – الرياض.

وعلم المناسبات على دقته وصعوبة مسلكه وقلة المؤلفات فيه إلا أن له أربابًا وعشاقًا صرفوا له جل أوقاتهم، وأدركوه باهتمامهم، وذلك من عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم من علماء السلف.

ففي عصر الصحابة والتابعين وجدت إشارات دالة على اهتمامهم بموضوع المناسبات، يقول الإمام البقاعي: «وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون، قال أبو عبيد في كتاب الفضائل: «حدثنا معاذ عن عوف، عن عبدالله بن مسلم بن يسار، عن أبيه قال: (إذا حدثت عن الله حديثًا فقف حتى تنظر ما قبله وبعده)»[1]. وروى عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن الأعمش عن إبراهيم قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسأله عما قبلها)[2]، يريد – والله أعلم –: أن ما قبلها يدله على تحرير لفظها، بما تدعو إليه المناسبة. وروى الحارث ابن أبي أسامة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه حدث أن قومًا يدخلون النار ثم يخرجون منها، فقال له القوم: أوليس الله تعالى يقول: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧]، فقال لهم أبو سعيد رضي الله عنه: اقرأوا ما فوقها:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٦][3]»[4]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الصحابة والتابعين كانوا مولعين بعلم المناسبات.

فإذا ما تركنا عصر الصحابة والتابعين وانتقلنا إلى من بعدهم من علماء سلف الأمة نجد أنه قد

(١) فضائل القرآن باب تأويل القرآن بالرأي، وما في ذلك من الكراهة والتغليظ ص ٢٢٩، بتحقيق وهبي سليمان عاوجي ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣/ ٣٦٥ كتاب فضائل القرآن باب تعاهد القرآن ونسيانه حديث (٥٩٨٨)، بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣) أخرجه أحمد بن أبي بكر إسماعيل البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ٨/ ٨٣، كتاب: صفة النار وأهلها، باب فيمن يدخل النار ثم يخرج منها حديث (٧٨٣٩).

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي، ١/ ١٥٣ وما بعدها.

اعتنىٰ كثير من المفسرين بعلم مناسبات القرآن الكريم في تفاسيرهم علىٰ اختلاف مشاربهم، وكما دندنوا حول المناسبات بين الآيات بحثوا عن الصلة، والمناسبة بين سور القرآن الكريم عامة، وكانوا بين مقل ومكثر.

وكان الحافظ أبو بكر النيسابوري (ت ٣٢٤هـ) أول من سبق إلىٰ هذا العلم، وكان يلقي باللائمة علىٰ علماء بغداد لإهمالهم علم المناسبات، والكلام في هذا الشأن، وقد ذكر الإمام السيوطي ما يدل علىٰ ذلك بقوله: «... أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قرئ عليه: لم جُعلت هذه الآية إلىٰ جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلىٰ هذه السورة، وكان يزري علىٰ علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»[(١)].

وتعرض أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠هـ) للوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم، وساق بعض الشواهد علىٰ التناسب بين آيات القرآن، ومنها:

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ النساء: ١٢٥] وما بعدها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[النساء: ١٢٦]، ووجه التناسب: إنما اتخذ إبراهيم خليلاً لحسن طاعته، لا لحاجته إليه ؛ لأنه له ما في السموات والأرض[(٢)].

وعرض الإمام الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) في تفسيره الكشاف لإعجاز وأسرار الجمال القرآني، وفيه يقول: «وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها»[(٣)]. وكان فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤هـ) أكثر المفسرين اعتناء بعلم المناسبات.

وقال الإمام الزركشي: « وقد قل اعتناء المفسرين بهذا العلم، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[(٤)]. والشواهد في تفسيره (التفسير الكبير) كثيرة.

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٨٢ ط الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية.
(٢) المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم للدكتور حسن مسعود الطوير ص ٤٦ ط بيروت، والمهدوي وجهوده في التفسير والقراءات لسعيد الفلاح ص ٢١٣ ط الكلية الزيتونية – تونس.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٢ ط دار الريان للتراث.
(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٦.

وكان فارس هذه الحلبة الشيخ الفقيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) صاحب كتاب: (البرهان في ترتيب سور القرآن)، له باع طويل في هذا الباب.

واهتم ابن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ) اهتماماً بالغاً بعلم المناسبة بين الآيات والسور في تفسيره: (التسهيل في علوم التنزيل) اقتداء بشيخه ابن الزبير الغرناطي.

ويعد الإمام أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) من أكثر المفسرين التزاماً بذكر المناسبات بين آيات وسور القرآن الكريم، فهو غالباً ما يقول في مطلع تفسير كل سورة: وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها... أو يقول: ومناسبة هذه السورة لما قبلها... أو يقول: واعتلاق هذه السورة بما قبلها... وهكذا، وتفسيره: (البحر المحيط) حافل بالشواهد على ذلك، فهو قد درج على ذكر مناسبة أول كل سورة إلى آخر ما قبلها.

وأعظم من كتب في هذا العلم، وأشفى على الغاية القصوى فيه، وغدا مرجعاً لا يستغنى عنه فيه، هو برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، حيث ذكر المناسبات بين آي القرآن الكريم وسوره كلها، بل وربط بين مطلع كل سورة ومقطعها.

واهتم بعلم المناسبة كذلك عدد من المفسرين منهم العلامة أبو السعود محمد ابن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ) في تفسيره: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، والألوسي شهاب الدين محمود (ت ١٢٧٠هـ) في تفسيره: (روح المعاني)، وغيرهم الكثير، وتفاسيرهم حافلة بالشواهد والأمثلة، وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم في كتابه: (الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره) عدداً لا بأس به ممن اهتم بعلم المناسبات مع ذكر أمثلة، فارجع إليه إن شئت.

٣- فوائد علم المناسبات وأهميته

للوقوف على وجوه المناسبات في القرآن الكريم فوائد عديدة، وحكم بليغة منها:

١- أنه وجه من وجوه الإعجاز من ولجه تجلت له أسرار كتاب الله، وتذوق بلاغة القرآن الكريم، وأدرك سره الذي أعجز أرباب الفصاحة، وفرسان البلاغة فبه يظهر الإعجاز القرآني في تآلف ألفاظه، وترتيب نظمه، وإظهار

الترابط والتناسق بين آياته وسوره.

وقد لمح العلماء قديما إلىٰ أهمية هذا العلم، وأنه وجه من وجوه الإعجاز، وكان أبو بكر النيسابوري المتوفىٰ سنة (٣٢٤هـ) يُزْرِي علىٰ علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة، وكان إذا أراد أن يفسر كتاب الله تعالىٰ يقول: «لِمَ جُعِلتْ هذه الآية إلىٰ جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلىٰ جنب هذه السورة»[١]. وقال أيضاً: «إن إعجاز القرآن لم يرجع إلا إلىٰ هذه المناسبات الخفية، والقوية بين آياته وسوره، حتىٰ كأن القرآن كله كالكلمة الواحدة، ترتيباً وتماسكاً»[٢].

وأما الإمام فخر الدين الرازي المتوفىٰ سنة (٦٠٦هـ) فقد صرح في آخر سورة البقرة بأهمية هذا العلم قائلا: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه، أرادوا ذلك»[٣].

٢- إن معرفة علم المناسبات يساعد علىٰ حسن التأويل، ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات، وترابط أفكارها، وتلاؤم ألفاظها، فالقرآن الكريم فيه كثير من فنون العقائد والأحكام، والأخلاق والوعظ، والقصص وغيرها من مقاصد القرآن الكريم التي جعلها الله سبحانه وتعالىٰ هداية للبشر، والتي تدور جميعها علىٰ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والقرآن الكريم يثبت هذا المعنىٰ من خلال المقاصد والأغراض الموزعة علىٰ كافة الآيات والسور، فلو جمع كل نوع علىٰ حدة، لفقد القرآن الكريم بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد خطر لي وجه، وهو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص، في مزج مقاصد القرآن بعضها، من عقائد، وحكم، ومواعظ وأحكام تعبدية ومدنية وغيرها، وهو نفي السآمة عن القارئ والسامع من طول النوع الواحد منها، وتجديد نشاطها ومنهجها»[٤].

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٨٢.
(٢) الفصل والوصل للدكتور بسيوني عرفة ص ٣٩ ط مكتبة الرسالة - القاهرة.
(٣) ينظر التفسير الكبير ٧/ ٣٤ ط دار الغد العربي.
(٤) ينظر تفسير المنار ٢/ ٤٤٥.

٣- إن علم المناسبات يعين على فهم معنى الآيات وتحديد المراد منها، ومن ذلك اختلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، فقال قوم: هي الملائكة، وهذا قول الجمهور، وقال آخرون: هي طير، والصحيح الأول؛ وذلك لأننا لو بحثنا عن المناسبة بين أول السورة وخاتمتها لوجدنا أنه سبحانه وتعالى قال في الخاتمة في معرض حديث الملائكة عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥- ١٦٦].

٤- إن التناسب يبين أسرار تكرار القصص القرآني، وتكرار الآيات المتشابهة، ومعرفة أغراضها وتناسبها مع السياق.

قال الإمام البقاعي موضحاً ذلك: «وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والتطويل مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة»[١].

٥- مراعاة التناسب من أهم العوامل في الرد على تحريف المنحرفين وكيد الكائدين وبيان شبه المفترين. فلقد حاول أعداء الإسلام منذ بزوغ شمسه وانبثاق فجره الطعن في كتاب الله تعالى ورميه بالتفكك وعدم التناسب، وقد قيض الله تعالى لهم من يرد عليهم ويبطل حجتهم.

٦- الوقوف على وجوه المناسبات يرسخ الإيمان في القلب، ويزيد المرء إيماناً ويثبت فؤاده بما يطلع على أسرار كتاب الله عز وجل.

قال الإمام البقاعي رحمه الله تعالى: «وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب[٢]»، فأنت ناظر في كتاب الله عز وجل فواجد كل كلمة قد اختيرت بدقة وعناية، وموضوعة بجوار ما يؤاخيها ويناسبها، وواجد أيضاً كل جملة بجوار أختها تؤاخيها وتأخذ بعضدها وتشد من أزرها، متعانقين في بناء محكم هو الآية، هذه البناءات الصغيرة المحكمة المتراصة الآخذ بعضها بحجز بعض

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ٨ ط دار الكتب العلمية، بيروت.
(٢) نظم الدرر: ١/ ٧.

تكـون بنيانـاً أكبر هو السـورة القرآنية الكريمة، هـذا البنـاء المحكـم إذا طفـت حولـه وتأملته بعيـن صقر ونظرة خبير سـتقول مـا أجمل هذا البنـاء وما أحكمـه وما أعظم مـن أقامه ورفعه، سـتجد كل لبنة موضوعة بجوار أختها متراصة متناسـقة معها غاية التناسـق، لا خلـل فيها ولا اضطراب ستسـلمك كل واحدة منها إلىٰ أختها وتأخـذ بيدك ثم تنتقل بـك دون جهد ولا تعب ولا نصـب إلىٰ أن تنتهـي بالمرور بك علىٰ هذا البناء الرصين والركن الركين فتنظر نظرة أوسع لتتبيـن المبنـىٰ الضخـم كله عسـىٰ أن تجد فيه مـا لا يروق نظـرك ويعوق بصـرك، فإذا نظرت هذه النظرة الشـاملة الفاحصة تبين لك العجب العجـاب، تبين لك أن هذا البناء الأكبر الضخم قطعـة فنية باهـرة محكمة الربط فخمة النسـيج فتنـادي بأعلـىٰ صوتـك للـداني والقاصـي من النـاس ها أوم اقـرءوا هذا الكتـاب كتاب ربي، وصـدق الله العظيـم سـبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

٤- أنواع المناسبات

لقـد توسـع علماؤنـا الأجـلاء في علـم المناسـبات، وهداهـم الله عز وجـل عن طريق البحث إلىٰ هذه الأنواع:

النـوع الأول: مناسـبة الآي بعضهـا لبعض بحيث يظهـروا ارتباطها وتناسـقها كأنها جملة واحدة.

وهـذا أمر مجمع عليه، فإن الآيات وضعت في أماكنها بتوقيف من الشارع الحكيم.

النوع الثاني: مناسـبة السور بعضها لبعض، وتحت هذا أقسام:

١- تناسـب بيـن السـورتين في موضعهما: كالأنفال وبراءة، والضحىٰ والشـرح، فالأنفال وبـراءة موضوعهما الحض علىٰ قتـال الكفار، وترك مهادنتهـم، وحكم المغانم، وقد ورد عن سـيدنا عثمـان بن عفـان رضي الله عنـه أنه ظن التوبـة مـع الأنفال سـورة واحـدة ؛ لأن قصتها تشبه قصتها، كذلك الضحىٰ والشرح متناسبتان في الموضـوع، متقاسـمتان بيـان فضـل النبـي الكريم عليه الصلاة والسلام.

٢- تناسـب بين فاتحـة السـورة وفاتحة ما قبلهـا: كآل عمـران والبقـرة، ويوسـف وهـود ويونـس، والحجـر وإبراهيـم، والطواسـين، والسـجدة ولقمان والروم والعنكبوت، وفاطر وسبأ، والحواميم، والجمعة والصف.

٣- تناسب بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها: كالكهف، فإن مطلعها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: ١] وخاتمة الإسراء: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١]، وكالنجم، فمطلعها: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] وختام الطور: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] وسورة قريش، فمطلعها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش:١]، وختام سورة الفيل: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[الفيل:٥]، وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ١]، فإنه في غاية المناسبة لختام سورة الواقعة التي قبلها، والتي أمرت به بقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٤٩].

قال الإمام بدر الدين الزركشي «.. إذا اعتبرت افتتاح كل سورة، وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها، ثم هو يخفىٰ تارة ويظهر أخرىٰ...»[(١)].

٤- مناسبة افتتاح السورة لمقاصدها: فسورة الإسراء افتتحت بالتسبيح بقوله تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، وسورة الكهف وهي تالية لها في الترتيب افتتحت بالحمد، بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١]. قال الشيخ كمال الدين الزملكاني: «إن سورة بني إسرائيل لما اشتملت علىٰ الإسراء الذي كذب المشركون به النبي ﷺ، وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالىٰ، أتىٰ بـ (سبحان) لتنزيه الله تعالىٰ عما نسب إلىٰ نبيه من الكذب. وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف، وتأخر الوحي، نزلت مبينة أن الله تعالىٰ لم يقطع نعمته عن نبيه ومصطفاه، ولا عن المؤمنين، بل أتم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد علىٰ هذه النعمة»[(٢)].

٥ - مناسبة فواتح السورة لخواتمها، وهذا هو موضوع البحث.

وهذا النوع من التناسب يُعد في بلاغة القرآن الكريم علماً منفرداً؛ لأن أواخر السور تتلاقىٰ

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ١/ ١٣٤.
(٢) المرجع السابق ١/ ١٣٥.

في النهاية مع طوالعها، وتضع لك دائرة عجيبة، ابتداء منها وامتداداً، وأنت تظن أنه يبعد عن مرفأ الرحلة، تم تراه وقد انتهىٰ بك إلىٰ المكان الذي بدأت منه، فتلك وحدة البناء الذي جعل السورة من القرآن الكريم محكمة متناسقة المعاني والمباني، والمطالع والمقاطع ولقد اهتم علماء البلاغة والبيان بالتناسب اهتماماً بالغاً، وقاسوا جودة الشاعر علىٰ تفننه في حسن المطلع وجودة التخلص والختام، وقالوا: ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف علىٰ حسن تجاورها أو قبحها فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه. وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره، وهذا ما يسمىٰ برد العجز علىٰ الصدر.

قال الجاحظ: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو علىٰ اللسان كما يجري الرهان»[1].

وبناء علىٰ ما تقدم فقد نبه العلماء إلىٰ أن سور القرآن الكريم تختم بمثل المعنىٰ الذي تفتح به، وقد كان ذلك واضحاً في كثير من السور، وخفياً في بعضها، ومع خفائه حاولوا أن يلتمسوا صلة ما بين أول السورة وآخرها.

قال الإمام أبو حيان الأندلسي: «... وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم فيها شيء، وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقىٰ آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة العرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذاً في شيء ثم يستطرد منه إلىٰ شيء آخر ثم إلىٰ آخر هكذا طويلاً، يم يعود إلىٰ ما كان آخذاً فيه أولاً، ومن أمعن النظر في ذلك سهل عليه مناسبة ما يظهر ببادئ النظر...»[2].

وقد نقول: إن هذه الظاهرة التي نحن بصددها تشير إلىٰ أن السورة كلها في ارتباطها وتناسقها وتكاملها، مهما تعددت أغراضها كآية واحدة، فلابد من وقوع المناسبة بين مطالع الكلام ومقاطعة، إلا أنه قد يخفىٰ ذلك في بعض المواضع علىٰ من لم يكن بارعاً في علم البيان.

(١) البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون ١/ ٩٧ط الخانجي – القاهرة.
(٢) ينظر البحر المحيط ٢/ ٣٦٣، ٣٦٤ ط السعادة – مصر.

المبحث الثاني

مناسبة أوائل السور لأواخرها

من أول سورة الفاتحة إلىٰ آخر سورة الكهف

١ - سورة الفاتحة

بالتأمل والنظر في سورة الفاتحة نجد أن هناك تناسبًا بين فاتحتها وخاتمتها ويتضح ذلك فيما يلي:

إن أول السورة الكريمة مشتمل علىٰ الحمد والثناء الجميل علىٰ الله تعالىٰ، والمدح له جل شأنه، وآخرها مشتمل علىٰ الذم للمعرضين عن الإيمان والإقرار بطاعته، وذلك يدل علىٰ أن مطلع الخيرات، وعنوان السعادات هو الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، ومطلع الآفات ورأس المخالفات هو الإعراض عن الله تعالىٰ والبعد عن طاعته والاجتناب عن خدمته[١].

وتلمس ابن قيم الجوزية مناسبة أخرىٰ بين مطلع السورة ومقطعها مفادها: « أن مطلعها الحمد والثناء العظيم لله عز وجل، فهو دعاء التعظيم والتمجيد، ومقطعها دعاء المسألة والطلب: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الآيتان: ٦، ٧] فأولها وسيلة لمقطعها»[٢].

٢ - سورة البقرة

المتأمل في مطلع سورة البقرة وخاتمتها يدرك المناسبة بين أول السورة وآخرها، فقد بدأ ربنا السورة الكريمة بمدح المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الآية: ٣]، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال جل شأنه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الآية: ٢٨٥]، وهذا هو المراد بقوله سبحانه في أول السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، ثم قال جل وعلا في آخرها: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾، وهو المراد بقوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾، ثم قال في آخر السورة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١/ ٣١٩ ط دار الغد العربي.

(٢) مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي ١/ ٢٣ بتصرف، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.

قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، ثم حكى عن المؤمنين في آخر السورة كيفية تضرعهم إلى ربهم ودعائهم له أن ينصرهم على القوم الكافرين، في قولهم: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الآية: ٢٨٦]، وهو المراد بقول جل جلاله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٥]، فتناسب مطلعها ومقطعها[1].

وقال أبو حيان: « ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل وأنه هدىً للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله كان مختتمها أيضاً موافقاً لمفتتحها»[2].

٣- سورة آل عمران

افتتحت سورة آل عمران بأمرين: أحدهما: دعاء المؤمنين، المتمثل في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الآيتان:٨، ٩].

وثانيهما: تهوين شأن الكفار وبيان مصيرهم، وذلك في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[الآيات: ١٠- ١٢].

واختتمت بمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤]، وكذلك قوله تعالى:

(١) التفسير الكبير ٧/ ٣٣، وجواهر البيان في تناسب سور القرآن للغماري ص ٢٤ مكتبة القاهرة – ط محمد عاطف وسيد طه – مصر.
(٢) ينظر البحر المحيط ٢/ ٣٦٣ ط السعادة – مصر.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الآيتان: ١٩٦، ١٩٧]. فتناسب فيها المطلع والمقطع[1].

يضاف إلىٰ ما تقدم أن هناك تناسبًا وصلة وثيقة بين مطلع السورة الكريمة ومقطعها، فما أشبه قوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الآية: ٧] بقوله سبحانه في آخر السورة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الآيتان: ١٩٠، ١٩١]. فالآية الأولىٰ تذكر أولي الألباب وتذكر الراسخين في العلم، والآية الثانية تذكر سماتهم وتبين سيرتهم. والآية الأولىٰ تذكر مسارعة الراسخين في العلم وهم أولوا الألباب إلىٰ الإيمان بكتاب الله في مقابل استكبار أهل الزيغ وتلاعبهم بآياته، والآية الثانية تصور حسن موقفهم من آيات هذا الكون وتذكر تفكرهم فيها وحسن تلقيهم لدروسها وعظاتها فهم يتذكرون بكتاب الله المفتوح في هذا الكون كما يتذكرون الكتاب الذي أنزله علىٰ رسوله. ثم ما أشبه قوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [الآية: ٨] بقوله تعالىٰ في آخرها: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [الآية: ١٩٣]، فقولهم: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ يعكس نفس المشاعر التي يعكسها قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾، فكلاهما يعبران عن حرصهم علىٰ التمسك بهذه الرسالة والموت تحت لوائها والبر بالعهد والميثاق الذي أبرموه علىٰ أنفسهم حين آمنوا بها ووصلوا حبلهم بحبلها فالدعوتان متشابهتان في محتوياتها، وأما ما تراه من الآيات في الدعاء الثاني من قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [الآية: ١٩٣] فهو ليس في الواقع زيادة إنما

(١) جواهر البيان ص ٢٨.

هو طلب شيء يقربهم إلىٰ مطلوبهم، حيث إن الذنوب والسيئات هي التي تورث الزيغ في القلوب، ولا تدع الإنسان ينهض بأعباء البر، ثم ما أشبه قوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الآية: ٩] بقوله تعالىٰ في آخرها: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الآية: ١٩٤]، فالدعاء الأول يصور لنا كأن عباداً من عباد الله الخاشعين خروا أمامه ساجدين ليستنجدوه من عذاب النار فطفقوا يقولون: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ وما بلغوا من كلامهم إلىٰ الحد حتىٰ اختنقت أصواتهم بالبكاء فلم يستطيعوا أن يكملوا حديثهم ولم يستطيعوا أن يزيدوا علىٰ ما قالوه، وإذا بربهم الودود الرحيم يتوجه إليهم بخطابه المباشر، يسكن قلوبهم الخائفة المرتجفة، ويسكب فيها برد الاطمئنان، ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ وهذا الدعاء له ميزته وله دلالته، فما نعلم في القرآن الكريم دعاء ورد علىٰ مثل هذا الأسلوب، حيث إن القوم ينادون ربهم بأصواتهم الخاشعة الضارعة: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ ثم تسكت أصواتهم قبل أن يفصحوا بما يريدون وإذا بربهم يقبل إليهم ليسكنهم ويطمئنهم، إنهم سيجدون كل ما وُعِدُوا به.

ثم لا تدري كيف تعبر عما يشتمل عليه قوله تعالىٰ في هذا الجو وفي هذا السياق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾، ففيه من سكينة وطمأنينة وقرة عين ما يجل عن الوصف ! ثم نشعر بجانب هذا الدعاء تلك الأدعية التي وردت بها الخواتيم: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الآيات: ١٩١- ١٩٤]، حين تضع تلك الأدعية الخاشعة الراجفة الطول بجانب ذلك الدعاء الضارع الوجيز نشعر كأن هؤلاء القوم هم رفعوا أيديهم مرة أخرىٰ ليكملوا ما بقي من حديثهم مع ربهم، ويسكبوا بين يديه من دموعهم بعدما أراقوا في سبيله من دمائهم ليجيرهم من عذاب النار.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ذلك الدعاء الذي ورد في أول السورة الكريمة ختم بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ وهذه الأدعية أيضاً تختم بنفس الختام مع فرق

يسير: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وهذا الختام كما يدل علىٰ روعة المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، يدل علىٰ حسن تجاوب هؤلاء المؤمنين مع ربهم، حيث إنه تعالىٰ قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، فتلقوا منه ما علمهم ورددوه في خشوع وإخبات: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٤- سورة النساء

افتتحت سورة النساء بقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [الآية: ١]، وهذا أمر من الله للناس جميعاً بالتعطف علىٰ الأولاد والنساء والأيتام، والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم عليهم، وبهذا المعنىٰ ختمت السورة الكريمة، قال تعالىٰ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

قال الشيخ محمد الغزالي: «وتختتم سورة النساء بآية تشرح ميراث الكلالة - وهو من لا ولد له ولا والد. وهي بذلك الختم تكمل ما بدأت به السورة من حديث عن الأسرة وتكوينها وحراستها وتفصيل قضاياها: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾»[1].

ومن هنا ظهرت مناسبة آخر هذه السورة لأولها؛ لأن أولها مشير إلىٰ أن الناس كلهم من أصل واحد، وهذا يقتضي أنهم متساوون في الحقوق والواجبات ولا يمتازون إلا بمقدار إقامة الشرع، وقد أمرهم سبحانه وتعالىٰ بالتعطف علىٰ الأولاد والنساء والأيتام والرأفة بهم، وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم، وآخرها مشير إلىٰ ذلك بالتسوية بين النساء والرجال في أصل الميراث، وإن اختلفت الأنصباء، وفيه معنىٰ حفظ الحقوق وإيصالها إلىٰ أهلها، فكأنه قيل: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وسوىٰ بينهم فيما أراد من الأحكام فإنه من استكبر

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولىٰ ص ٧٠ ط دار الشروق.

– ولو عن حكم من أحكامه – فسيجازيه يوم الحشر، ولا يجد له من دون الله ناصراً، ولا يخفىٰ عليه شيء من حاله[1].

لذا فقد قال الإمام القاسمي «... ورجحه بعضهم بأنه من حسن الختام، والالتفات إلىٰ أول السورة وهو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وبين لهم ما كانوا عليه في الجاهلية، ولما تم تفصيله قال لهم: إني بينت لكم ضلالكم فاتقوني كما أمرتكم، فإن الشر إذا عرف اجتنب والخير إذا عرف ارتكب»[2].

بل في هذه السورة الكريمة لطيفة عجيبة، وهي أن أولها مشتمل علىٰ بيان كمال قدرة الله تعالىٰ فإنه سبحانه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهذا دال علىٰ سعة القدرة، وآخرها مشتمل علىٰ بيان كمال العلم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلالة والعزة، وبهما يجب علىٰ العبد أن يكون مطيعاً للأوامر والنواهي منقاداً لكل التكاليف[3].

بذا فقد رأينا شدة مناسبة ختامها بإحاطة العلم لما دل عليه أولها من تمام القدرة، فكان آخر السورة الكريمة دليلاً علىٰ أولها؛ لأن تمام العلم مستلزم بشمول القدرة.

٥- سورة المائدة

إن مفتتح سورة المائدة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [الآية:١]، وكمال حال المؤمن أن يشرع في العبودية وينتهي إلىٰ الفناء المحض عن نفسه بالكلية، فالأول هو الشريعة، وهو البداية، والآخر هو الحقيقة وهو النهاية.

فمفتتح السورة الكريمة من الشريعة، ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الآية: ١٢٠]، أي هو قادر علىٰ إسعاد من شاء وإشقاء من شاء، وإحلال ما شاء وتحريم ما شاء، والحكم بما يريد ونفع الصادقين الموفين الثابتين علىٰ العهود، وذلك هو الوصول إلىٰ مقام الحقيقة

(١) نظم الدرر ٢/ ٣٨٢.
(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٥/ ١٧٧٩ ط/ فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.
(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٥٤٣.

- فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح وهذا المختتم[1].

قلت: إن أول السورة الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١]، وآخرها: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الآية: ١٢٠] والذي هو على كل شيء قدير هو الذي يحكم ما يريد.

يضاف إلى ذلك أن ختام هذه السورة بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الآية: ١٢٠] مناسب لما قبله مباشرة ومناسب لأن يكون ختاماً لمجموع هذه السورة.

أما الأول: فلما بين ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق، بين عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره.

وأما الثاني: فلما كان أكثر آيات هذه السورة في محاجة أهل الكتاب عامة، وبسط الحجج على بطلان أقوال النصارى في نبيهم خاصة، وسائرهم في بيان أحكام الحلال والحرام، مع النص على إكمال الدين بالقرآن، وعلى وحدة الدين الإلهي واختلاف الشرائع والمناهج للأمم، فكان مسك ختامها ذكر الجزاء في الآخرة بما يناسب أحكامها كلها، كذلك ناسب أن تختم أيضاً ببيان كون الملك كله والقدرة كلها لله وحده، وأن ملك السموات والأرض وما فيهن لله وحده، كما يدل عليه تقديم الظرف - وهو خبر المبتدأ - وقد اختيرت كلمة (ما) في قوله تعالى ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ على (من) الخاصة بمن يعقل، وهو الذي من شأنه أن يملك، لأن مدلولها أعم وأشمل، وللإشارة إلى أن يوم الجزاء الحق يستوي فيه من يعقل ومن لا يعقل، فلا يملك أحد شيئاً[2].

٦- سورة الأنعام

افتتحت سورة الأنعام بما يدل على أن الله تعالى حقيق بالحمد والثناء الجميل على ما خلق من نعم، وأوجد من كائنات، ثم الذين كفروا يجحدون كل ذلك فيشركون معه آلهة

(١) التفسير الكبير ١١/ ٢٠٥، ونظم الدرر ٢/ ٥٧٧ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المنار تأليف السيد محمد رشيد رضا ٧/ ٢٢٩ - ٢٣٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، وتفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي ٣/ ٥٥ ط دار الكتب العلمية - بيروت.

أخرىٰ، ويجعلون غيره ممن لا يقدر علىٰ شيء معادلاً له مع معرفتهم به بأنه هو الذي أبدع الأشياء وذلك كفراً لنعمته وبعداً عن رحمته، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الآية: ١].

وختمت السورة الكريمة بالمعنىٰ نفسه فقد جاء في أواخرها قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الآية: ١٥٠] أي: وهم مع جهلهم واتباعهم الأهواء لا يؤمنون بالآخرة.

كذلك في أوائل السورة الكريمة: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الآية: ٦]، وفي آخرها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية:١٦٥][1].

أضف إلىٰ ما تقدم أن السورة الكريمة ختمت بالوعد والوعيد الذي أورده الله تعالىٰ علىٰ وجه المبالغة في وصف العقاب بالسرعة وتوكيد الرحمة بالكلام المفيد بتحقيق الوقوع، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية: ١٦٥]، أي أنه سبحانه وتعالىٰ علىٰ سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين، غفور للتوابين رحيم بالمؤمنين المحسنين، إذ سبقت رحمته غضبه، ووسعت كل شيء، فإن المولىٰ جلت قدرته علىٰ سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين نجد أنه قد رغب بعد هذا الرهيب في العفو بأنه علىٰ غناه عن الكل أسبل ذيل غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة وقبول اليسير من الطاعات بأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور منافع لهم ثم هم به يعدلون ! ولولا غفرانه ورحمته لأسرع عقابه لمن عدل به غيره فأسقط عليهم السموات وخسف بهم الأرضين التي أنعم عليهم بالخلافة فيها، وأذهب عنهم النور وأدام الظلام، وبذا فقد ختم السورة الكريمة بما به ابتدأها، فإن قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية: ١٦٥] هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [الآية: ٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [الآية: ١٦٤] هو معنىٰ قوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ

(١) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي. تحقيق د/ محمد يوسف الشربجي ص ٢ ط مجلة الأحمدية. جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢٠ هـ.

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الآية: ١]، فتناسب فيها المطلع والمقطع[١].

٧- سورة الأعراف

ابتدأت سورة الأعراف بالأمر باتباع القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الآيتان: ٢، ٣]، وختمت بالأمر بالاستماع إليه، قال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الآية: ٢٠٤]، فتناسب المطلع والمقطع[٢].

قال الإمام البقاعي: « وقد رجع آخر السورة في الأمر باتباع القرآن إلىٰ أولها أحسن رجوع، ولو وصف المقربين بعدم الاستكبار والمواظبة علىٰ وظائف الخضوع إلىٰ وصف إبليس بعصيان أمر الله في السجود لآدم عليه السلام علىٰ طريق الاستكبار أيّ التفات، بل شرع في رد المقطع علىٰ المطلع حين أتم قصص الأنبياء...»[٣].

كذلك قصت علينا السورة الكريمة في أوائلها كيف نجح الشيطان في إخراج آدم عليه السلام من الجنة، وبينت أن محاولاته لتضليل بنيه لن تنتهي ! لكن الشيطان لا يملك أكثر من الوسوسة. وما دام الإنسان مؤمنًا فستنهزم الوساوس وترتد مدحورة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الآية: ٢٠١].

٨- سورة الأنفال

افتتحت سورة الأنفال بقوله تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الآية: ٤]، واختتمت بقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الآية: ٧٤].

وكذلك ختمت السورة الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، وهذا

(١) نظم الدرر ٦/ ٧٥٦.
(٢) جواهر البيان ص ٣٢.
(٣) نظم الدرر ٣/ ١٨٠.

تعقيب مناسب ليس لأحكام السياق الأخير فحسب بل لجميع أحكام السورة وحكمها.

فقد انطبق آخر السورة بالإعراض عن الدنيا وإصلاح ذات البين وبيان المؤمنين حقاً وتقليد العليم في جميع الأعمال من غير اعتراض علىٰ أولها، إذ إن في أولها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ وفي آخرها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، والصلة أقوىٰ ما تكون بين السؤال والعلم.

٩- سورة التوبة

افتتحت سورة التوبة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الآية: ٣]، وختمت بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ [الآية: ١٢٩]، بل إني لأنظر إلىٰ أول السورة الكريمة ثم أتدبر خواتيمها فأشعر بالعجب ! أول السورة الكريمة براءة من الطاغوت ورجاله العابثين بالمعاهدات، وآخرها تذكير برحمة الله العامة عندما أرسل نبي الملحمة ونبي الرحمة.. إنه نبي محارب، يتصدىٰ بالسلاح لمن يحملون السلاح، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن السلام في كل شبر من الأرض، ويسعىٰ إلىٰ مسح الغبار عن كل جبين، ومحو العنت عن كل محزون مُعنَت، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية: ١٢٨] إنه ما قاتل حباً في القتال، ولكن كرهاً للتسلط والعدوان، فإذا ضُمِنتْ العدالة وسادت الحرية وصِينَتْ الحقوق، لا يلجأ إلىٰ الحروب إلا مجرم. من أجل ذلك ختمت السورة الكريمة بهذه الآية: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الآية: ١٢٩]. وبذا فقد عانق آخر السورة أولها، وصافح منتهاها مبتدأها.

١٠- سورة يونس عليه السلام

افتتحت سورة يونس عليه السلام بقوله تعالىٰ: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الآيتان: ١، ٢]، ثم تختم بهاتين الآيتين وبهذا الإعلام العام الذي بدأت به، فتصل منه ما انقطع: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ

مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الآيتان: ١٠٨، ١٠٩].

فأنت تجد أن الله جلت قدرته قد ختم هذه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب، والإشارة إلىٰ الإرشاد لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دل عليه الكتاب العزيز.

بل إن خاتمة هذه السورة تضمنت جولات حول العقيدة في مسائلها الرئيسية الكبيرة: توحيد الربوبية، ونفي الشركاء والشفعاء، ورجعة الأمر كله إلىٰ الله، وسننه المقدرة التي لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها. والوحي وصدقه، والحق الخالص الذي جاء به، والبعث واليوم الآخر، والقسط في الجزاء.

هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله، وسبقت القصص لإيضاحها، وضربت الأمثال لبيانها.

١١- سورة هود عليه السلام

تبدأ السورة الكريمة بتوجيه الخطاب إلىٰ النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وإلفاته إلىٰ الكتاب الذي أُنزل إليه من ربه، وكذلك تأمر بعبادة الله وحده، وعدم عبادة أحد سواه: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾[الآيتان: ١، ٢].

ثم هي تنتهي بخطاب النبي ﷺ أيضاً ودعوته إلىٰ عبادة ربه الذي أنزل عليه الكتاب والتوكل عليه ؛ إذ هو أعرف الناس بربه، وأولاهم بعبادته والتوكل عليه، وهو سبحانه رقيب علىٰ كل شيء، عالم بكل شيء - يرىٰ المحسنين والمسيئين - ويجزي كلاً بما كسب: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الآية: ١٢٣].

بهذه الآية تختم السورة الكريمة، جاعلة لله سبحانه وتعالىٰ وحده غيب السموات والأرض، إذ قد استأثر سبحانه بعلم كل ما هو غائب عنا.

قلت: ومناسبة هذا الختام للسورة الكريمة هي أنها اشتملت علىٰ كثير من أنباء الغيب التي ذُكرت في قصص الأنبياء... نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم

السلام، وهي أنباء لم يكن عند أهل الكتاب بعض منها إلا أن كثيراً مما جاء به القرآن الكريم لم يكن عندهم به علم، والذي كان لهم به علم هو خليط من الصدق والكذب، ومزيج من الواقع والخيال.

أما ما جاء به القرآن الكريم فهو الحق المطلق، والصدق المصفىٰ. ثم إن هذا القصص كان غيباً بالنسبة للعرب، والذي كان عندهم منه هو أوهام وظنون تلقوها من أهل الكتاب شبه أحاجٍ بعيدة عن الحق، وفي هذا يقول الله جلت قدرته في هذه السورة: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩].

وذكر الإمام السيوطي أن سورة هود افتتحت بذكر القرآن وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [الآية: ١]، فهي تصف الكتاب بالحكمة، ثم تعطيه وصفاً آخر هو أن الحكمة التي اشتمل عليها لم تكن حكمة مجملة مغلقة، بل هي حكمة مفصلة واضحة مشرقة، تنالها أفهام الناس جميعاً. وختمت بذكر القرآن، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية: ١٢٠][1].

وبذا فقد ختمت السورة الكريمة بما بدئت به من الحديث عن القرآن الكريم، ومن الأمر بعبادة الله تعالىٰ وحده والاتكال عليه، والتحذير من عقابه، ليتناسق البدء مع الختام.

١٢- سورة يوسف عليه السلام

افتتحت سورة يوسف عليه السلام بقوله تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الآية: ٣]، ففي الآية الكريمة قص القصص علىٰ الرسول الكريم ﷺ، بوحي القرآن إليه، وفي آخر السورة نفس الأمرين في قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الآية: ١١١] فعند بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ القرآن الكريم، فتناسب مطلعها ومقطعها.

(١) مراصد المطالع ص ٩٣.

١٣- سورة الرعد

افتتحت سورة الرعد بالثناء علىٰ القرآن الكريم، وبالإشارة إلىٰ إعجازه، بل وتؤكد أن القرآن حق ولو جهل ذلك أكثر الناس: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الآية: ١] فآيات هذا الكتاب هي الحق، ولا حق وراءها؛ لأنها كلمات الله تعالىٰ... وكلام الله صفة من صفاته، وفي هذا توكيد لنفي الشبه والريب عن القرآن الكريم، وتقرير بأنه الحق من رب العالمين. وختمت أيضاً بالثناء علىٰ القرآن الكريم، وبشهادة الله لرسوله ﷺ بالنبوة والرسالة، وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب بوجود إمارات النبي محمد ﷺ في كتبهم، ففي الثناء علىٰ القرآن جاء في مقطع السورة قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ [الآية: ٣٧]، وفي شهادة الله لرسوله ﷺ وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب جاء في الآية الأخيرة من السورة الكريمة: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الآية: ٤٣]، وبهذه الآية الكريمة تختم سورة (الرعد) فيلتقي ختامها مع بدئها، وينطبق هذا الآخر علىٰ أول السورة في أن المنزل حق من عنده، وأنهم لا يؤمنون[١].

١٤- سورة إبراهيم عليه السلام

افتتحت سورة إبراهيم ببلاغ للناس أن الله أنزل الكتاب علىٰ نبيه الخاتم ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الآية: ١]، وها هي ذي السورة تختتم ببلاغ مؤكد حاسم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الآية: ٥٢]، وهذا نوع من المحسنات البديعية يسمىٰ: (رد العجز علىٰ الصدر)، وهو أيضاً من تناسب مطلع السورة ومقطعها[٢].

(١) نظم الدرر ٤/ ١٦٤.

(٢) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص ٤٥، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الثانية ص ٤٧- ٤٧ بتصرف.

هـذا، وقد ألمـح الإمام فخر الديـن الرازي مناسـبة أخرىٰ، وهـي أن أول السـورة وآخرها يدل علىٰ أن العبد مستقل بفعله، إن شـاء أطاع وإن شاء عصىٰ.

أما أول هذه السورة فهو قوله تعالىٰ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الآيـة: ١] فإنـا قـد ذكرنـا هناك - أي في أول السـورة - أن هذا يدل علىٰ أن المقصود من إنزال الكتاب إرشـاد الخلـق كلهم إلـىٰ الدين والتقـوىٰ ومنعهم عن الكفر والمعصية.

وأمـا آخـر السـورة فـلأن قولـه تعالـىٰ: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآيـة: ٥٢] يـدل علىٰ أنه تعالىٰ إنما أنزل هذه السورة، وإنما ذكر هـذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيـروا مؤمنيـن مطيعين، ويتركـوا الكفر والمعصيـة فظهر أن أول هذه السـورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنىٰ[1].

وتوضيـح ذلـك أن آيـة: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ علىٰ وجازتها قد تكفلت بجميع علـوم الشـريعة أصـولاً وفروعـاً وذلـك علىٰ سـبيل الإجمـال، وقد انطبق آخر السـورة علىٰ أولهـا؛ لأن هذا عين الخروج من الظلمات إلىٰ النور بهذا الكتاب الحامل علىٰ كل صواب[2].

١٥ - سورة الحجر

افتتحت سورة الحجر بذكر القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الآيـة: ١]، والمـراد بالكتـاب القرآن الكريم، ولا يقدح في هذا ذكر لفظ القرآن بعده؛ لأنه سـبحانه جمـع له بيـن الاسـمين تفخيمـاً لشأنه وتعظيمـاً لقدرته، واختتمت بذكر القرآن الكريـم أيضـاً، وذلـك في قولـه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

يضاف إلىٰ ما تقدم أن آخر السـورة الكريمة يؤكد أولها ويتجاوب معه، فعندما يتحدىٰ عبيد الحيـاة أنبياءهـم، ويعترضـون علـىٰ طريقتهم ويظنـون الدولـة خالـدة لهـم، يجـيء في أول السـورة قوله تعالـىٰ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الآيتـان: ٤، ٥]، وهـذا قول

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٣٧٧.
(٢) نظر الدرر ٤/ ١٩٨.

موجز تفسره أواخر السورة عندما تقص علينا كيف هلك قوم لوط، وقوم شعيب، وقوم صالح !!.

كذلك في أول سورة الحجر وآخرها حديث سائق عن الكون وأسراره وقواه الدالة علىٰ خالقه جل جلاله، فقد قال ربنا في أوائل السورة الكريمة: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الآيات: ١٦-٢٠].

لقد فصل المولىٰ جلت قدرته في أول السورة بركات الكون وخيراته وعجائبه ولكنه أجمل في آخر السورة وأوجز عندما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الآيتان: ٨٥، ٨٦][1].

وبذا فقد انطبق آخر السورة علىٰ أولها أتم انطباق، واعتنق كل من الطرفين الآخر والأول أيَّ اعتناق.

١٦- سور النحل

افتتحت سورة النحل بالنهي عن الاستعجال، وختمت بالأمر بالصبر وتوضيح ذلك أن سورة النحل نزلت في أخريات العهد المكي بعدما احتدم العراك بين المشركين والمؤمنين، وطال الأمد ولم يظفر الإيمان بنصر يشد أزره، ولم ينزل بالشرك حدث يقصم ظهره، ولقد كان مشركو مكة يستعجلون الرسول الكريم ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب ازدادوا استعجالاً، وازدادوا استهزاء، وازدادوا استهتاراً، وحسبوا أن رسول الله ﷺ يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة، ليؤمنوا له ويستسلموا، وكأنهم يقولون له ﷺ وللمؤمنين معه: أين ما توعدوننا به وتنتظرون وقوعه؟ فكأن الجواب كل آت قريب، إنَّ غداً لناظره قريب، فجاء مطلع السورة الكريمة حاسماً جازماً: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [الآية: ١]، وما يتحقق وقوعه يمكن الجزم به... وفي هذا الأجل يجب علىٰ المسلمين أن

(١) نحو تفسير موضوعي ص ٤٩- ٥١ باختصار وتصرف.

يصبروا دون ارتياب، ولذلك يقول الله تعالىٰ في آخر السورة لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [الآيتان: ١٢٧، ١٢٨].

وقد صابر المسلمون الأيام وعندما حزت في جلودهم الآلام نزلت آيتان في هذه السورة الكريمة تعزيان المسلمين، وتُصبرانهم علىٰ ما نزل بهم.

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الآية: ٤١].

والثانية: قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الآية: ١١٠].

وقد قال الإمام البقاعي عند تفسيره للآية الأخيرة من السورة الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [الآية:١٢٨]: «أي صار الإحسان صفة لهم غير منفكة عنهم، فهم في حضرات الرحمن، وأنت رأس المتقين المحسنين، فالله معك، ومن كان الله معه كان غالبًا، وصفقته رابحة، وحالته صالحة، وأمره عال، وضده في أسوأ الأحوال، لا تستعجلوا قلقًا كما استعجل الكفار استهزاءً، تخلقًا في التأني والحلم بصفة من تنزه عن نقص الاستعجال، وتعالىٰ عن ادعاء الأكفاء والأمثال، فقد عانق آخرها أولها، ووافق مقطعها مطلعها»[1].

١٧ - سورة الإسراء

افتتحت سورة الإسراء بالتسبيح إشارة إلىٰ أن الإسراء من المعجزات العظيمة التي تثير دهشة السامع وإعجازه، فلا يملك إلا أن يسبح الله تعالىٰ تنزيهًا له عما ينسبه له الجاهلون وهذا أحد الأدلة علىٰ أن الإسراء كان يقظة بالجسم والروح؛ إذ لو كان منامًا كما يقول بعض المبتدعة، لم يكن للتسبيح معنىٰ.

وختمت السورة الكريمة بالتحميد أي بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك،

(١) نظم الدرر ٤/ ٣٢٦.

وتنزيهه عن الحاجة إلىٰ الولي والنصير: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الآية: ١١١]، فيلتقي ختامها مع بدئها، حيث بدأت بتسبيح الله وتنزيهه، ثم ختمت بحمده وتقديسه.

وقال ابن الزملكاني: «لما اشتملت هذه السورة علىٰ الإسراء الذي كذب المشركون به النبي ﷺ، وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالىٰ. أتىٰ بـ(سبحان) لتنزيه الله تعالىٰ عما نسب إليه نبيه من الكذب. واختتمت بالتحميد، فتناسب مطلعها ومقطعها ؛ حيث بدئت بتنزيه الله عن النقائص، وانتهت بإثبات الكمال له تعالىٰ. وهذا هو الوضع الطبيعي: نفي، ثم إثبات»[1].

١٨- سورة الكهف

افتتحت سورة الكهف بالتحميد علىٰ إنزال الكتاب علىٰ عبد الله ورسوله محمد ﷺ، وكذلك إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولداً، وبشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الآيات: ١-٤].

وختمت بإيجاب العمل الصالح والنهي عن الشرك: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الآية: ١١٠]، فتناسب فيها المطلع والمقطع.

كذلك ختمت سورة الكهف بالمعاني التي ذكرت في أولها، فالسورة الكريمة في أولها ما يدل علىٰ تقرير عقيدة التوحيد ونفي أن يكون لله أولاد أو أنداد: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الآية: ٥] وفي أواخرها قال الله تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ [الآية: ١٠٢].

وفي أول السورة يبين المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن الناس خلقوا لإحسان العمل، وتلك

(١) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص ٥٢.

وظائفهم في الحياة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الآية:٧]، وفي أواخر السورة يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ [الآية: ١٠٣][1]، وبذا فقد انطبق آخر السورة علىٰ أولها، والتقىٰ ختامها مع بدئها.

وخلاصة القول: إن كل القضايا التي ذكرت في مطلع السورة، ذكرت مرة أخرىٰ في خاتمتها، بأسلوبين مختلفين في غاية الإيجاز والإعجاز، فمن حفظ هذه القضايا، والتزم بها وقرأها باستمرار، كانت له عصمة من الدجال ومن فتنة الدنيا وزينتها.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا ونبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊ ❊

(١) جواهر البيان في تناسب سور القرآن ص ٥٧، ونحو تفسير موضوعي، الأجزاء العشرة الثانية ص ٨٨ – ٨٩ بتصرف.

قواعد التدبّر الأمثل للقرآن الكريم
عند الإمام أبي حامد الغزالي (ت505هـ)

د. أسامة عبدالوهاب الحياني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيّد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فلا شكّ أنّ كثيراً من العلماء كتبوا في موضوع تدبّر القرآن الكريم من حيث مفهومه وغايته ومقاصده والأسباب المعينة عليه وغير ذلك من المباحث، ممّا هو منثور في الكتب والمصنفات، وكذا بُحث موضوع التدبّر في بعض الملتقيات العلمية من جوانب عدة إلا أنّ الجانب التطبيقي السلوكي للتدبر ما زال بحاجة إلىٰ دراسة وعناية؛ نظراً لأهميته في حياة الفرد والمجتمع، فهو من أعظم الوسائل في بناء الجيل الإسلامي روحيًا وسلوكيًا وأخلاقيًا، وهو من عوامل تحضّر المسلمين في مختلف مناحي الحياة، وغياب التدبّر من أقوىٰ أسباب التخلف الحضاري.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تتمثل أهمية البحث في الحاجة الماسة في هذا العصر إلىٰ بيان أهمية قواعد التدبّر، وأثر ذلك في حياة الأمة وصلاحها وعزّها وقوّتها، فمقصود إنزال القرآن ليس التلاوة فحسب مع ما لها من أجر عظيم وثواب جزيل، وإنما تدبّر القرآن وفهمه والعمل بمقتضاه هو مقصود تنزل القرآن الكريم، وهو ثمرة التلاوة ومقصودها؛ لأنه السبيل إلىٰ الاتباع والعمل.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلىٰ الآتي:

١- الوقوف علىٰ الأسس والقواعد المعينة علىٰ تدبّر القرآن الكريم التي خطّها وأرسىٰ قواعدها علماؤنا الأفذاذ من السلف والخلف (رحمهم الله تعالىٰ)، وكان من أوائل الذين كتبوا في هذا الموضوع حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ).

٢- الإسهام في إظهار وسائل نهضة الأمة عن طريق التمسك بالقرآن الكريم تلاوة وفهماً وتدبراً وعملاً.

منهج البحث:

يقوم منهج البحث علىٰ تتبع واستقراء دقيق لقواعد التدبّر الأمثل للقرآن الكريم التي ذكرها الإمام الغزالي في كتابه: (إحياء علوم الدين)، وعليه يكون المنهج المتبع في كتابة البحث: المنهج الاستقرائي التحليلي لما أورده الغزالي

من أقوال ونقولات، وتحرير هذه الأقوال وصياغتها على شكل أسس وقواعد تُعين على فهم وتدبر القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

تنوعت الدراسات المتعلقة بتدبر القرآن الكريم، نظراً لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة في واقعنا المعاصر لا سيّما ونحن نعيش واقعاً مريراً من التفكك والاقتتال بسبب بعدنا عن القرآن ومنهجه وفهمه وتدبره، وأحسب أنّ موضوع التدبّر بُحث في كتب وأبحاث ومؤتمرات[١]، ولم أقف -بحسب علمي- على بحث استخلص قواعد التدبّر الأمثل عند أبي حامد الغزالي في كتابه الإحياء، ولم تفرد له دراسة مستقلة إلا أنّي وجدت بعض المعنيين بالتدبّر ينقلون عنه بعض أقواله في هذه القضية الهامّة في حياة الفرد والمجتمع؛ لذا سأتناول قواعد التدبّر عند الإمام الغزالي الذي يُعدّ من أبرز الأئمة المجددين الذين دعوا إلى إحياء علوم الدين، وعلوم القرآن في قلوب الناس منهجاً وتطبيقاً وسلوكاً[٢].

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن يشتمل على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

أمّا المقدمة: فشملت الكلام عن أهمية موضوع البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

وأمّا التمهيد: فشمل نبذة موجزة عن الإمام الغزالي، وكتابه: (إحياء علوم الدين).

وأمّا المبحث الأول: فكان عن مفهوم التدبّر في القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي.

(١) وأما الكتب فهي كثيرة منها: فن التدبر في القرآن الكريم، عصام العويد، ومنهج تدبر القرآن الكريم، حكمت بشير ياسين، وغيرهما. وأما المؤتمرات والملتقيات فكثيرة أيضاً، ومنها: الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم بعنوان (مفهوم التدبر -تحرير وتأصيل-)، والذي أقامه مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية في السعودية، ٢٠٠٩م. والمؤتمر الدولي الثاني، الذي نظمته الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم، تحت عنوان (تدبُّر القرآن الكريم -مناهج وإعلام-) في المغرب ٢٠١٥م وغيرها من المؤتمرات والندوات.

(٢) وأما كتاب الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الموسوم بـ(قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله تعالى) فهو يشمل قواعد وتأملات في تفسير القرآن الكريم عند المفسرين، وهو أشبه بقواعد التفسير من وجهة نظر الشيخ حبنكة (رحمه الله)، أما ما أشار إليه الغزالي (رحمه الله) فهي قواعد وأسس عامة تعين القارئ والمستمع لكتاب الله تعالى على تدبره بطريقة تطبيقية سلوكية.

المطلب الثاني : التدبّر في الاستعمال القرآني.

المبحث الثاني: قواعد التدبّر عند الإمام الغزالي.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها والتوصيات.

وصلىٰ الله وبارك وسلم علىٰ الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، أبي القاسم محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: حياة الإمام الغزالي وكتابه: (إحياء علوم الدين)

المطلب الأول: حياته الشخصية

اسمه ولقبه:

(هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد الغزالي الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي)[١].

ولادته:

ولد أبو حامد رحمه الله عند حسب ما ذكر أغلب المؤرخين، منتصف القرن الخامس الهجري، في مدينة طوس إحدىٰ مدن خراسان سنة ٤٥٠هـ[٢].

نسبه ونسبته:

اختلف المؤرخون في أصل الغزالي أعربي أم فارسي؟ فذهب بعضهم إلىٰ أنه من سلالة العرب الذين دخلوا بلاد الفرس منذ بداية الفتح الإسلامي، وذهب آخرون إلىٰ أنّه من أصل فارسي[٣].

واختلف الباحثون في نسبته أيضاً:

فذهب بعضهم إلىٰ أنه سمي بالغزالي بتخفيف الزاي نسبة إلىٰ (غزالة) قرية أسرته التي هي في ضاحية طوس، وهي (أسرة قضاة)[٤]. يؤيد ذلك ما يرويه لنا الشيخ تقي الدين ابن الصلاح بسنده عن الغزالي قوله: «يقولون لي:

(١) طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (٨٥١هـ) عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، ط١، تحقيق الدكتور الحافظ عبد العليم خان: ٢/ ٢٩٣، وسير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله (ت٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ط٩، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي: ١٩/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية: ٢/ ٢٩٣.

(٣) مقدمة شفاء الغليل، حمد الكبيسي، دار الإرشاد، بغداد، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م، ١٠-١١.

(٤) ينظر: اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير، مكتبة القدس، القاهرة: ٢/ ١٧٠.

الغزّالي، ولست الغزّالي (بالتشديد) وإنما أنا الغزَالي، منسوب إلىٰ قرية يقال لها: غزالة»[١].

وذهب آخرون إلىٰ أن هذه النسبة مرتبطة بكلمة (غزل)، فلقد ذكر في ترجمة الإمام الغزالي في مقدمة كتاب: (إحياء علوم الدين) أنّ والده كان غزّالاً (يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس)[٢]؛ وبذلك تكون نسبته مرتبطة بكلمة (غزل)؛ (فيكون الغزالي من أسرة الغزّال)؛ فتكون الكلمة بتشديد الزاي[٣].

نشأته:

نشأ أبو حامد في أحضان والده المعروف بفقره وصلاحه، فقد كان والده رحمه الله لا يأكل إلا مما كسبت يداه في مهنته المشهورة، وهي غزل الصوف، وكان رحمه الله محباً للعلم والعلماء، وكان في أوقات فراغه يطوف علىٰ الفقهاء والوعاظ يجالسهم ويستفيد منهم، حتىٰ إذا سمع كلامهم بكىٰ وتضرع، وسأل الله أن يرزقه ابناً يجعله كهؤلاء فقيهاً وواعظاً[٤]. لكن الأقدار شاءت أن تعاجله منيّتُه قبل أنْ يتحقق رجاؤه، وقبل أنْ تستجاب دعوته.

ولم يذكر لنا أحدٌ من المؤرخين عمر الغزالي حين وفاة والده، لكن القرائن تشير إلىٰ أنّه كان صغيراً آنذاك، ولم يبلغ سنّ الرّشد، ومن تلك القرائن أنّ والده قد عهد به وبأخيه إلىٰ صديق له عُرِف بصلاحه وتصوفه، وأوصاه أنْ يتعهدهما بالتربية والتعليم[٥].

وفاته:

أجمع المؤرخون علىٰ أنّ وفاة الإمام الغزالي كانت يوم الاثنين الرابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة خمسمائة وخمس من الهجرة، وأنّه دفن بظاهر قصبة الطابران في مدينة طوس[٦].

(١) مؤلفات الغزالي، أحمد بدوي، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧م، الكويت، ط٢، ٥٤٣.
(٢) ينظر: إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للعلامة زين الدين العراقي(ت ٨٠٦هـ)، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
(٣) ينظر: اللباب في تهذيب الأنساب: ٢/ ١٧٠.
(٤) ينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاؤه، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، ط١، ٦/ ١٩٤.
(٥) ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩)، دار الفكر، بيروت، ٤/ ١١.
(٦) ينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ: ٦/ ٢٥١، ومعجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ٤/ ٤٩، وشذرات الذهب، ٤/ ١١.

وينقل لنا ابن الجوزي عن شقيق الإمام الغزالي قصّة وفاته فيقول: «لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي وصلّىٰ، وقال: عَلَيّ بالكفن، فأخذه وقبّله ووضعه علىٰ عينيه، وقال: سمعًا وطاعة للدخول علىٰ الملك، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة، وانتقل إلىٰ رضوان الله تعالىٰ»[١].

وبهذا المشهد ختمت الحياة الشخصية لهذا الرجل الذي دوىٰ اسمه في الآفاق، فحرّك الأذهان، وأحدث ثورة فكرية ما زال الفكر العلميّ إلىٰ يومنا هذا ينهل منها، فعليك سلام الله ورحمته يا حجة الإسلام يوم ولدت.. ويوم مت.. ويوم تبعث حيًا.

المطلب الثاني: كتابه: (إحياء علوم الدين)

وهو من أكبر مصنفاته وأشهرها ذكراً وأعظمها قدراً، «وأدلّها علىٰ طريقته في المزج بين الفقه والتصوف، وبين الفكر والتهذيب»[٢].

وكان يسلك في عرض الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب طريقة واحدة تدل علىٰ منهجه الفكري الذي التزم به. فهو يبدأ كلّ كتاب من كتبه بمقدمة شبيهة بمقدمة الخطب المنبرية، فيها حمد، وتسبيح، وثناء علىٰ الله عزّ وجلّ، وصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، وإشارات ورموز إلىٰ حقائق الموضوع الذي سيعرضه ودقائقه. وبعد المقدمة يورد الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع. وبعدها يورد الأحاديث النبوية، فالآثار والأخبار المروية عن السلف الصالح، ويقرر الحكم الفقهي إذا احتاج الموضوع إلىٰ ذلك، ثم يفيض في التحليل والتفصيل بروح علمية مدققة متعمقة[٣].

والكتاب مبني علىٰ أربعة أرباع، وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. واشتمل كل ربع علىٰ عشرة كتب، فالجملة أربعون كتاباً[٤]. منها « كتاب آداب تلاوة القرآن» وهو الكتاب الثامن من ربع العبادات. رتبه علىٰ أربعة أبواب، أولها:

(١) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان القسم الأول، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزا وعلي التركي الشهير بسبط ابن الجوزي، مطبعة مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ٨/ ٤٥، وينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ: ٦/ ٢٠١، ومؤلفات الغزالي، ٢٥، ورجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي، دار القلم، الكويت، ١٩٦٩، ط٣، ٢٠٥.

(٢) الغزالي والتصوف الإسلامي، للشرباصي: ص١٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ص١٤٦.

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢-٣.

في فضل القرآن وأهله، والثاني: في آداب التلاوة في الظاهر، والثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة، والرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره. وقيمة هذا الكتاب لا تخفىٰ علىٰ باحث ومتخصص، ويكفي للتدليل علىٰ ذلك نقل العلماء الكبار الذين لهم قدم راسخة في هذا الشأن من آراء الغزالي في هذا الكتاب خصوصاً فيما يتعلق بآداب تلاوة القرآن الكريم، فمنهم من صرح بالنقل عنه ومنهم من أغفله، كما فعل القرطبي (ت٦٧١هـ)، فقد نقل كلام الغزالي فيما يتعلق بالتفسير بالرأي في مقدمة تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن)، ولم يشر إلىٰ اسمه[١].

ومثل ذلك فعل الزركشي (ت٧٩٤هـ)، في كتابه الشهير: (البرهان في علوم القرآن)، فقد نقل كلام الغزالي فيما يتعلق بفهم القرآن من غير أن يشير إليه[٢]. كما نجد أن الإمام النووي (ت٦٧٦هـ)، في كتابه: (التبيان في آداب حملة القرآن) كان شديد الاهتمام بكلام الغزالي في هذا الكتاب نقلاً وتأييداً، خصوصاً فيما يتعلق بآداب التلاوة. وكان يصرح عنه في أغلب المواطن[٣].

لقد توضحت نظرية الإمام الغزالي في كتاب: (آداب تلاوة القرآن)، وأول ما يلاحظ علىٰ هذا التقسيم السابق تأثير المعرفة الصوفية في التمييز بين الأعمال الباطنة والظاهرة، ليس في تلاوة القرآن فحسب، بل في أكثر موضوعات العبادات. ويبدو أن هذا التقسيم ضروري في نظر الغزالي؛ نظراً لانصراف الناس إلىٰ مجرد القشور والرسوم في قراءة القرآن. ولبيان المتأملين والمتدبرين في تعاملهم مع القرآن عموماً[٤].

وخلاصة القول: أنّ الإمام الغزالي أودع في كتابه: (الإحياء) مفاتيح لا يستغنىٰ عنها في تدبر القرآن الكريم، حيث عرف بعضها من سنة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه، وأدرك بعضها الآخر من خلال تعامله الحيّ مع القرآن الكريم، وتجربته الغنيّة معه[٥].

(١) قارن بين الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣١ - ٣٤. وبين الإحياء: ١/ ٢٨٨ - ٢٩٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٤ وما بعدها، ٢/ ١٨٠.
(٣) التبيان: ص٨٨، ١٠٠، ١٠٥ وغيرها. وينظر: نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن قراءة وفهماً وتفسيراً، مجلة المسلم المعاصر، السنة العشرون، العدد: (٨٠): ص١٣٣.
(٤) نظرية الإمام الغزالي: ص١٠٢.
(٥) ينظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن، صلاح الخالدي: ص٥٠.

المبحث الأول: مفهوم التدبّر في القرآن الكريم

المطلب الأول: المعنىٰ اللغوي والاصطلاحي للتدبر

التدبّر في اللغة: مصدر للفعل تدبَّر، مأخوذ من مادة (دبر) التي تدل علىٰ آخر الشيء، يقال: دبَّر الأمر وتدبّره أي: نظر في عاقبته، واستدبره رأىٰ في عاقبته ما لم يره في صدره، وعَرَف الأمر تدبُّراً، أي: بآخرة.

والتدبير في الأمر: تأمله والنظر في إدباره وإلىٰ ما تؤول إليه عاقبته ومنتهاه، أو النظر في عواقبه، والتدبّر فيه[١].

والتدبّر بصيغة (التَفَعُّل): يدل علىٰ تكلّف الفعل وحصوله بعد جهد؛ فالتدبّر: حصول النظر في الأمر المتدبر مرة بعد مرة.

وقال الجرجاني: «التدبّر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكّر؛ إلاّ أنّ التفكّر تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبّر تصرّفه بالنظر في العواقب»[٢].

وأصل التدبّر: التأمّل والنظر في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كلّ تأمّل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه[٣].

وأما التدبّر في اصطلاح المفسرين:

فقد تعددت عباراتهم في بيان معناه، ولكنها متقاربة، ويمكن تعريف التدبّر بأنّه: التأمّل أو التفكّر في معاني القرآن الكريم بقصد الاعتبار والاستبصار[٤].

وممّا تقدم من التعريف اللغوي والاصطلاحي للتدبّر نجد أنّ المعنىٰ اللغوي حاصل في المعنىٰ الاصطلاحي عند المفسرين، لكنّه مخصص فيه بنصوص القرآن الكريم، ومن ثَمّ فإنّ التدبّر عند المفسرين لا يخرج عن المعاني الآتية:

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٢/ ٣٢٤، ولسان العرب: ٤/ ٢٦٨ مادة (دبر). وينظر: مفردات غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ص٣٠٦، والكشاف، للزمخشري: ١/ ٥٤٠.

(٢) ينظر: التعريفات، للجرجاني: ص٥٤.

(٣) ينظر: روح المعاني، للآلوسي: ٣/ ٨٩.

(٤) تدبر القرآن الكريم (مفهومه، وأهميته، ووسائله، وثماره)، عبد الواسع الغشمي: ص٤، وتدبر القرآن الكريم (مفهومه، أساليبه، أسبابه، آثاره) فهد الوهيبي: ص٤٣٤.

١- التأمل الذهني في معاني القرآن الكريم، وآياته، وأوامره، ونواهيه، ومبادئه، وعواقبه.

٢- نظر القلب، وجمع الفكر فيه أيضاً.

٣- إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل علىٰ ما نصبت له.

وقد سبقت الإشارة إلىٰ أنّ هناك فرقاً دقيقاً بين (التفكّر والتأمّل) وبين (التدبّر)، إذ التدبّر: هو النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكّر، إلا أنّ التفكّر تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبّر تصرّفه بالنظر في العواقب.

أما الفرق بين التدبّر والتأمل فإنه دقيق أيضاً؛ لأنّ التأمّل يدور حول التثبت والتلبث والانتظار، ومن هذا الوجه يختلف عن التدبّر الذي يراد منه التتبع حتىٰ الوصول إلىٰ غاية المقصد[(١)]، والتأمّل هو إعمال الفكر والعقل، بخلاف التدبّر الذي هو تصرف القلب بالنظر في العواقب.

وعليه يكون للتدبّر معان فكرية (عقلية) وروحية (وجدانية)؛ تتصل بمقامات التعبّد والتقرّب إلىٰ الله، والتأثّر به رقة وخشوعاً وليناً ودموعاً، وقد ينشأ عن ذلك (ممارسات حركية) بفعل الطاعات واجتناب المنهيات كثمرة للتدبر، واستجابة من استجاباته؛ فالتدبّر عموم النظر والتأمل في القرآن، سواء أنتج عنه فائدة عملية من تقليب النظر في الآيات أم لم ينتج[(٢)].

المطلب الثاني: التدبّر في الاستعمال القرآني

ورد لفظ التدبّر في أربعة مواضع في القرآن الكريم، ثلاثة مواضع منها وردت في سياق الاستفهام الإنكاري بسبب الإعراض، ويفيد الأمر، بمعنىٰ: (تدبروا)، والموضع الرابع في سياق التقرير، وفيما يأتي تفصيل لتلك المواضع:

الأول: قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، أي: أيعرضون عن القرآن فلا يتأمّلون فيه، ليعلموا كونه من عند الله بمشاهدة ما فيه من الشواهد التي من جملتها الوحي الصادق، فإنّ العبد كلما ازداد

(١) مفهوم التدبّر عند اللغويين، عويض العطوي: ص٢٥.
(٢) تدبر القرآن الكريم (مفهومه، وأهميته، ووسائله، وثماره)، عبد الواسع الغشمي: ص٥- ٦.

تأمّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة[١]. فمعنىٰ تدبّر القرآن: «تأمّل معانيه، وتبصّر ما فيه»[٢].

الثاني: قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، أي: أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليه فيه؟[٣].

الثالث: قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤]، أي أفلا يتفهمونه ويتصفحونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة، التي تكفي من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر والمعاصي[٤]. وهذه الآيات المذكورات تدل علىٰ أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين.

الرابع: قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، أي: كتاب كثير الخير والبركة إنما أنزل للتدبّر والتفكّر في معانيه ومبانيه، لا لمجرد تلاوته بدون تدبر، وليتأمله أهل العقول ويمتعوا النظر فيه فيفهموا ما فيه من أنواع الهدىٰ، فيتعظوا بحفظ حدوده وحروفه من شوائب الاختلال[٥].

يقول عبد الرحمن السعدي: «هذه هي الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبّر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل علىٰ الحث علىٰ تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة علىٰ التدبّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود. ودل قوله: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ علىٰ أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب»[٦].

(١) ينظر: روح المعاني: ٣/ ٨٩.
(٢) الكشاف: ١/ ٥٢٩.
(٣) جامع البيان: ١٩/ ٥٦.
(٤) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٢٦.
(٥) ينظر: أضواء البيان: ٦/ ٣٤٤، وفتح القدير: ٤/ ٤٩٤.
(٦) تيسير الكريم الرحمن: ص٧١٢.

المبحث الثاني: قواعد التدبّر عند الإمام الغزالي[١]:

لم ينص الإمام الغزالي على قواعد تدبرية للقرآن الكريم بمعناها الاصطلاحي في كتابه: (إحياء علوم الدين)، وإنّما ذكر جملة من الآداب التي ينبغي على قارئ القرآن أن يتنبه لها في الربع الأول من كتابه: (الإحياء)، وهو ربع العبادات، في الكتاب الثامن منه، وهو كتاب: (آداب تلاوة القرآن)، فقد رتبه على أربعة أبواب، أولها: في فضل القرآن وأهله، والثاني: في آداب التلاوة في الظاهر، والثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة، والرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

وكان نصيبنا من هذه الأبواب: الثالث وهو باب: (في الأعمال الباطنة عند التلاوة)، ومن خلال الاستقراء والتأمل في رؤيتها وجدنا أنها تصلح أن تكون قواعد صالحة تعين القارئ على تدبر القرآن الكريم.

القاعدة الأولى: (تعظيم الكلام)[٢]

عند وضع المصحف بين يدي القارئ، لا بد أن يستحضر القلب عظمة هذا الكلام، بمعنى: أن يفهم القارئ عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله سبحانه وتعالى، ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلالته إلى درجة إفهام خلقه حتى أوصل معاني كلامه الذي هو صفة ذاته إلى إفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات، ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره.

ولولا تثبيت الله موسى عليه الصلاة والسلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق

(١) بعد النظر بهذه الأصول التي ذكرها الإمام الغزالي اجتهدت في تعديل بعض العبارات الواردة في النص، وكذلك قدمت وأخرت بين هذه القواعد ورتبتها ترتيباً جديداً، فمثلا ذكر الإمام الغزالي الأصل الرابع من أعمال الباطن في التلاوة تحت عنوان (التدبر)، أقول: إن وجود عنوان (التدبر) ضمن ما ذكره الغزالي يفسد أن هذه القواعد تقود للتدبر، فكان لا بد من الاجتهاد في وضع عبارة بديلة منتقاة من شرحه لهذا الأصل، وأقرب شيء إلى ذلك فيما أحسب -والله أعلم- لفظ: (التفكر). ولا بدّ من الإشارة إلى أن (التفكر، أو التأمل)، والتي اجتهدت في بيان الفروق بينها عند الحديث عن المعنى الاصطلاحي للتدبر، لا يغايران التدبر، بل هما من الطرق الموصلة إليه. وأما قاعدة (فهم أصل الكلام): فعبارات هذه القاعدة تتداخل مع عبارات الأصل الخامس الذي هو (الفهم). ودفعا لهذا التداخل اجتهدت أن يكون عنوان الأصل الأول (تعظيم الكلام) ليقابل (تعظيم المتكلم) التالي له.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٠.

الجبل مبادي تجليه حيث صار دكًا دكًا[١].

إن تعظيم الكلام من تعظيم المتكلّم به، وهو الله سبحانه وتعالىٰ؛ وينبغي أن يكون التعظيم مبعثًا للخضوع والخشوع والانقياد والامتثال لأمر الله تعالىٰ، فالمتأمل كيف كان حال النبي ﷺ عندما ينزل عليه القرآن يدرك هذا المعنىٰ، فعن عبد الله بن عمر قال: ((سألت النبي ﷺ هل تحس بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحىٰ إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض))[٢]. قال الخطابي: «والمراد أنه صوت متدارك يسمعه، ولا يبين له أول ما يسمعه حتىٰ يفهمه ويعيه»[٣]. وقيل: هو صوت خفق أجنحة الملك؛ والحكمة في تقدمه أن يتفرغ سمعه للوحي فلا يبقىٰ فيه مكان لغيره[٤]. وفي الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه[٥]، وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد وتهديد[٦].

ووجه الرازي تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ٥]، لتعظيم كلام الله تعالىٰ واستشعار قداسة هذا النص فقال: «ووجه النظم أنه تعالىٰ لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنّا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بدّ وأن تسعىٰ في صيرورةِ نفسِك مستعدةً لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإنّ الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالىٰ، وأقبل علىٰ ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلمّا كان لصلاة الليل أثرٌ في صيرورة النفس مستعدةً لهذا المعنىٰ لا جرم

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١١/ ٦٤٢ برقم (٧٠٧١)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.
(٣) ينظر: أعلام الحديث، للخطابي: ١/ ١٢١.
(٤) ينظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم: ١٥/ ٨٨.
(٥) ينظر: صحيح البخاري: ١/ ٦ برقم (٢).
(٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٦٠. قال ابن حجر: وقال شيخنا شيخ الإسلام البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به كما في حديث ابن عباس: «كان يعالج من التنزيل شدة»، قال: وقال بعضهم: وإنما كان شديداً عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعىٰ لما سمع. وقيل: إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد، قال ابن حجر: وهذا فيه نظر، والظاهر أنه لا يختص بالقرآن، وفائدة هذه الشدة ما يترتب علىٰ المشقة من زيادة الزلفىٰ والدرجات. ينظر: فتح الباري: ١/ ٢٠.

قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، فصيّر نفسك مستعدةً لقبول ذلك المعنىٰ»[١].

لقد نبّه الإمام القرطبي الأمّة لتعظيم كلام الله تعالىٰ، فقال عند حديثه عن فضل قارئ القرآن الكريم في مقدمة تفسيره: «فأول ذلك: أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنّه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ندّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ، وأنّ القراءة أصواتُ القراء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حال إيجاباً في بعض العبادات، وندباً في كثير من الأوقات، ويزجرون عنها إذا أجنبوا، ويثابون عليها ويعاقبون علىٰ تركها»[٢].

ثم تابع كلامه فقال: «ولولا أنه- سبحانه- جعل في قلوب عباده من القوة علىٰ حمله ما جعله، ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له. وأنىٰ تطيقه! وهو يقول تعالىٰ جده وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. فأين قوة القلوب من قوة الجبال! ولكنّ الله تعالىٰ رزق عباده من القوة علىٰ حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلاً منه ورحمة»[٣].

قال الغزالي وهو يتحدث عن هذه القاعدة: «ولقد تألّق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلىٰ فهم الإنسان، وتثبيته مع قصور رتبته، وضرب له مثلاً لم يقصر فيه، وذلك أنه دعا بعضَ الملوك حكيمٌ إلىٰ شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه، فقال الملك: أرأيت ما تأتي به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل، فكيف يطيق الناس حمله؟ فقال الحكيم: إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يُفهموا بعضَ الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصُر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع

(١) مفاتيح الغيب: ٣٠/ ٦٨٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٤.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤.

نظمه فنزلوا إلىٰ درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلىٰ بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقوا حملها، وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس، ولم يمنع ذلك معاني الحكمة المخبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً، والحكمة للصوت نفساً وروحاً، فكما أنّ أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها»[1].

وخلاصة القول: لا بدّ لتالي القرآن أنْ يعرف أنّ القرآن كلام الله، وأنّ صفة التكليم من صفات الجلال للرب جلّ وعلا، وربّك جلّ جلاله إذا تجلّىٰ لشيء لم يقم لعظمة جلاله سبحانه شيءٌ، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فافهم واعرف أيها الحبيب المحبّ أنّ صفة الكلام من صفات الملك جلّ جلاله، ولها عظمة من عظمته سبحانه، وكما أنّه سبحانه كما ثبت في الحديث «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما امتد إليه بصره من خلقه»[2]؛ فلا بدّ من حجاب لهذه الصفة.

فجعل الله، وهو الرحيمُ بعباده الكريمُ، الحروفَ والأصواتَ كأنها حجاب لصفة الكلام؛ لتستطيع القلوبُ والعقولُ مطالعةَ هذه الصفة، وإلاّ لصار الخلق دكًّا كما جرىٰ للجبل.

فاحمد الله أيّها التالي للقرآن علىٰ هذه المنّة العظيمة أنْ تتمكن من تلاوة القرآن الذي هو كلام الله، والكلام صفة من صفاته عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧][3].

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٠.
(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٢، برقم (١٧٩).
(٣) أسرار المحبين، محمد حسين يعقوب: ص١٧٤.

القاعدة الثانية: (تعظيم المتكلم)

ينتقل بنا الإمام الغزالي إلىٰ المرحلة الثانية من المراحل المعينة علىٰ التدبر فيقول: إنّ القارئ عند البدء بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنّ ما يقرؤه ليس من كلام البشر، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله.

قال الغزالي رحمه الله: «إنّ في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر؛ فإنّه تعالىٰ قال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وكما أنّ ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلاّ إذا كان متطهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير.

وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كلّ يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كلّ لسان، ولا لنيل معانيه كلّ قلب.

ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول: (هو كلام ربي هو كلام ربي)[١]، فعلىٰ المتأمل والمتفكر أن يحضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وأن يعلم أنّ الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأنّ الكلّ في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، إنْ أنعم فبفضله، وإنْ عاقب فبعدله، وأنّه الذي يقول: هؤلاء إلىٰ الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلىٰ النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم، ثم تعظيم الكلام[٢].

قال الحارث المحاسبي: «إذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم به لم يكن عندك شيء أرفع ولا أشرف ولا أنفع ولا ألذّ ولا أحلىٰ من استماع كلام الله جلّ وعزّ وفهم معاني قوله تعظيماً وحباً له وإجلالاً إذ كان تعالىٰ قائله فحبّ القول علىٰ قدر حبّ قائله»[٣].

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين: ٣/ ٢٧١، برقم (٥٠٦٢)، وشعب الإيمان: ٣/ ٥١٢ برقم (٢٠٣٧).
(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨١.
(٣) فهم القرآن ومعانيه: ص٣٠٢.

قال ابن قدامة المقدسي: «وينبغي لتالي القرآن العظيم أنْ ينظر كيف لطف الله تعالىٰ بخلقه في إيصال معاني كلامه إلىٰ أفهامهم، وأنْ يعلم أنّ ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، وإن لم يحصل التدبّر إلا بترداد الآية، فليرددها، فقد روىٰ أبو ذر رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم أنه قام ليلة بآية يرددها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1]، وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١][2]، وكذلك قام بها الربيع بن خثيم رحمة الله عليه ليلة»[3].

قال الإمام النووي رحمه الله: «ينبغي علىٰ القارئ أنْ يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالىٰ، ويقرأ علىٰ حال من يرىٰ الله تعالىٰ، فإنه إنْ لم يكن يراه فإنّ الله تعالىٰ يراه»[4].

لذلك علىٰ قارئ القرآن أنْ يستشعر عظمة المتكلم، ويبذل وسعه في فهم مراد الله تعالىٰ ويتدبره ليعمل به، قال الإمام ابن الجوزي في المقرئين: «رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده؛ فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف علىٰ الشواذ، يرىٰ أنّ المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، وربما ظنّ أنّ حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذنوب، ولو فهم لعلم أنّ الحجة عليه أقوىٰ ممّن لم يقرأ»[5]. وهذه حقيقة مشاهدة في واقعنا المعاصر.

القاعدة الثالثة: (التخلي عن موانع الفهم)

فإذا فتحت المصحف، فلا بد من تهيئة النفس لما فيه، ويتطلب ذلك التخلي عن الموانع أولاً، فإنّ أكثر الناس مُنعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان

(١) سنن ابن ماجه: ٢/ ٣٧٢ برقم (١٣٥٠)، ومسند أحمد: ٣٥/ ٢٥٧، برقم (٢١٣٢٨)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
(٢) سنن النسائي الكبرىٰ: ١٠/ ٤٠٠، برقم (١١٨٣٣)، والمعجم الكبير، للطبراني: ٢/ ٥٠ برقم (١٢٥٠).
(٣) مختصر منهاج القاصدين: ص٥٣.
(٤) التبيان في آداب حملة القرآن: ص٧٠.
(٥) صيد الخاطر: ص٤٥٠.

علىٰ قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. وحجب الفهم أربعة[1]:

أولها: أن يكون الهمّ منصرفاً إلىٰ تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها. وهذا يتولىٰ حفظه شيطانٌ وُكِّلَ بالقُرّاء؛ ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم علىٰ ترديد الحرف يُخيّل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً علىٰ مخارج الحروف، فأنّىٰ تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

لقد أحسن الإمام الغزالي رحمه الله بأن جعل همّ القارئ المنصرف إلىٰ تحقيق الحروف وإخراجها من مخارجها والمبالغة في ذلك وترك التدبّر من موانع فهم القرآن الكريم، وللأسف هذا مشاهد وواقع نعيشه في زماننا اليوم، حيث جعل بعض القراء همّهم منصرفاً إلىٰ المبالغة بأحكام التجويد، والانشغال بها عن تدبر القرآن الكريم وفهمه. وبعضهم جعل همّه منصرفاً إلىٰ التنغيم والتطريب والمقامات الصوتية، وأهملوا مقصود إنزال القرآن الكريم وهو التدبّر.

قال الغزالي: إنّ مثل هذا القارئ كمثل من اشتغل بالوسائل وأعرض عن المقاصد. ولا يفهم من هذا الكلام أن نترك جانب تحقيق إخراج الحروف وحسن الأداء كلا، بل هما من الأسس المعينة علىٰ تدبر كلام الله تعالىٰ، ولكن الاقتصار عليهما والمبالغة في ذلك وإغفال جانب الفهم والتدبّر يصنع حجباً وموانع تصرف القارئ عن الفهم، فيغيب التأثر الحقيقي بالقرآن الكريم.

ثانيها: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيّده معتقده عن أنْ يتجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً علىٰ مسموعه.

فإن لمع له برق علىٰ بعد، وبدَا له معنىٰ من المعاني التي تُبَاين مسموعه حَمَلَ عليه شيطان التقليد حملةً، وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك، فيرىٰ أن ذلك غرورٌ من الشيطان فيتباعد منه ويتحرّز عن مثله، ومثله من يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وما يحتويه معنىٰ الآية

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٤. أقول: إن موانع الفهم وحجبه كثيرة، ولكن الغزالي ذكر أشهرها.

من علو الله -عز وجل- علىٰ كلّ مخلوقاته وهيمنته وتصرفه في كلّ الموجودات، فيجيئه تقليد المعتقدات الموروثة في التأويل ووجوب تنزيه الله عن الجهة، فيُحرَم من تجليات تأمل صفة العلو والاستواء، وهي من الصفات التي تكررت في القرآن بغرض التنبيه علىٰ جلال الله وعظمته وحقيقة علوه علىٰ خلقه[١].

ويفهم من كلام الإمام الغزالي أن التقليد الأعمىٰ والتعصب للمذهب من موانع فهم القرآن الكريم، ويظهر من قول الغزالي أيضاً أنه عنىٰ بالتقليد التقليد العقدي أو التقليد في فهم نصوص القرآن الكريم والجمود عليها، وليس التقليد الفقهي المعروف، وإن كان التعصب للمذاهب مذموماً وغير مندوح.

ثالثها: ذكر الغزالي رحمه الله تعالىٰ أن من موانع الفهم: الإصرار علىٰ الذنب، والكبر، واتباع هوىٰ النفس، فإن ذلك كله يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة، فكلما ضعف نور الإيمان في القلب كلما كانت الغلبة للهوىٰ[٢].

فإن كان الإنسان مصراً علىٰ ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلىٰ في الجملة بهوىٰ في الدنيا مطاع. فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث علىٰ المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلىٰ فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون، وكلّما كانت الشهوات أشدّ تراكماً كانت معاني الكلام أشدّ احتجاباً وكلّما خفّ عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلىٰ المعنىٰ فيه.

فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور، التي تتراءىٰ في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة؛ ولذلك قال ﷺ: ((إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي))[٣]، قال الفضيل: يعني حرموا فهم القرآن.

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٤.
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٤٧.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلًا من حديث الفضيل بن عياض: ص١٠٧ برقم (٧٠)، قال ذكر عن النبي ﷺ،

وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالىٰ: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [ق: ٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، فالذي آثر غرور الدنيا علىٰ نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب[١].

وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن باتباع الهوىٰ يطبع الله علىٰ قلوب العباد فقال: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [محمد: ١٦].

فقد ذمّ الخالق سبحانه في هذه الآية الذين اتبعوا أهواءهم؛ لأنهم لا يستفيدون مما يسمعون، ولا يتأثرون بموعظة، ولا يعقلون ما يرشدون به. يقول الطبري: «ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿ مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ﴾ وهو المنافق، يستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونًا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، وتغافلاً عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان»[٢].

فالخالق سبحانه ذكر بأن هؤلاء يستمعون القرآن الذي هو غاية الإعجاز والبلاغة والبيان، ولكن يحال بينهم وبين سماعه، فإذا خرجوا بعد سماعه، يقولون لمن أوتي العلم: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾، كأنهم ما سمعوا أصلاً، والذي حال بينهم وبين الفهم ما ذكره الله عنهم أنهم اتبعوا أهواءهم، فطبع الله علىٰ قلوبهم، وطمس علىٰ معرفتهم حيث اتبعوا أهواءهم، فلم يستفيدوا، فالهوىٰ هو الذي أعماهم وأصمهم، وفي ذلك دلالة واضحة علىٰ أن الهوىٰ مانع من موانع الانتفاع بالقرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ [محمد: ١٦]، أي: أولئك المنافقون الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله علىٰ قلوبهم، فلم يؤمنوا، ولم يهتدوا إلىٰ الحق، واتبعوا شهواتهم، وأهواءهم في الكفر والعناد، بسبب استحبابهم الضلالة علىٰ الهداية، فهم لما تركوا اتباع الحق أمات الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم في

ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة بلفظ مقارب: ٢/ ٢٧٠. والحديث ضعيف.

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.

(٢) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ١٦٩ .

الباطل، فصاروا لا يعقلون حقاً، ولا يفهمون حديثاً[١].

وأما السبب الآخر لموانع الفهم والذي يؤدي للطبع على القلوب فهو (الكِبر)، قال تعالى واصفاً المتكبر والجبار والمجادل بالباطل: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر: ٣٥]، أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق، وقرئ بتنوين (قلب)، فما بعده صِفته. ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعهما[٢].

قال الطبري في معنى الطبع على القلب المتكبر: «أي كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدّق رسله. جبار: يعني متعظم عن اتباع الحقّ»[٣]. وقال الماتريدي: «ويطبع الله على كل من تعود التكبر والتجبر على الآيات والرسل»[٤].

وقيل في معنى الآية: «ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير، والإهانة والقتل بغير حق. قال الشعبي وغيره: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل: (مُتَكَبِّرٍ) عن قبول التوحيد، (جَبَّارٍ) في غير حق. فهو في الأول يعادي الله، وفي الثاني يقسو على خلق الله»[٥]. وقد قال رسول الله ﷺ: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٦].

وأما الإصرار على الذنوب والمعاصي فهو من الحجب الكبيرة، بل تؤدي بصاحبها إلى الطبع على القلوب، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين: ١٤]، قال الراغب: والران هو الطبع والدنس والصدأ، يغشى القلب ويغطيه من توالي الذنوب وكثرتها، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين:١٤]، وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه (الران)، ومعنى

(١) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن: ٤/ ١٤٤، والتفسير المنير، وهبة الزحيلي: ٦/ ١٠٩.
(٢) التفسير الوسيط للقرآن، مجموعة علماء الأزهر: ٨/ ٦٣٧.
(٣) جامع البيان: ٢١/ ٣٨٤.
(٤) تفسير الماتريدي: ٩/ ٢٨.
(٥) التفسير المنير: ٢٤/ ١١٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٩٣ برقم (٩١).

الآيـة: أي صار ذلك كصدأ علىٰ جلاء قلوبهم فعمـي عليهم معرفـة الخير من الشـر[١]. وقال الحسـن ومجاهـد: «هـو الذنب علىٰ الذنب، حتىٰ تحيـط الذنوب بالقلب، وتغشـاه فيموت القلب»[٢].

وقال الفراء: «والران علىٰ القلوب في الآية: أي كثـرت المعاصي منهـم والذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها»[٣]. وروي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، فقـال: هـو العبد يذنـب الذنب فتنكـت في قلبه نكتة سـوداء، فإنْ تاب منها صُقل قلبه، وإنْ عاد زِيد فيها حتىٰ تعلو قلبه، وهو الران[٤].

رابعهـا: أنْ يكـون قـد قـرأ تفسـيراً ظاهراً، واعتقد أنّه لا معنىٰ لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنّ ما وراء ذلك تفسـير بالرأي، وأنّ مَن فسّـر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار[٥]، فهذا أيضـاً من الحجـب العظيمـة. وهذا لا يناقـض قول عليّ رضـي الله عنـه: إلا أنْ يـؤتي الله عبـداً فهمـاً في القرآن، وأنّه لو كان المعنىٰ هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه.

ومعنـىٰ قـول الغزالـي: إنّ الوقـوف عنـد النظر إلىٰ قول مفسّـر سـاكن إلىٰ علمـه الظاهر، والاعتقـاد الجـازم أنْ لا معنىٰ لكلمـات القرآن الكريم إلاّ ما روي عن التابعين، وأنّ ما وراء ذلك باطل -ويعني به التفسير بالرأي- فهذا أيضـاً من الحجب العظيمة للفهم، فإنّه سـيَحرم نفسـه من أسـرار كثيرة قد تنكشـف لغيره من أرباب العلم والمعرفة. ولو كان القول بقصر التفسـير علىٰ ما أثر عن التابعين هو الحق فقط لما اجتهد العلماء في بيـان مراد الله تعالـىٰ، ولما اختلـف الصحابة والتابعون في تفسير الآية الواحدة.

(١) مفردات غريب القرآن: ص٣٧٣.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣١/ ٨٨.
(٣) معاني القرآن: ٣/ ٢٤٦، وتهذيب اللغة: ١٥/ ١٦٢.
(٤))) (حديـث صحيح)، ينظر: سـنن الترمـذي: ٥/ ٤٣٤ برقم (٣٣٣٤)، وقال: حديث حسـن صحيح، ومسـند أحمد: ١٣/ ٣٣٤ برقم (٧٩٥٢)، قال الشـيخ شعيب الأرناؤوط: إسـناده قوي، محمد بن عجلان صدوق قوي الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.
(٥) سنن الترمذي: ٥/ ١٩٩، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، السنن الكبرىٰ للنسائي: ٥/ ٣٠، باب من قال في القرآن بغير علم برقم (٨٠٨٤).

القاعدة الرابعة: (حضور القلب وترك حديث النفس)

أي أن يكـون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمـة إليه عن غيره. قال الإمـام الغزالي: «قيل في تفسـير قوله تعالىٰ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريـم: ١٢]، أي بجـد واجتهـاد[١]، وأخـذه بالجـد أنْ يكون متجرداً لـه عند قراءته منصرفَ الهمة إليه عن غيره.

وقيـل لبعضهـم: إذا قـرأت القـرآن تحدث نفسـك بشـيء؟ فقال: أَوَ شـيءٌ أحـبّ إليّ من القرآن حتىٰ أحدث به نفسي.

وكان بعض السـلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهـذه الصفة تتولّد عمّا قبلها مـن التعظيم؛ فـإنّ المعظم للكلام الـذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يسـتأنس بـه القلـب إنْ كان التالـي أهلاً له، فكيـف يطلب الأنـس بالفكر في غيـره، وهو في متنزه ومتفرج؟!

والـذي يتفـرج في المتنزهـات لا يتفكـر في غيرهـا، فقد قيل: إنّ في القرآن ميادين وبسـاتين ومقاصيـر وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات، فالميمـات ميادين القـرآن، والراءات بسـاتين القـرآن، والحـاءات مقاصيـره، والمسـبحات عرائـس القـرآن، والحاميمات ديابيـج القرآن، والمفصـل رياضـه، والخانات ما سـوىٰ ذلك، فـإذا دخـل القـارئ الميادين، وقطـف مـن البسـاتين، ودخل المقاصير، وشـهد العرائس، ولبـس الديابيـج، وتنـزه في الريـاض، وسـكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عمّا سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره»[٢].

والمتأمـل لقولـه تعالـىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعـراف: ٢٠٤]، يجـد أنّ التعبيـر القـرآني في هذه الآية يشـير إلىٰ حضـور القلب والروح عند سـماع القـرآن الكريم، وتـرك كلّ العلائق الدنيوية، ويظهر ذلك بارزاً في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ فعبّر بالاسـتماع، وهو سـماع مع القصد، ثم ذكـر الإنصات، ومعناه: السـكوت وحضور القلب وقطع كل الشـواغل التي تلهي القارئ عن تأمل وتدبر القرآن الكريم.

إنّ القرآن الكريم نزل أولاً علىٰ القلب وهو

(١) ينظر: النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٣٥٩.
(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٢. وينظر: قوت القلوب، لأبي طالب المكي: ص٨٦.

المخاطب به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الشعراء: [١٩٢ - ١٩٤]، فقال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يقل علىٰ سمعك أو بصرك أو ذهنك ونحو ذلك، بل ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وهذا ظاهر الدلالة.

ويقول تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فأول جارحة تخاطب بهذا القرآن هي القلب، فإن أنصت القلب أنصتت تبعاً له بقية الجوارح، وإن أعرض كانت كالرعية بلا راعٍ.

ولذلك ينبغي علىٰ القارئ والمستمع للقرآن أنْ يجعل قلبه خالصاً للقرآن، فالقلب منفذ لعمل الجوارح، قال ابن القيّم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضُر حضور من يخاطبه به من يتكلم به منه إليه، فإنّه خطاب منه لك علىٰ لسان رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أنّ تمام التأثير لما كان موقوفاً علىٰ مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه، وأدله علىٰ المراد»[١].

فالقلب يستحضر عظمة المعبود، والعقل يتدبر فيما يتلىٰ من القرآن، وبحضور القلب والعقل تسكن الجوارح ويتم الخشوع.

القاعدة الخامسة: (الفهم)

فإذا قرأت آيات القرآن الكريم، لا بد من فهمها أولاً، ومعنىٰ هذا أن يستوضح القارئ من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل علىٰ ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار[٢].

لقد أشار الغزالي إلىٰ الفهم كقاعدة أساس لتدبر القرآن الكريم، وذكر ستة أمور علىٰ سبيل الإجمال، ومن ثم أردفها بالتفصيل والأمثلة، وهذه المسائل هي كل ما اشتمل عليه القرآن الكريم، حيث ذكر توحيد الله عزّ وجلّ وكيف تتم معرفته بصفاته وأفعاله، ثم ذكر أحوال

(١) ينظر: الفوائد: لابن القيم: ص٣.
(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٢.

الأنبياء مع قومهم وهذا يشمل القصص القرآني، ومن ثم ذكر الأوامر والنواهي والزواجر وهو يتضمن الأحكام والتشريع، ومن ثم ذكر الجزاء الأخروي للإنسان وهو إمّا إلىٰ جنة وإمّا إلىٰ نار.

قال الإمام الغزالي: «أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وكقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين، وإليه أشار عليّ رضي الله عنه بقوله: ما أسرّ إليّ رسولُ الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتىٰ الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه، فليكن حريصاً علىٰ طلب ذلك الفهم[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن[2]، وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته؛ إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم، ولم يعثروا علىٰ أغوارها.

وأما أفعاله تعالىٰ فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله؛ إذ الفعل يدل علىٰ الفاعل، فتدل عظمته علىٰ عظمته، فينبغي أن يشهد في العقل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كلّ شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكلّ علىٰ التحقيق، ومن لا يراه في كلّ ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أنّ كلّ شيء ما خلا الله باطل، وأنّ كلّ شيء هالك إلا وجهه، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، فلا يقصر نظره علىٰ الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلىٰ اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلىٰ ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل

(١) أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال: «سألنا عليّاً فقلنا: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوىٰ القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه...» الحديث. ينظر: سنن النسائي: ٨/ ٢٣ برقم (٤٧٤٤).

(٢) ينظر: الزهد، للإمام أحمد: ص١٢٩ برقم (٨٥٦)، وشعب الإيمان: ٣/ ٣٤٧ برقم (١٨٠٨).

وغيرها، ثم إلىٰ ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]، فليتأمل هذه العجائب ليترقىٰ منها إلىٰ عجب العجائب، وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب، فلا يزال ينظر إلىٰ الصنعة فيرىٰ الصانع.

وأمّا أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كُذّبُوا وضُربُوا وقُتِلَ بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أُهلِك جميعهم لم يؤثّر في ملكه شيئًا، وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرىٰ عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية.

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه؛ لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكلّ عبد بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب)[1].

فالغرض مما ذكرناه التنبيه علىٰ طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنىٰ الدرجات دخل في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]»[2].

فإذا استحضر المسلم هذه المعاني وفهمها حقـًا عندئذ يدخل في زمرة المتدبرين، فالفهم من لوازم التدبّر، ولن يستطيع الإنسان أن يتدبر القرآن أو يتأثر فيه إن لم يفهمه، وفي قول الإمام الغزالي «فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه» إشارة إلىٰ أن الإنسان لم يطلب منه أن يفهم كلامًا

(١) لم أعثر عليه مع كثرة بحثي إلا في إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٤.
(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٤.

لا يعقله ولا يطيقه، فهو يتحدث عن المعنىٰ المعلوم.

قال الطبري: «وفي حثّ الله عز وجل عباده علىٰ الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جلّ ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ – ٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثهم فيها علىٰ الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه ما يدلّ علىٰ أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه»[(١)].

القاعدة السادسة: (التفكر)

بعد فهمك للآيات يأتي دور التفكر، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر علىٰ سماع القرآن من نفسه حال تلاوته وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبّر في معانيه؛ ولذلك سنّ في قراءة القرآن الترتيل؛ لأن الترتيل في الظاهر يمكّن من التدبّر بالباطن[(٢)].

قال السيوطي: «وتسن القراءة بالتدبّر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنىٰ ما يلفظ به، فيعرف معنىٰ كلّ آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإنْ كان مما قصر عنه فيما مضىٰ اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرع وطلب.

أخرج مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي صلىٰ عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ»[(٣)].

(١) جامع البيان: ١/ ٨٢.
(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٢.
(٣) الإتقان: ١/ ٣٦٩. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣٦ برقم (٧٧٢).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. يقول الدكتور مساعد الطيار: «وتحتمل آية سورة (ص) أنْ يكون المؤمنون داخلين في الأمر بالتدبّر، ويشهد له قراءة من قرأ: (لتدبروا آياته) بالتاء[١]، بمعنىٰ: لتتدبَّره أنت يا محمد وأتباعُك[٢]. وليس نزول الآية في سياق غير المؤمنين يعني أنَّ المؤمنين لا يُطلبُ منهم التدبّر، بل هم مأمورون به، وداخلون في الخطاب من باب أولىٰ؛ لأنَّهم أهلُ الانتفاع بتدبُّرِ القرآن. وإنَّما المرادُ هنا بيانُ من نزلت بشأنه الآيات، دون بيان صحَّةِ دخول المؤمنين في الخطاب»[٣]، واللهُ أعلمُ.

ونقل الإمام الغزالي أثراً عن سيدنا عليّ إذ قال: «قال عليّ رضي الله عنه: (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبّر فيها)[٤]. وإذا لم يتمكن من التدبّر إلا بترديد فليردد، إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرىٰ كان مسيئاً، مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إنْ كان في تسبيح الركوع، وهو متفكّر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس، فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال: الوسواس يعتريني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا، فقال: لأن تختلف فيّ الأسنّة أحبّ إليّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عز وجل، وأنىٰ كيف انصرف. فعد ذلك وسواساً، وهو كذلك، فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه، والشيطان لا يقدر علىٰ مثله إلا بأنْ يشغله بمهم ديني، ولكن يمنعه به عن الأفضل، ولما ذكر ذلك للحسن قال: إنْ كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا، ويروىٰ أنه ﷺ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة. وإنما رددها ﷺ لتدبره في معانيها.

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتىٰ يطلع الفجر.

(١) وهي قراءة أبي جعفر، ينظر: الكنز في القراءات العشر، للواسطي: ٢/ ٦٢٧، والنشر في القراءات العشر، لابن الجزري: ٢/ ٣٦١.
(٢) جامع البيان: ٢١/ ١٩٠.
(٣) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبّر، مساعد الطيار: ص١٨٦.
(٤) ينظر: الزهد، لأبي داود: ص١١٥ برقم (١٠٤)، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢١/ ١٩٠.

وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثواباً. وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلىٰ غيرها.

وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبّر فيها. وقال بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه، وكان هذا أيضاً يقول: أقمت نفسي مقام الأجراء، فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة»[(١)].

لقد ذاق صحابة رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان من خلال القرآن، وأدركوا قيمته وقدرته الفذة علىٰ التغيير وبث الروح، فأقبلوا عليه وانشغلوا به وأعطوه الكثير من أوقاتهم وانجذبت مشاعرهم نحوه عند لقائهم به لدرجة الاستغراق والهيمنة، حتىٰ أصبحوا لا يملكون دمعهم حين يبدؤون التلاوة، بل إنّ بعضهم كان يمرض من شدة أثر القرآن عليه، وبعضهم كان يعيش مع آية من الآيات ساعات طوالاً يقرؤها ويكررها ويبكي، ولا يمل من ذلك[(٢)].

روىٰ البخاري ومسلم أنه في أثناء مرض الرسول ﷺ قال لمن حوله: ((مروا أبا بكر فليصل بالناس)). فقالت عائشة: يا رسول الله، إنّ أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه[(٣)].

وكان عمر بن الخطاب يمرّ بالآية فتخنقه، فيبقىٰ في بيته أياماً يعاد، يحسبونه مريضاً[(٤)]. ولذا ذمّ النبيّ ﷺ من قرأ بعض الآيات، ولم يتفكر بقلبه.

فثبت عند ابن حبان في صحيحه وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول ﷺ: لقد أنزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٢. يعني بالمياومة فهناك ختمة يومية. ومجامعة: يعني كل جمعة. ومشاهرة: يعني كل شهر. ومسانهة: يعني كل سنة.
(٢) ينظر: تحقيق الوصال بين القلب والقرآن، مجدي الهلالي: ص٤٣.
(٣) صحيح البخاري: ٣/ ٩٧ برقم (٢٢٩٨)، ومسلم: ١/ ٣١٣ برقم (٤١٨).
(٤) ينظر: الزهد، لأحمد بن حنبل: ص٩٩، برقم (٦٢٩).

[آل عمران: ١٩٠]، الآيات من آخر سورة آل عمران[١].

ولعلنا لا نحصي كم سمعنا وقرأنا هذه الآيات، لكن لو تأملنا مليّاً قوله ﷺ: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) لتغيّر الحال، والله المستعان.

وهذا ريحانة القُرَّاء من أصحاب رسول الله ﷺ ابنُ مسعود يقول عن القرآن: «قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة»[٢].

وأختم بمحكم من القول للإمام محمد ابن الحسين الآجري يقول فيه: «والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره أحب إليّ من كثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، فظاهر القرآن يدل علىٰ ذلك، والسنة، وأقوال أئمة المسلمين»[٣].

القاعدة السابعة: (التخصيص)

فإذا تفكرت قادك التفكر إلىٰ أن تكون مخاطباً بما تقرأ، فتستشعر أنك جزء من النص، وما فيه من أحكام وثواب وعقاب يخصك.

إنّ من القواعد الهامة والمعينة علىٰ تدبر القرآن الكريم: أنْ يعلم القارئ أنّه المخاطب بما جاء في القرآن الكريم، وأنْ يُقدر أنّه المقصود بكلّ خطاب في القرآن فإنْ سمع أمراً أو نهياً قدّر أنّه المنهي والمأمور، وإنْ سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإنْ سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنّ السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حقّ النبي ﷺ وأمته[٤]؛ ولذلك قال تعالىٰ: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فليقدّر العبد أنّ الله ثبّت فؤاده بما يقصّه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم علىٰ الإيذاء، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالىٰ.

وكيف لا يقدّر هذا، والقرآن ما أنزل علىٰ رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدىٰ ورحمة ونور للعالمين؛ ولذلك أمر الله تعالىٰ الكافّة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالىٰ:

(١) ينظر: صحيح ابن حبان: ٢/ ٣٨٦ برقم (٦٢٠).
(٢) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٢/ ٢٥٦ برقم (٨٧٣٣)، وشعب الإيمان، للبيهقي: ٣/ ٤٠٧ برقم (١٨٨٤).
(٣) ينظر: أخلاق حملة القرآن، للإمام الآجري: ص١٦٩.
(٤) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال عز وجل: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٣]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود فما له ولسائر الناس، فليقدّر أنّه المقصود قال الله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩][(١)].

قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله»[(٢)]، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه؛ ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات[(٣)].

وكان مالك بن دينار يقول: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إنّ القرآن ربيع المؤمن، كما أنّ الغيث ربيع الأرض»[(٤)].

وقال قتادة: «لم يجالس أحد هذا القرآن إلاّ قام بزيادة أو نقصان، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢]»[(٥)].

وممّا يساعد علىٰ التخصيص: الجواب عند الآية والشهادة لها نحو: ما أخرجه أبو

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان: ١١/ ٢٩١، بلفظ: «من بلغه القرآن، فقد أبلغه محمد ﷺ»، وذكره البغوي: ٢/ ١١٦، بلفظ: «من بلغه القرآن، فكأنما رأىٰ محمداً ﷺ، وسمع منه».
(٣) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.
(٤) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم: ٢/ ٣٥٨.
(٥) ينظر: أخلاق حملة القرآن، للآجري: ص٧٣، وتفسير البغوي: ٣/ ١٥٨.

عبيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لما قرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، رفع صوته قائلاً: أشهد[١].

وأخرج عن عليّ وأبي موسىٰ الأشعري وابن عمر رضي الله عنهم أنّهم قالوا بعد قراءة قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلىٰ:١]: سبحان ربّي الأعلىٰ[٢]. وأفرد ابن الضريس باب: (الرجل يمرّ بآية تخويف ورحمة فيسأل ويتعوّذ)[٣].

القاعدة الثامنة: (التبري)

ويلي قاعدة (التخصيص) في الترتيب (التبري): وهو أنْ يتبرأ القارئ ويظهر البراءة من حوله وقوّته، والالتفات إلىٰ نفسه بعين الرضا والتزكية؛ فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوّف إلىٰ أنْ يلحقه الله عز وجل بهم، وإذا تلا آيات المقت وذمّ العصاة والمقصرين شهد علىٰ نفسه هناك، وقدّر أنّه المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إنّي أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤][٤]، وقيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: بماذا أدعو: أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة[٥]، فإذا رأىٰ نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه، فإنّ من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتىٰ يسوقه الخوف إلىٰ درجة أخرىٰ في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مُكِرَ به بالأمن الذي يفضيه إلىٰ درجة أخرىٰ في البعد أسفل مما هو فيه، ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه[٦].

وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلىٰ هواها،

(١) فضائل القرآن: ص١٤٩.
(٢) فضائل القرآن: ص١٥٢ – ١٥٣.
(٣) فضائل القرآن: ص٢٧.
(٤) ينظر: قوت القلوب، لأبي طالب المكي: ١/ ٩١.
(٥) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ١٨٧، وباختلاف يسير في اللفظ المحرر الوجيز: ١/ ٣٩.
(٦) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ١٨٧.

ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف، فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب علىٰ حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وإنْ غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتىٰ يرىٰ أنواع عذابها، وذلك لأنّ كلام الله عز وجل يشتمل علىٰ السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلّب في اختلاف الحالات، وبحسب كلّ حالة منها يستعدّ للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها؛ إذ يستحيل أنْ يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً؛ إذ فيه كلام راضٍ وكلام غضبان، وكلام منعِم وكلام منتقِم، وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنّان متعطّف لا يهمل[1].

لقد ختم الإمام الغزالي قواعد التدبّر عنده بقاعدة التبري من كلّ شيء سوىٰ الله تعالىٰ، وهي منتهىٰ درجات السالكين، وإنّ التالي للقرآن الكريم ينبغي أنْ لا يغتر بعبادته ولا تلاوته، ويجب أنْ يكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

القاعدة التاسعة: (التأثّر)

إن استشعارك أنك جزء من النص يقودك إلىٰ ثماره، وهما القاعدتان **التاسعة (التأثر)، والعاشرة (الترقي)**.

ومعنىٰ هذه القاعدة: أنْ يتأثّر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كلّ فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره.

فالغزاليّ رحمه الله ينبّه إلىٰ أنّ استجلاب التأثّر بالقرآن الكريم خوفاً وطمعاً من القواعد المعينة علىٰ تدبر القرآن الكريم، بل هو نتائج التدبّر والتفهم.

قال الإمام رحمه الله: «ومهما تمّت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال علىٰ قلبه، فإنّ التضييق غالب علىٰ آيات القرآن فلا يرىٰ ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: ﴿وَإِنِّي

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٨.

لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط لمن تاب، وآمن، وعمل صالحاً، ثمّ اهتدىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١- ٣]، ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإحسان يجمع الكلّ، وهكذا من يتصفّح القرآن من أوّله إلىٰ آخره»[١].

ومن فهم ذلك فجدير بأنْ يكون حاله الخشية والحزن، ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلاّ كثر حزنه وقلّ فرحه، وكَثُر بكاؤه وقل ضحكه، وكَثُر نصبه وشغله وقلّت راحته وبطالته[٢].

وقال وهيب بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرقّ للقلوب ولا أشدّ استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهّمه وتدبّره[٣].

فتأثر العبد بالتلاوة أنْ يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسّع ووعد المغفرة يستبشر كأنّه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته، وعند ذكرِ الكفّارِ ما يستحيلُ علىٰ الله عز وجل، كذكرهم لله عز وجل ولداً وصاحبة يغضّ صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها، روي في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ((قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليّ، قلت: يا رسول الله، أقرأُ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتىٰ أتيت إلىٰ هذه الآية: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥.

تذرفان))[1]، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان في الخائفين من خرّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد. ومنهم من مات في سماع الآيات، فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أنْ يكون حاكياً في كلامه، فإذا قال: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، ولم يكن خائفاً كان حاكياً، وإذا قال: ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً، وإذا قال: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتىٰ يجد حلاوة التلاوة.

فإنْ لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن علىٰ نفسه في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]، وفي قوله عز وجل: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وفي قوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، إلىٰ غير ذلك من الآيات وكان داخلاً في معنىٰ قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]، يعني التلاوة المجردة، وقوله عز وجل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]؛ لأنّ القرآن هو المبيّن لتلك الآيات في السموات والأرض ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها[2].

وكان أكثر الصحابة رضي الله عنهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم، ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهىٰ إلىٰ قوله عز وجل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه[3]. وإنّما العزيز مثل

(١))) صحيح البخاري: ٦/ ١٩٦ رقم (٥٠٥٠)، وصحيح مسلم بألفاظ متقاربة: ١/ ٥٥١ رقم (٨٠٠).
(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٨٥، والحديث أخرجه أبو داود: ٢/ ٥٤٦ برقم (١٣٩٩) والحاكم وصححه: ٢/ ٥٨٠ برقم (٣٩٦٤) من حديث عبد الله بن عمرو قال: أتىٰ رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله.... الحديث، وفيه: فأقرأه رسول الله ﷺ:

تلك الحالة التي مَنّ الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية.

فأمّا مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأنْ يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وبقوله عز وجل: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٦]، أي تركتها ولم تنظر إليها، ولم تعبأ بها، فإنّ المقصر في الأمر يقال: إنّه نسي الأمر، وتلاوة القرآن حق تلاوته: هو أنْ يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يُرتّل، والعقل يُترجم، والقلب يتّعظ[1].

القاعدة العاشرة: (الترقّي)

«وأعني به أنْ يترقّى إلى أنْ يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أنْ يُقدّر العبد كأنّه يقرؤه على الله عز وجل واقفًا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤالَ والتملّقَ والتضرّعَ والابتهالَ.

الثانية: أنْ يشهد بقلبه كأنّ الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياءُ والتعظيمُ والإصغاءُ والفهمُ.

الثالثة: أنْ يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلّق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهمّ على المتكلم موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين، وما قبله درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين»[2].

ذكر الغزالي رحمه الله أن من الوسائل المعينة على التدبّر الترقي من درجة أدنى إلى درجة أعلى، ووصفها بقوله: (مستغرق بمشاهدة المتكلم) فإذا وصل المسلم إلى

إذا زلزلت.. حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبداً، ثمّ أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل أفلح الرويجل.

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٧.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ١٨٧.

هـذه الدرجـة رقت روحـه وعلـت درجته عند مولاه ففهـم ووعىٰ القرآن الكريم، وهذا القول مسـتفاد من قوله ﷺ: ((الإحسـان أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك))[١].

«وعن الدرجة العليـا أخبر جعفر بن محمد الصـادق رضـي الله عنـه حيـث قـال: والله لقد تجلـىٰ الله عز وجل لخلقه في كلامه، ولكنّهم لا يبصرون[٢].

وقال أيضـاً: وقد سـألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتىٰ خرّ مغشـياً عليه، فلمّا سُـرّي عنه قيـل له في ذلك، فقال: ما زلـت أردد الآية علىٰ قلبي حتىٰ سـمعتها من المتكلم بهـا، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته.

ففـي مثل هذه الدرجة تعظـم الحلاوة ولذة المناجـاة[٣]؛ ولذلك قال بعض الحكماء: كنت أقـرأ القرآن فلا أجد له حـلاوة حتىٰ تلوته كأنّي أسـمعه من رسـول الله ﷺ يتلوه علىٰ أصحابه، ثمّ رفعت إلىٰ مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه مـن جبريل عليه السـلام يلقيه علىٰ رسـول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرىٰ، فأنا الآن أسـمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه»[٤].

إذاً لابدّ من سـموّ الروح – روح الإنسـان– لكي تقرأ وتعي روح القرآن، فالروح الإنسـانية يلزمها التزود بالبصيرة ووسيلة الاكتشاف. فالله تبارك اسمه يصف كتابه الكريم بأنّه نور وكتاب مبيـن؛ والنور لا ينفـع إلاّ من له بصر، والكتاب لا يقرؤه إلاّ العاقل. فإذا لم تكن للإنسـان عين باصرة وعقل سـليم، فإنه يعجز عن درك معاني القرآن وفهم محتواه.

«وقـال عثمـان وحذيفـة رضـي الله عنهما: (لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن)، وإنمـا قالـوا ذلـك لأنهـا بالطهـارة تترقـىٰ إلىٰ مشـاهدة المتكلم في الكلام، ولذلك قال ثابت البناني: (كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة). وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٩ رقم (٥٠)، وصحيح مسلم: ١/ ٣٦ رقم (٨).
(٢) أي أنّ المؤمـن القـارئ للقرآن إذا أخلص لله وفتح عين بصيرته فاز بلقاء الله ورؤيته بعين القلب والإيمان من خلال التدبّر في آياته جل جلاله.
(٣) قـال مـلا علـي القارئ: «لا بـد أن يقدر العبد أنه يقرأ علـىٰ الله واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه، بل يشـهد بقلبـه كأن ربه يخاطبه بل يستغرق بمشاهدة المتكلم غير ملتفت إلىٰ غيره سامعاً منه». مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ١/ ٢٨٧.
(٤) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٨.

يكون العبد ممتثلاً لقوله عز وجل: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الذاريات: ٥١]، فمن لم يره في كلّ شيء فقد رأىٰ غيره، وكل ما التفت إليه العبد سوىٰ الله تعالىٰ تضمن التفاته شيئًا من الشرك الخفي، بل التوحيد الخالص أنْ لا يرىٰ في كلّ شيء إلاّ الله عز وجل»[1].

والذي يظهر- والله أعلم- أنّ كلام الغزالي هذا موجه إلىٰ أهل التصوف فحسب، فما نصيب القارئ العامي من هذه القاعدة المنهجية في الفهم والتدبّر، ثمّ ما السبيل إلىٰ تحصيل ذلك؟ الجواب: التزام طريق أهل التحقيق والعرفان. إن ما قرره الغزالي في موضوع الفهم أو التأثر أو الترقي، أو التبري؛ ليس ميسوراً حمل الناس عليه لما فيه من الشدة والمشقة، وما يتطلبه من الرياضة والتدريب. علىٰ أنه ينبغي أن يعلم أن كلام الغزالي هذا لم يؤلفه تأليفًا، بل نطق به تجربة وخبرة وممارسة[2].

ومما تقدم يظهر لنا أنّ الغزالي رحمه الله ذكر هذه القواعد والروافد المعينة علىٰ تدبر القرآن الكريم وعدّها جوهر وروح تلاوة القرآن، وهي تقوي الصلة بين العبد وكلام الله جل وعلا وسماها: الأعمال الباطنة عند التلاوة. وتطبيق هذه القواعد يحتاج إلىٰ دربة ومجاهدة، كلّ بحسب طاقته. والله أعلم.

الخاتمة

بعد هذا التطواف والتجوال مع الإمام الغزالي في كتابه: (إحياء علوم الدين)، وتأصيله لقواعد وأسس تعين القارئ علىٰ تدبر القرآن الكريم خلص البحث إلىٰ الآتي:

١- أظهر البحث أن الإمام الغزالي جاء بأسلوب جديد في آداب تلاوة القرآن الكريم مبني علىٰ التحليل المعمق والغوص في أسس فهم القرآن الكريم وتدبره.

٢- تبين لنا أن الغزالي لم يكن مجرد ناقل للآثار والقصص الواردة في موضوع فهم القرآن الكريم فقد كان يعتمد مع التدليل لما يقول علىٰ الأسلوب التحليلي المنطقي العقلي، ويظهر هذا جليًا عند حديثه عن الفهم وموانعه، وآثار التدبر.

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٨٨.

(٢) ينظر: نظرية الإمام الغزالي في التعامل مع القرآن، للدغامين: ص١٠٦.

٣- ظهر لنا أن القواعد أو الآداب التي ذكرها الغزالي تخص في بعض منها الخواص دون العوام، فهو يطرح نظريته علىٰ مستوىٰ العارفين الذين هم أرفع الناس في رأيه، دون أن يهمل بقية الناس، فكل له نصيب.

٤- كما بين البحث أن بعضاً من العلماء والمفسرين نقلوا نص كلام الغزالي أو معناه في القواعد المعينة علىٰ التدبر كما فعل ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين: ص٥٣، والخطيب الشربيني في السراج المنير: ٤/ ٤٦١، و ابن عجيبة في البحر المديد: ٥/ ٢٤، والقنوجي في فتح البيان في مقاصد القرآن: ١٤/ ٤٨٠، والقاسمي في محاسن التأويل: ٩/ ٨٨، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ١/ ٢٩، وغيرهم كثير، وهذا إن دل علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ نجاعة ما ذهب إليه في موضوع تدبر القرآن الكريم وفهمه.

٥- بين الغزالي أن استحضار عظمة الكلام والمتكلم، تعينان القارئ علىٰ التدبر والتفكر في آيات الله تعالىٰ المنظورة وآياته المسطورة، وهما من أعظم الوسائل الهامة في ترقي القارئ إلىٰ مراتب عليا من الفهم.

٦- نبّه الإمام الغزالي إلىٰ أن الحجب التي تمنع القارئ عن التفكر والتدبر ثلاثة: أولها: أن يكون الهمّ منصرفاً إلىٰ تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها. وثانيها: التقليد الأعمىٰ لمذاهب التأويل، وثالثها: الموانع الأخرىٰ: كالإصرار علىٰ الذنب، والكبر، واتباع هوىٰ النفس وغير ذلك. فإذا تحققت هذه في عبد، فإن من سنن الله تعالىٰ أن لا يؤثر فيه القرآن بل ولا تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر، وهذا ما يعبر عنه بالطبع علىٰ القلوب.

٧- أظهر البحث أن الترتيب المنطقي للأسس المعينة علىٰ تدبر القارئ تكون كما يأتي: عند وضع المصحف بين يديه، لا بد أن يستحضر القلب عظمة الكلام الذي بين يديه (وهو القاعدة الأولىٰ)، وعظمة من تكلم به، (وهو القاعدة الثانية). فإذا فتح المصحف، فلا بد من تهيئة النفس لما فيه، ويتطلب ذلك التخلي عن الموانع أولاً (وهو القاعدة الثالثة)، ثم حضور القلب ثانياً، (وهو القاعدة الرابعة). فإذا قرأ آيات القرآن، لا بد من فهمها أولاً (وهو

القاعدة الخامسة)، ثم التفكر فيما فهم ثانيًا، (وهو القاعدة السادسة). فإذا تفكر قاد التفكر إلىٰ أن يكون مخاطبًا بما يقرأ، فيستشعر أنه جزء من النص، وما فيه من أحكام وثواب وعقاب يخصه، وهذا يتطلب القاعدتين، السابعة (التخصيص)، والثامنة (التبري). إن استشعاره أنه جزء من النص يقوده إلىٰ ثماره، وهما القاعدتان التاسعة (التأثر)، والعاشرة (الترقي).

❊ ❊ ❊ ❊

فلسفة الهدي النبوي في حماية البيئة

د. سفيان ناول

ليس ثمة شك أن رسالة الإسلام من منطلق كونها خاتمة الرسالات السماوية إلىٰ البشرية كافة، اهتمت بالبِيئة اهتماماً كبيراً باعتبارها ميراث الأجيال المتلاحقة حيث أودع الله فيها كل مقومات الحياة للإنسان المستخلَف فيها.

ومما يتعين لفت النظر إليه؛ أن الإسلام لم يكتف بإقامة تصوره عن حماية البيئة علىٰ أحكام فقهية جزئية فقط، وإنما أرسىٰ تصوره البيئي علىٰ أسس وقواعد فكرية وعقدية متينة هي أسمىٰ قيمة وأرسخ وجوداً وأكثر يقينية من الأحكام الجزئية. وبذلك كان التصور البيئي الإسلامي قوياً؛ لأنه مسنود بحقائق الفكر والعقيدة، ولأنه متغلغل في النفس تغلغل العقيدة في كل مسارب النفس وحناياها.

وإذا لم يكن بالإمكان استعراض أكثر هذه القواعد، فإن بالإمكان الاجتزاء بتقديم بعضها مما يقوم مقام الشاهد والنموذج الذي يمكن التفريع عليه، والنسج علىٰ منواله، والتوسع فيه من أجل مواجهة مستجدات قضايا البيئة.

النظرة الإسلامية للبيئة:

عني الإسلام بالبيئة عناية فائقة، ووضع أسساً للحفاظ عليها والاستفادة من خيراتها، وإن لم يستخدم القرآن الكريم لفظ البيئة، فإنه ذكر عناصرها ومكوناتها في كثير من المواضع والآيات الكريمة، فذكر الأرض والجبال والمياه والنبات والحيوان...إلخ. وتكرر ذكر لفظ الأرض فيه ٤٢٥ مرة.

والناظر في واقع البيئة يجد الحاجة ماسة إلىٰ وعي بيئي، ينطلق من تشريع الإسلام وقيمه وقواعده، التي أكدت علىٰ احترام البيئة، وتنمية الاتجاهات الإيجابية نحوها.

والتربية البِيئية مطلوبة من كافة المؤسسات ذات العلاقة بها، وهي تشمل النشاط الإنساني الذي يقوم بتوعية الأفراد بالبيئة وبالعلاقات القائمة بين مكوناتها، وبتكوين القيم والمهارات البيئية وتنميتها علىٰ أساس مبادئ الإسلام وتصوراته عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، ومطالب التقدم الإنساني المتوازن.

المفهوم اللغوي للبيئة:

يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة إلىٰ الجذر «بوأ» الذي أخذ منه الفعل الماضي «باء».

قال ابن منظور في معجمه لسان العرب[1]: «باءَ إِلَىٰ الشَّيْءِ يَبُوءُ بَوْءاً: رَجَعَ إليه»، وذكر المعجم نفسه معنيين قريبين من بعضهما البعض لكلمة «تبوَّأ»:

الأول: إصلاح المكان وتهيئته للمبيت، والثاني: بمعنىٰ النزول والإقامة.

كما ورد معنىٰ البيئة في أساس البلاغة[2]، وفي القاموس المحيط[3] بمعنىٰ المنزل.

مفهوم البيئة في الإسلام:

إن مصطلح البيئة هو مصطلح إسلامي نظراً لذكر اشتقاقاته في عدة سور من القرآن الكريم يقول تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾[يونس: ٨٧]، أي: اتخذ لهم بيوتاً للصلاة والعبادة.

كما يقول تعالىٰ: ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾[الأعراف: ٧٤]. فكلمة البيئة لم يرد ذكرها لفظاً في القرآن الكريم والسنة النبوية إلا أنه إذا أخذ مفهوم البيئة بأنها الأرض وما تتضمنه من مكونات غير حية متمثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول وصخور ومعادن وتربة...إلخ، ومكونات حية متمثلة في الإنسان والنبات والحيوان سواء أكانت علىٰ اليابسة أو في الماء، تجد أن البيئة بهذا المفهوم قد وردت في القرآن في ١٩٩ آية في سور مختلفة.

ويتميز مفهوم البِيئة في الإسلام بشموليته فهو يعني الأرض والسماء والجبال وما فيها من مخلوقات بما فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز.

ربط الحفاظ علىٰ البيئة بالعقيدة الإسلامية:

لقد سبق النبي ﷺ النظريات الاقتصادية والتنبؤات البِيئية في دعوته إلىٰ المحافظة علىٰ البيئة بجميع مكوناتها. فهذه الدعوة نابعة من منظومة إيمانية تراعي دور القيم والأخلاق في توجيه الاقتصاد وترشيد أنماط الاستهلاك[4].

ومن هنا عد النبي ﷺ المحافظة علىٰ البيئة شعبة من شعب الإيمان، كما جاء في تمثيل

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة «بوأ»، ص: ٣٨-٣٩.
(٢) أساس البلاغة، للزمخشري، مادة «بوأ»، ص: ٣٣.
(٣) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مادة «باء»، ١/ ٨.
(٤) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص ٦٩.

رسول الله ﷺ لأدنىٰ وسائل هذه المحافظة في قوله ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[1].

فالنبي ﷺ «لا يربط العبادة بالشعائر الدينية فقط، بل هي تتجاوز ذلك، فهي تعني الالتزام الصادق بالتوجيهات الإسلامية في كل مضمار، فصيانة الموارد عبادة، والرفق بالحيوان عبادة، والمعاملة الحسنة عبادة...إلخ»[2].

وانطلاقاً من هذا التصور الشمولي لمفهوم العبادة يصبح الإحسان للبيئة بشتىٰ مكوناتها وعناصرها أمراً إلهياً يكتسي صفة الوجوب والطاعة، وإلا كفر الإنسان بأنعم الله تعالىٰ. يقول عز وجل في كتابه العزيز: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧].

يمكن القول: إن التصور الإسلامي لحماية البيئة يصدر عن منظومة إيمانية ثلاثية الأبعاد:

البعد التوحيدي: «إن التوحيد جوهر الأديان والرسالات فهو المصدر الرافد للتدين والأخلاق والسلوك الاجتماعي؛ فكل عمل يوزن بميزانه، ويقاس بمقياسه فإما الفلاح والفوز، أو الخسران وحبوط العمل»[3].

فالعمل الصالح طريق إلىٰ التوحيد الحق، إذ به يزكو الإيمان، ويتقوىٰ الورع، وتتحقق العبودية لله في أمثل صورة وأقومِها، ومن شعب هذا العمل رعاية البيئة من جهة العدم وجهة الوجود، أي صونها من دواعي الإفساد والإتلاف. فكل مكونات البيئة هي مخلوقات لله تسبح بحمده وتخشع لعظمته، والتعدي عليها تعطيل لوظيفتها التوحيدية. وفي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ»[4].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/ ١١) برقم: (٩) ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (١/ ٤٦) برقم: (٣٥)، (١/ ٤٦).

(٢) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص: ٤١.

(٣) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤١.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤/ ٦٢) برقم: (٣٠١٩)، (٤/ ١٣٠) برقم: (٣٣١٩)، ومسلم في «صحيحه» (٧/ ٤٣) برقم: (٢٢٤١)، (٧/ ٤٣) برقم: (٢٢٤١)، (٧/ ٤٣) برقم: (٢٢٤١).

قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإيمان بالله تعالىٰ: «إيمان بالرقابة الدائمة علىٰ أعمال الإنسان في الدنيا، ومن شأن هذه الرقابة أن تعمق الوعي بالمسؤولية وتحفز إلىٰ الالتزام بآداب التعامل مع المخلوقات والإحسان إليها»[(١)].

وعلىٰ هذا الأساس العقدي، فقد أصبح الحفاظ علىٰ مكونات البيئة قضية هي أسمىٰ من أن تكون جزئية بيئية، لما صارت جزءاً من المعتقد.

البعد الاستخلافي: كرم الله تعالىٰ الإنسان وجعله خليفة في أرضه يعمرها وينشئ فيها منافعه بما يتوافق وسنن الفطرة ونواميس الكون، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والقصد من الاستخلاف هو الاختبار والنظر في صنيع المستخلَف: هل يحسن التدبير أو يسيئه[(٢)]. وهذا ما صرح به رسول الله ﷺ في قوله: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظر كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[(٣)].

فالإنسان وَصِي علىٰ هذه البيئة بكل مكوناتها، وإذا كان الشرع قد أباح له استغلالَ مواردها استيفاءً لمصالحه وقضاءً لرغباته، فإنه لم يمكنه من السيادة التامة. فقد ألزمه الشرع بالاعتدال وحسن التصرف، وقيَّده بواجب التنمية والتزكية مع دفع أسباب التخريب والإتلاف[(٤)]. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«وَيُمِيطُ الْأَذَىٰ عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[(٥)].

وعن أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: «قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ عَلِّمْنِي

(١) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤١.
(٢) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤١-٤٢.
(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٥/ ١٤٢) برقم: (١٧٣٨)، (٥/ ١٤٢) برقم: (١٧٣٨)، (٧/ ٤٧) برقم: (٢٢٥٢)، (٧/ ٤٧) برقم: (٢٢٥٢)، (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٢).
(٤) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤١.
(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المظالم - باب إماطة الأذىٰ (٣/ ١٨٧) برقم: (٢٧٠٧)، (٤/ ٣٥) برقم: (٢٨٩١)، (٤/ ٥٦) برقم: (٢٩٨٩)، ومسلم في «صحيحه» (٣/ ٨٣) برقم: (١٠٠٩).

شَـيْئًا أَنْتَفِعُ بِهِ، قَـالَ: «اعْـزِلْ الْأَذَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ»[1].

ومن هنا كانت البيئة أمانة لدىٰ المستخلَف يتصرف فيها بحدود يراعىٰ فيها الانتفاع المعتدل والاستثمار القويم.

البعد الأخروي: إن الإيمان بالآخرة ركن عقدي يؤثر في توجيه علاقة الإنسان ببيئته في إطار مبدأين:

الأول: مبدأ الحلال والحرام، وهو ضابط متين لعلاقة الإنسان بالبيئة وكيفية استغلالها.

لما ثبت أن وجود المخلوقات ليس عارياً عن حكمة، وأن لكل منها وظيفة يؤديها ضمن منظومة المخلوقات كلها. فقد ألزم الإسلام بالمحافظة علىٰ كل مكونات البيئة، ومنع من إفنائها إلا ما احتيج إلىٰ إزالته بحكم الضرورة لإقامة حياة الإنسان، أو لدفع خطر عنه.

وفي ضوء هذا المبدأ يميز بين الصالح والطالح، والضار والنافع، «فكل ما من شأنه أن يُفضي إلىٰ الانتفاع بالموارد البيئية ويعود علىٰ الإنسان بالخير والصلاح فهو حلال، بل قد يعتري فعلَه أو السعي إليه حكمُ الوجوبِ، ولا سيما ما يدلي بسبب أو نسب إلىٰ حفظ الضروريات الخمس -الدين، النفس، النسل، العقل، المال- وجلب المصالح ورد المفاسد»[2].

المبدأ الثاني: هو مبدأ الحساب والعقاب الذي يترتب علىٰ المبدأ الأول ترتباً مباشراً، فإذا التزم الإنسان بالأمر الإلهي تحقق الفوز. لكن إذا حدث العكس، وتمت مخالفة الأمر الإلهي تعمداً وتقصداً استحق المخالف العقاب والحساب.

هذا المبدأ «هو خير حافز للإنسان علىٰ الإحسان إلىٰ البيئة، ومراعاة شرائع الله فيها حمايةً وتنميةً؛ لأنه مستشعرٌ للرقابة الدائمة وطامعٌ في الفوز بالنعيم الأخروي. لذلك كان تحقيق الاستخلاف بصورته المثلىٰ ومقصده العالي شرطاً للنجاة من العذاب في الآخرة»[3].

ركائز الهدي النبوي في حماية البِيئة:

كان النبي ﷺ من الدعاة الأقوياء للاستخدام

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة والآداب- باب فضل إزالة الأذىٰ عن الطريق (٤/ ٢٠٢١) برقم (٢٦١٨).
(٢) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤٢.
(٣) المحافظة علىٰ البيئة من منظور إسلامي للدكتور قطب الريسوني ص:٤٣.

الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفي هذا السياق فإن حداثة رؤيته للبيئة والمفاهيم التي جاء بها في هذا المجال لمما يبهر العقل، حتىٰ لتبدو بعض أحاديثه وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

إن فلسفة النبي ﷺ البيئية هي أولاً وقبل كل شيء فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم علىٰ أن هناك صلة أساسية وارتباطاً متبادلاً بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافاً فإن العالم الطبيعي برُمّته سوف يضارّ أضراراً مباشرة. علىٰ أن هذا الاعتقاد لا يُنَصّ عليه في حديث واحد نصاً مباشراً، بل يمثل بالأحرىٰ المبدأ الذي تنهض عليه جميع أقواله ﷺ وأفعاله. إنها فلسفة حياته التي علىٰ ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته.

إن أهم ثلاث ركائز في فلسفة الهدي المحمدي المتعلقة بالبيئة تقوم علىٰ تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة في الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية في دعوة الإسلام إلىٰ المحافظة علىٰ البيئة، وهذا التوحيد يراعي الحقيقة التي تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسئول أمامه عن أعماله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[المائدة: ١٢٠].

ويقر الهدي النبوي بأن علم الله تعالىٰ وقدرته يشملان كل شيء، ومن ثم كانت الإساءة إلىٰ أي مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائناً حياً أو مصدراً من مصادر الطبيعة؛ ذَنْباً من الذنوب يؤاخذ الإنسان عليه. وأن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغي أن يكون لها حقوق تُحْتَرَم.

أما مفهوما الخلافة البشرية في الأرض والثقة في الإنسان، فينبعان من مبدأ الوحدانية. ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله علىٰ الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسؤولية العناية بغيره من المخلوقات. وهذا واجب كل فرد منا ووجه تميُّزه، ومجلىٰ الثقة به. ورغم هذا نرىٰ القرآن مراراً وتكراراً ينهىٰ الإنسان عن

الكِبْر منبهًا إياه إلىٰ أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨].

كان النبي ﷺ يؤمن بأن الكون بما فيه من مخلوقات: حيواناتٍ كانت هذه المخلوقات أو نباتاتٍ أو مياهًا أو أرضين، لم تُخْلَق لتكون للبشر. صحيح أن لهم الحق في استخدام موارد الطبيعة، إلا أنهم لا يمكنهم أن يتملكوها تملُّكًا. ومن هنا ففي الوقت الذي يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدوداً لذلك: فعلىٰ سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها، لكنه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتىٰ يصبح واجبًا عليه التخلي عن هذه الحيازة. ويسمىٰ هذا نظام إحياء الموات وقد تأسس بموجب قول النبي ﷺ: «مَنْ أَحيَا أَرْضًا مَيِّتَة فَهِيَ لَه»[(١)]،

وفيه بين النبي ﷺ أن إحياء الأرض يصير سنداً صحيحًا لتملكها. وهذا التمليك هو مكافأة للجهد المبذول في الغرس، وفي هذا من التشجيع علىٰ استصلاح الأراضي وزراعتها ما هو واضح.

كما نجد النبي ﷺ يبين أنه حتىٰ عند انتفاء كل أمل لدىٰ البشر في البقاء، علىٰ الفرد أن يحافظ علىٰ نمو الطبيعة. لقد كان ﷺ مؤمنًا بأن الطبيعة حسنة في ذاتها حتىٰ لو لم يستفد البشر منها، من ثَمّ نراه يقول: «إِنْ قَامَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»[(٢)].

وبالمثل نراه يحض أصحابه علىٰ التشارك في موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلاً: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي الْكَلَإِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ»[(٣)]. كما يُعد حرمان العطشان من الماء إثمًا يعاقَب عليه: «مَنْ مَنَعَ فَضْلَ مَائِهِ، أَوْ فَضْلَ كَلَئِهِ مَنَعَهُ اللهُ فَضْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٤)].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المزارعة- باب من أحيا أرض الموات (٣/ ١٠٦) برقم: (٢٣٣٥)، ومالك في «الموطأ» (٤/ ١٠٧٦) برقم: (٢٧٥٠/ ٥٩٦).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٧/ ٢٦١) برقم: (٢٧١١)، (٧/ ٢٦٢) برقم: (٢٧١٢)، (٧/ ٢٦٣) برقم: (٢٧١٣)، (٧/ ٢٦٣) برقم: (٢٧١٤)، (٧/ ٢٦٤) برقم: (٢٧١٥)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ٢٧٢٧) برقم: (١٣١٠٠)، (٥/ ٢٧٤٤) برقم: (١٣١٨١)، والطيالسي في «مسنده» (٣/ ٥٤٥) برقم: (٢١٨١).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣/ ٢٩٥) برقم: (٣٤٧٧) والبيهقي في «سننه الكبير» كتاب إحياء الموات -باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة (٦/ ١٥٠) برقم: (١١٩٥٠)، (٦/ ١٥٠) برقم: (١١٩٥٢)، وأحمد في «مسنده» (١٠/ ٥٤٧٥) برقم: (٢٣٥٥١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٦٦٩) برقم: (٢٣٦٥٥).

(٤) أخرجه البيهقي في «سننه الكبير» (٦/ ١٦) برقم: (١١١٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٤٠٤) برقم: (٦٧٨٤)، (٣/ ١٤١٤)

والواقع أن موقف النبي ﷺ تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضع الذي يصبغ فلسفته حول البيئة.

أولاً: الاستخدام الرشيد للأرض:

بين الله تعالى أن العلاقة بين الإنسان والأرض، من أكبر مكونات المجال وأقربها إلى الإنسان، هي علاقة وثيقة تبتدئ من النشأة لتمر بالاستقرار، ثم الاحتضان النهائي لجثة الإنسان.

وقد ذكر الله تعالى أن مادة جسم الإنسان الأولى هي التراب الذي أضيف إليه الماء فصار طيناً، ثم سخن بالنار فصار فخاراً متصلباً، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [فاطر: ١١]. ويقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[الصافات: ١١].

وبسبب أن الإنسان جزء من مادة الأرض، فقد احتوى جسمه على العناصر والمعادن الموجودة في الأرض، وصار وجود المعادن فيه سبب قوته ونشاطه.

وبعد نشأة الإنسان الأولى، فإن الأرض تحمله عبئاً عليها وتوفر له غذاءه وماءه ولباسه ومأواه، كما توفر له من معادنها ومن ثرواتها ما هو سبب قوته وثرائه وتنعمه.

وحين تنتهي رحلة حياة الإنسان، فإن الأرض هي التي تضم رفاته وتحتضن جسده وتستره داخلها، يقول تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]. ولهذه العلاقة الحميمية الوثقى فقد رأى الناس في الأرض أنها أم رؤوم وقلب حان.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»[1]. ففي هذا الحديث يؤكد النبي ﷺ الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة، لا بوصفها ذاتاً طاهرة فحسب، بل بوصفها مادة مُطَهِّرة كذلك، كما في حديث

برقم: (٦٨٣٧)، (٣/ ١٤٨٨) برقم: (٧١٧٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ٥٩) برقم: (٢١٣٤٣)، والطبراني في «الكبير» (١٣/ ٣٤٨) برقم: (١٤١٦٦)، (١٣/ ٦٥٠) برقم: (١٤٥٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٤٥) برقم: (١١٩٥)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٧٤) برقم: (٩٣).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/ ٧٤) برقم: (٣٣٥)، (١/ ٩٥) برقم: (٤٣٨)، (٤/ ٨٥) برقم: (٣١٢٢)، ومسلم في «صحيحه» (٢/ ٦٣) برقم: (٥٢١)، (٢/ ٦٣) برقم: (٥٢١).

حذيفة رضي الله عنه عند مسلم: «وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». فيَظْهَر هذا الاحترامُ للأرض في شعيرة التيمم التي تجيز للمسلم استعمال التراب في الطهارة الواجبة عند الصلاة في حالة فقدان الماء.

وينظر النبي ﷺ إلىٰ الأرض علىٰ أنها مسخَّرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها.

ومن أجل المحافظة علىٰ الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل الرسول ﷺ عدداً من المحميات، من قبل أن تعرف البشرية نظام المحميات البيئية للحفاظ علىٰ أنواع من الحيوانات والطيور والنباتات، فقد كان للإسلام سبقه وريادته في تحديد أول محمية تحمىٰ فيها مكونات البيئة، وقد كانت تلك المحمية الأولىٰ هي الحرم المكي بما له من قدسية ومكانة في نفوس المسلمين.

ومن أحكام الحرم المكي أنه لا يجوز اقتلاع أشجاره النابتة نباتاً طبيعياً، ولا يجوز اقتلاع الكلأ إلا ما كان وجوده يمثل ضرراً علىٰ الإنسان، يقول الرسول ﷺ في خطابه يوم فتح مكة: « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، فَقَالَ: إِلَّا الْإِذْخِرَ»[1].

ولم يشجع النبي ﷺ فقط الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت أنظار أصحابه أيضاً إلىٰ المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، واعتبره نظاماً إعمارياً شرعه للتحفيز علىٰ الغرس والزرع من أجل توسيع المساحات المغطاة بالنبات، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سَقْي أرض عطشىٰ من أعمال البر والإحسان: «مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢/ ٩٢) برقم: (١٣٤٩)، (٢/ ١٤٧) برقم: (١٥٨٧)، (٣/ ١٤) برقم: (١٨٣٣)، (٣/ ١٤) برقم: (١٨٣٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد علىٰ الدوام (٤/ ١٠٩) برقم: (١٣٥٣).

فَلَهُ فِيهَا أَجْرٌ»[1]. وعلىٰ هذا فأيما شخص ساق الماء إلىٰ قطعة أرض قاحلة فهي له.

ثانيًا: المحافظة علىٰ الماء:

في البيئة الصحراوية الخشنة التي كان يعيش فيها محمد ﷺ يُعَدّ الماء مرادفًا للحياة، فهو نعمة من الله، بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠]. ويذكِّر القرآن المسلم علىٰ الدوام بأنه خليفة الله في الأرض، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة علىٰ أنها أمرٌ مسلَّمٌ به: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

الإنسان المسلم قد يؤدي فريضة الوضوء من حيث هي طاعة لله، وهو يراعي في الوقت نفسه ضرورة الاقتصاد في استعمال الماء وعدم الإسراف فيه، ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات[2] حتىٰ لو كان علىٰ نهر جار، وقد يدري أو لا يدري أنه ينسجم بذلك السلوك الديني مع توصيات حماية البيئة التي أصبحت تُلح علىٰ ترشيد استعمال الماء وعدم إهداره. بعد أن لاحت مؤشرات شحة المياه القادمة، وغدت تهدد مستقبل البشرية، وتنذر باندلاع حروب المياه المستقبلية.

ومن أمثلة مراعاة البيئة في فريضة الوضوء أن المسلم يعرف أن الوضوء لا يصح بالماء المتغير والممتزج بما ليس من طبيعته، ولو أنه غير نجس، فيكون المسلم بذلك ساعيًا إلىٰ الحفاظ علىٰ نقاء منابع المياه ومجاريها، وبهذا تتماهىٰ أحكام العبادة مع توصيات حماية البيئة من هذا الجانب.

كما أن التمييز بين المياه بناء علىٰ صفائها وسلامتها من كل ما يخالطها مما ليس وجوده فيها وجوداً طبيعيًا، قد كان ولا شك عاملاً قويًا دفع المسلمين إلىٰ الحرص علىٰ منع تلويث المياه ومزجها بغيرها، ولو لم تكن تلك الملوثات نجسة.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١١ / ٦١٣) برقم: (٥٢٠٢)، (١١ / ٦١٤) برقم: (٥٢٠٣)، (١١ / ٦١٥) برقم: (٥٢٠٤)، (١١/ ٦١٦) برقم: (٥٢٠٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥ / ٣٢٣) برقم: (٥٧٢٤/ ١)، (٥ / ٣٢٣) برقم: (٥٧٢٤/ ٢)، (٥/ ٣٢٣) برقم: (٥٧٢٥)، (٥ / ٣٢٤) برقم: (٥٧٢٦)، والترمذي في «جامعه» (٣ / ٥٥) برقم: (١٣٧٩)، والدارمي في «مسنده» (٣/ ١٧٠٠) برقم: (٢٦٤٩).

(٢) يضيف البخاري قائلًا: «وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ».

ثالثًا: رعاية الحيوانات:

عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، قَالَ: سَمِعْتُ الشَّرِيدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُوراً عَبَثًا عَجَّ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنْفَعَةً»(١).

يعكس الحديث إجلال رَسُول اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحترامه ورعايته للحيوانات. ذلك أنه يعتقد بوصفها خلقًا من خلق الله، ينبغي أن تحظىٰ بمعاملة كريمة، ففي الأحاديث النبوية عدد كبير من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التي ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات.

حتىٰ في ذكاة الحيوان نجده يبدي قدراً عظيمًا من الرقة والمرحمة. فأحاديثه تبين لنا بوضوح أنه كان ﷺ حساسا للغاية اتجاه معاناة الحيوانات، حتىٰ لكأنه يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد في الذبح واتباع طريقة مسؤولة من شأنها أن تزهق روح الحيوان سريعًا بحيث يخف ألمها إلىٰ أقصىٰ درجة ممكنة.

كما نهىٰ عن ذبح أي حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداد الشفرة بحضرته، وإلا فكأنه قد ذبحه مرتين كما جاء في حديث لمن كان يُحِدّ شفرته في حضور ذبيحته، إذ قال له مستنكراً: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ، هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا؟». لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة.

كما نجد أن كتب الفقه تضمنت أجوبة تمنع قتل الحيوان لمجرد اللهو والعبث به، وهو ما يوجد منصوصًا عليه ومفصلاً خصوصًا في باب الصيد من الكتب الفقهية.

وقد اتفقت كلمة الفقهاء علىٰ أنه لا يجوز اقتناص الحيوان لمجرد اللهو به، وأنه يجب استحضار ما للحيوان من نسل، فأوجبوا علىٰ من يحلب الشاة أو البقرة أن يبقي لأولادها ما تعيش به، وأوجبوا علىٰ من يشتار العسل من خلية النحل أن يبقي بعضه ليعيش به النحل، ومثل هذا في أحكام الفقه كثير، وهذا ما يفيد أن التربية البيئية قد امتزجت بالتربية الدينية،

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٣/ ٢١٤) برقم: (٥٨٩٤)، والنسائي في «المجتبىٰ» (١/ ٨٧١) برقم: (٤٤٥٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٣٦٦) برقم: (٤٥٢٠)، وأحمد في «مسنده» (٨/ ٤٤٨٣) برقم: (١٩٧٧٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢/ ٣٢٩) برقم: (٨٧٣)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٣١٧) برقم: (٧٢٤٥)، (٧/ ٣١٧) برقم: (٧٢٤٦).

وأن الإخلال بالبيئة عند المسلمين إنما نتج عن ضعف التربية الدينية أصالة.

أما بالنسبة لصيد الحيوان لقد كان منذ الزمن القديم وإلىٰ الآن مصدر عيش لبعض من ترتبط حياتهم بالغابات والبراري، لكن الصيد كما هو مفيد لحياة الإنسان، فإنه يمكن أن يكون مخلاً بالتوازن البيئي حين ينتهي إلىٰ إفناء نوع من أنواع الحيوانات التي خلقها الله لحكمة اقتضتها مشيئته.

ولهذا فإن الإسلام قد ضبط الصيد بأحكام عدة.

وقد قال الفقه بجواز الصيد من حيث الأصل والمبدأ، لكنه لم يطلق القول بالإباحة، وإنما ضبطها بقيود عديدة حتىٰ لا يصير الصيد صيداً عابثاً وجائراً يستنزف الطرائد، ومن تلك الضوابط:

أن يكون الصيد بقصد تلبية حاجة حقيقية، وألا يصطاد الحيوان لمجرد العبث بصيده والتسلي بقتله، وأصل هذا الضابط قول النبي ﷺ: «من قَتَل عُصْفُوراً سَأَله الله عنه يوم القيامة، قيل :يا رسول الله وما حقه؟ قال: يذبحه ذبحاً ولا يأخذ بعنقه فيقطعه»[1].

وفرع الفقهاء علىٰ هذا أن الصيد لمجرد اللهو مكروه.

وعبر الشيخ عليش في شرحه لمختصر خليل عن رأي المالكية في حكم الصيد فقال: وَحَرُمَ اصْطِيَادُ مَأْكُولٍ لَا بِنِيَّةِ الذَّكَاةِ، بِأَن اصْطَادَهُ بِنِيَّةِ قَتْلِهِ أَوْ الْفُرْجَةِ عَلَيْهِ أَوْ بِلَا نِيَّةٍ أَوْ حَبَسَهُ بِقَفَصٍ وَلَوْ لِذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ كَدُرَّةٍ وَقُمْرِيٍّ.

ويضيف عليش: إن الصيد يجوز إذا كان لغرض صحيح كتعليم الحمام ليكون حماماً زاجلاً ينقل الرسائل ويقوم مقام البريد[2].

ومن الحالات التي قيل فيها بحرمة الصيد حالة ما إذا خيف انقراض نوع من الطرائد؛ لأنها مما خلقه الله وجعل به الأرض فلا يصح إفناؤها.

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤ / ٢٣٣) برقم: (٧٦٦٩)، والنسائي في «المجتبىٰ» (١/ ٨٥٤) برقم: (٤٣٦٠)، (١ / ٨٧١) برقم: (٤٤٥٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤ / ٣٦٦) برقم: (٤٥١٩)، (٤ / ٤٨٩) برقم: (٤٨٤١)، والدارمي في «مسنده» (٢ / ١٢٥٩) برقم: (٢٠٢١)، والبيهقي في «سننه الكبير» (٩ / ٨٦) برقم: (١٨٢٠١)، (٩ / ٢٧٩) برقم: (١٩١٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٣ / ١٣٧٧) برقم: (٦٦٦١)، (٣ / ١٣٧٧) برقم: (٦٦٦٢).

(٢) منح الجليل شرح مختصر خليل، لمحمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله المالكي (المتوفى: ١٢٩٩هـ)، دار الفكر -بيروت، بدون طبعة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ٢/ ٤٣٣.

وبناء علىٰ هذا فإنه يحق للدولة أن تتدخل لمنع هذا النوع من الصيد الجائر علىٰ قاعدة أن تصرف الولي منوط بالمصلحة، وأن له أن يقيد المباح إذا أدىٰ إلىٰ ضرر، إذا كان المباح مستنداً إلىٰ قاعدة الإباحة الأصلية، ولم يكن مستنداً إلىٰ نص يقتضي الإباحة.

ومن الحالات التي قيل فيها بمنع الصيد وقوعه زمن توالد الحيوانات؛ لأن ذلك مؤد إلىٰ انقراضها فلا بد من منع الصيد في هذه الفترة، وهذا الحكم هو ما دعت إليه قوانين الراحة البيولوجية.

خاتمة:

إن استقراء السنة النبوية يجعلنا نقف علىٰ قواعد وقيم عظمىٰ لحماية المخلوقات التي تعيش علىٰ الأرض والإحسان إليها، بما في ذلك حماية الإنسان من شرور نفسه ومن ظلم أخيه الإنسان، وذلك بالاستفادة مما في الأرض من موارد طبيعية ومقدرات وفق ضوابط خاصة من غير إفراط ولا تفريط. ولم تقتصر السنة النبوية في هذا المجال علىٰ تحديد أساليب الثواب للمحسنين للبيئة والعقاب للمسيئين لها، بل تعدّت ذلك إلىٰ جعل أخلاقيات التعامل مع البيئة سلوكًا حميداً يجب أن يلتزم به المسلم ويراقب في أدائه ربه.

إن ميزة التوجيه الإسلامي في موضوع البيئة وغيره أنه يستمزج الجانب الديني وهو يدعو إلىٰ الحفاظ علىٰ كل مكونات البيئة، ومن ثم يعتبر المسلم حفاظه علىٰ البيئة ضرباً من العبادة يشمله حكم التكليف الشرعي الذي اعتاد المسلم أن يؤديه عن طواعية واختيار، ليجد في تلك الممارسة لذة الطاعة، ويحس بالرضا عن الفعل، فتهون لديه التضحيات.

❋ ❋ ❋ ❋

المواطنة وأهميتها في تعزيز الأمن المجتمعي
(الحلقة الثانية)

د. راشد عبدالرحمن العسيري

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ نهجه واقتفىٰ أثره واستن بسنته إلىٰ يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد:

فقد تناولت في الحلقة الأولىٰ من هذا الموضوع مفهوم المواطنة، ومشروعيتها في النظام الإسلامي.

وأتناول في هذه الحلقة دور صحيفة المدينة النبوية في ترسيخ مبدأ المواطنة، ومدىٰ أهمية مبدأ المواطنة في تعزيز الأمن المجتمعي.

المطلب الثاني

صحيفة المدينة النبوية ودورها في ترسيخ مبدأ المواطنة

لما وصل النبي ﷺ إلىٰ يثرب وأسس دولته، سارع إلىٰ إرساء معالم الدولة الإسلامية الأولىٰ، ومن بين أوائل الأمور التي قام بها النبي ﷺ أنه آخا بين المهاجرين وهم أهل مكة، وبين الأنصار وهم أهل المدينة من الأوس والخزرج، وقد كان في المدينة النبوية خليط من غير المسلمين من المشركين واليهود، فأقام النبي ﷺ عقداً واتفاقًا بين جماعة المسلمين وبين غير المسلمين[1]، عُرف باسم: (صحيفة المدينة)[2].

فكانت هذه الصحيفة وما عقده النبي ﷺ فيها أول معنىٰ حقيقي لمفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية، وفق حدود وضوابط محددة المعالم، وهي تعد بالمفهوم المعاصر مرجعية دستورية لسكان المدينة النبوية.

(١) شملت الصحيفة النبي ﷺ وجميع المسلمين من المهاجرين والأنصار، وجميع عناصر الأمة من غير المسلمين ويهود وممثلين عن بني عوف، وبني الحراث بن الخزرج، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف وبني النبيت، وبني الأوس، ويهود بني عوف، ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة وعشيرة جفنة (بطن من ثعلبة) وبني الشطية، وموالي ثعلبة، وبطانات كل طوائف اليهود جميعهم طرفا وهم يمثلون جميع مواطني المدينة النبوية.

(٢) اختلف العلماء في إثبات صحيفة المدينة، فذهب بعضهم إلىٰ القول بثبوتها، وذهب البعض الآخر بضعف ثبوتها، بينما ذهب آخرون بأنها أكثر من وثيقة عرفت بوثيقة المدينة، ومن خلال ما اطلعت عليه من دراسات حديثية ثبت لدي بعد استعراض الكثير ممن كتب في إثبات صحتها من عدمه إلىٰ القول بصحتها، وأنها من حيث تعدد مروياتها تصل إلىٰ درجة الحسن، وعليه يصح الاعتماد عليها في الاستدلال.

فقد تضمنت هذه الصحيفة بنوداً تمثل الأسس الرئيسة لمبدأ المواطنة، من خلال بيان الحقوق والواجبات بين أفراد مجتمع المدينة جميعاً[1].

وقد نصت الصحيفة بأنه: (هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس)[2].

وقد نصت الصحيفة علىٰ مجموعة من البنود، أهمها:

- إن جميع من وقع عليها أمة واحدة من دون الناس.

- تأمين جميع أهل الصحيفة علىٰ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم.

- إقرار العرف الاجتماعي السائد بينهم.

- وضع أسس للتعايش السلمي والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيما بين أهل الصحيفة وفيما بينهم وبين الدولة الجديدة، وفيما بين المسلمين وغيرهم من مواطني المدينة (من اليهود).

- تنظيم عنصر السلطة والسيادة في الدولة وتحديد معالم هذه السيادة بشكل واضح.

- تحديد أركان الدولة الثلاثة: الإقليم - الشعب - السلطة العامة.

- فكل من اعتنق الإسلام من أي جنس أو لون أو وطن، وكل من التزم أحكام الإسلام من

(١) وقد نقل هذه الوثيقة ابن إسحاق وابن هشام ونقلها المؤرخون عنهما، انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٤٧، نظام الدولة في الإسلام وعلاقتها بالدول الأخرىٰ دراسة تحليلية مقارنة بالفقه القانوني، جعفر عبد السلام، إصدارات رابطة الجامعات الإسلامية - سلسلة فكر المواجهة - العدد ٢١، ط٢، ١٤٢٧هـ، ص٦٤.

(٢) ومما جاء فيها: «وإن يهود بني عوف أمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتَغ - أي لا يُهلك- إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف...»، ثم أخذ ﷺ يُعَدِّد بُطون اليهود ويذكر لهم مثل ما ذكر لبني عوف، ثم كتب ﷺ: «وإن الله علىٰ أبرِّ هذا؛ وإن علىٰ اليهود نفقتهم وعلىٰ المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر علىٰ من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بَينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنَّ النصر للمظلوم، وإنَّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما دَاموا محاربين، وإن يَثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردّه إلىٰ الله عز وجل، وإلىٰ محمد رسول الله ﷺ، وإن الله علىٰ أتقىٰ ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر علىٰ من دَهم يثرب، وإنهم إذا دُعُوا إلىٰ صُلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك فإنه لهم علىٰ المؤمنين، إلا مَن حارب في الدين، علىٰ كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، علىٰ مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة»، انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٤٧.

غير المسلمين وأقام في دار الإسلام، أو أعطي العهد، فهو أحد مواطني الدولة الإسلامية[١]، له من الحقوق ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات ما عليهم، إلا ما كان خاصاً بالأمور الدينية.

وقد وصفت الصحيفة من شارك فيها على اختلاف دينهم وعرقهم ممن دخلوا في هذه الاتفاقية بأنهم أمة من دون الناس، وأنهم جماعة لديها اتفاق يخصها دون غيرها من الجماعات خارج المدينة.

وقد أكدت الصحيفة أيضاً مفهوم النصرة المتبادلة بين سكان المدينة مسلمين وغيرهم، فعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم[٢].

وتعرض الصحيفة في مواضع مختلفة أن الاحتكام حين التشاجر والاختلاف هو لله ورسوله، مما يعني تأكيد السيادة الشرعية.

ومن جانب آخر نظمت الصحيفة حقوق الجماعات والأفراد، فنصت على أن جميع أفراد الأمة متساوون في حق منح الجوار؛ لأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، غير أن الصحيفة قيدت هذا الحق بالنسبة للمشركين من أفراد الأمة بقولها: «وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن»؛ وذلك لأن مشركي قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين.

كما نصت الصحيفة لغير المسلمين الحق في حرية التدين، فقالت: (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم)[٣].

كما منحتهم حرية التصرف في مسائل الأحوال الشخصية حسب معتقدهم من زواج وطلاق وغيره.

وأما ما يتعلق بالطعام والشراب واللباس فيعاملون بشأنها حسب أحكام دينهم، وضمن النظام العام للدولة.

وإذا كانت النصوص الإسلامية قد أسندت المسؤولية الجزائية على كل مسلم بصفته

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٨/ ٤٢٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٤٧.
(٣) المصدر السابق.

الفردية، فكذلك شملت هذه القاعدة غير المسلمين، فجاء في الصحيفة: «إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ - أي يهلك - إلا نفسه».

وبذلك كان إطار الجماعة السياسية الجديدة في المدينة النبوية قائماً على أساس التعايش بين الأفراد والجماعات الإنسانية المتنوعة داخلها.

وهذا يتطابق مع مفهوم المواطنة القائم على فكرة العلاقة بين أفراد المجتمع السياسي للدولة، والتي تحتمها ضرورات تنوعهم وتعدد أطيافهم؛ مما يقتضي إيجاد رابطة تشملهم جميعاً يتعايشون من خلالها.

وبذلك عُدت صحيفة المدينة أول وثيقة نظمت العلاقة بين أفراد الجماعة السياسية، وضمنت الحقوق والواجبات على أرضية التعددية الدينية والعرقية، وهي تعتبر عقد مواطنة متقدماً على عصره بين رأس الدولة ومن معه من المسلمين، وبين سكان المدينة من أهلها الذين لم يدخلوا الإسلام بعد[1].

وهي بذلك قد أرست مبدأ الوطنية المبنية على العدل والحق والمساواة، وهي تمثل المثل الأعلى في شرف المواطنة وتقرير حقوق المواطنين جميعاً على أساس واضح من المساواة وتحمل المسؤوليات[2].

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار المواطنة في النظام الإسلامي مبدأ من المبادئ المهمة في الدولة الإسلامية، له استقلاليته وتفرده عن بقية المبادئ الموجودة اليوم.

فمبدأ المواطنة في النظام الإسلامي هو مبدأ له خصوصيته واعتباره، ولا يمكن مقارنته والتشبيه بينه وبين غيره من الأفكار، كما لا يمكن تعميم بعض المفاهيم التي تتعارض مع الثوابت الشرعية وجعلها ضمن المفهوم العام له.

ولابد أن تكون المواطنة في النظام الإسلامي منضبطة بالضوابط الشرعية التي أسست عليها، والتي تسير بمقتضاها.

فلا تعارض بين مفهوم المواطنة في النظام

(١) انظر: النظام السياسي في الإسلام، راشد عبدالرحمن العسيري، من كتاب: معالم الثقافة الإسلامية، ط١، ٢٠١٨، جامعة البحرين، ص ٢٦٧.

(٢) انظر: المواطنة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع والأمة، عبدالله محمد الطيار، بحث منشور على موقع الدكتور على شبكة الإنترنت، ص١٧.

الإسلامي والذي يعني الانتماء إلىٰ الوطن الذي ولد فيه الإنسان وحبه والدفاع عنه وبين الانتماء إلىٰ أمة الإسلام وحبها والذود عنها؛ ذلك أن حب الوطن لا يناقض حب المسلمين أينما كانوا؛ بل يكون متمماً له.

كما لا تعارض بين مفهوم المواطنة الذي يعني الانتماء إلىٰ الوطن وبين الأخوة الإيمانية للمسلمين في وطنهم، بل يعززها ويقويها.

كما لا تعارض بين مفهوم المواطنة وبين التعايش مع أبناء الوطن الواحد مهما كان دينهم أو عرقهم أو انتماؤهم، وفق الضوابط الشرعية.

المبحث الثالث

المواطنة وأهميتها في الخطاب الديني وأثرها في تعزيز الأمن المجتمعي

المطلب الأول

دور الخطاب الديني في حفظ أمن المجتمع

للخطاب الديني الوسطي أهمية كبرىٰ في الحفاظ علىٰ أمن المجتمع وتعميق الانتساب للدين والوطن، فهو يعد الموجه لكافة أفراد المجتمع، والبوصلة الحقيقة لوعيها وتقدمها.

ويؤدي الخطاب الديني الوسطي الملتزم بالثوابت الشرعية دوراً مهماً في تعزيز المواطنة لدىٰ أفراد المجتمع، وينشر ويرسخ قيم التسامح والحوار فيما بينهم، من خلال التأكيد علىٰ الثوابت الشرعية.

ومن بين أبرز المبادئ الأساسية التي يرسخها الخطاب الديني الوسطي المعتدل التأكيد علىٰ مبدأ المواطنة كمبدأ شرعي وديني له جذور إسلامية لا تتنافى مع الثوابت الإسلامية العليا، فالخطاب الديني الوسطي يعزز لدىٰ أفراد المجتمع مبادئ مهمة في هذا الإطار، من بينها:

أولاً: مبدأ الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، من خلال التأكيد علىٰ مبدأ الانتماء إلىٰ الأمة الإسلامية وتأكيد الأخوة الإيمانية بينهم.

ثانياً: مبدأ التعايش والمواطنة بين أبناء الوطن الواحد.

فلا تعارض بين هذه المبادئ الأساسية في بناء المجتمع وتقدمه وبين حاضر الأمة ومستقبلها وطريق تعايشها مع غيرها ومع انتمائها مع محيطها الإسلامي.

لـذا ينبغـي أن توضـع المواطنـة في إطارها الصحيح وفـق الخطاب الديني الوسـطي، فلا تبعـد عن المجتمع باعتبارهـا دخيلة علىٰ القيم الإسـلامية، ولا أن يبالـغ فيهـا حتـىٰ تصل إلىٰ مرحلـة التقديـس؛ فتتعدىٰ الضوابط الشـرعية وتعلو علىٰ الروابط الدينية الأخرىٰ.

فـإن وضـع المواطنـة في إطارهـا الصحيح ضمـن الخطـاب الدينـي الوسـطي المعتـدل يُسـهم في تقوية المجتمع، وينشر روح التسامح والتفاهـم والحـوار بين أفراده، ويعـزز الترابط فيما بينهم، ويبني مجتمعًا متماسـكًا، بتعدديته وتنوعه، ويسهم في تعزيز الأمن المجتمعي.

المطلب الثاني

سمات الوسطية في الخطاب الديني عند الكلام عن المواطنة

في ضـوء المفهوم الإسـلامي للمواطنة وما يتضمنـه مـن معطيات يمكن أن نحدد سـمات الخطـاب الديني المتعلـق بالمواطنة ودوره في تعزيز الأمن المجتمعي بين أفراد المجتمع علىٰ اختلاف أطيافه من خلال التأكيد علىٰ التالي:

أولاً: بيـان المفهـوم الصحيـح للمواطنـة المنطلق من التصور الإسـلامي والذي يتضمن التعايش بين مختلف أفـراد المجتمع في الدولة وبيـن أي مفهـوم آخـر، وبيان الفـرق بينه وبين الأخـوة الإيمانيـة مـع عمـوم المسـلمين أينما كانوا.

ثانيـًا: بيـان سـمات المواطنـة الفاعلـة والحقيقيـة حتىٰ يتمكـن المتلقي من الإسـهام الجـاد في خدمة مجتمعه ووطنـه وأمته وعالمه بناء علىٰ هذا المفهوم.

ثالثًا: تعزيز مفهوم الانتماء الصادق للوطن لدىٰ المتلقي بما لا يتناقض مع ولائه للإسـلام وانتسابه للأمة والتعايش مع أفراد مجتمعه.

رابعـًا: توعيـة المتلقـي بطبيعـة علاقته مع الآخرين، وبيان أهمية الوفاء بمتطلباتها في ضوء مبادئ الإسلام وقيمه العليا.

خامسـًا: تبصير المتلقي بحقوقه وواجباته تجـاه موطنـه بصورة خاصـة وأمته الإسـلامية بصورة عامة.

المطلب الثالث

المواطنة وأهميتها في نشر ثقافة الحوار والتسامح بين أفراد المجتمع وتحقيق الأمن المجتمعي

لترسيخ مفهوم المواطنة الصحيح وفق المنظور الإسلامي، ولتقوية المجتمع ونشر ثقافة التسامح بين أفراده وصولاً إلىٰ تحقيق الأمن المجتمعي ينبغي مراعاة الأمور التالية:

أولاً: التأكيد علىٰ المفهوم الإسلامي المتميز للوطن والمواطنة، النابع من حب الوطن والاعتزاز به وتميزه عن غيره من المفاهيم الأخرىٰ.

ثانياً: معالجة أشكال الانتماء والولاء السلبي للأرض أو القبيلة أو القوم أو الجنس.

ثالثاً: التأكيد علىٰ مبدأ التعايش بين أبناء الوطن الواحد مما يرسخ ثقافة الحوار والتسامح بين أفراد المجتمع.

رابعاً: علاج مظاهر الغلو والتزمت والتعصب الفكري وبيان أثره السلبي في نشر التسامح بين أفراد المجتمع.

خامساً: التأكيد علىٰ الجانب التطبيقي للمواطنة وحب الوطن والانتماء إليه والقائمة علىٰ الممارسات والأعمال وعدم الاكتفاء بمجرد الأقوال أو العواطف والمشاعر.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيه الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

فلقد تناولت في هذه الدراسة موضوع المواطنة وأهميتها في تعزيز الأمن المجتمعي وذلك ضمن محور دور الخطاب الديني في الحفاظ علىٰ أمن المجتمع وتعميق الانتساب للدين والوطن، وقد تناولت في المبحث الأول التعريف بمفردات البحث، فتناولت مفهوم المواطنة ومفهوم الأمن المجتمعي، وفي المبحث الثاني تناولت مبدأ المواطنة في النظام الإسلامي، واستعرضت الشواهد المؤيدة لهذا المبدأ، والتي ميزت المواطنة كمفهوم إسلامي بعيداً عن المفاهيم السائدة، وتناولت في المبحث الثالث المواطنة وأهميتها في الخطاب الديني وأثرها في تعزيز الأمن المجتمعي.

وقد توصلت في نهاية هذه الدراسة إلىٰ مجموعة من النتائج، من أهمها:

١- المواطنة في النظام الإسلامي تعني: صورة من صور التفاعل الإنساني بين أفراد المجتمع الواحد، القائمة على أساس الحقوق والواجبات والإخاء وحب الخير للناس والحرص على منفعتهم والتعاون معهم، وعلى التعايش فيما بينهم.

٢- يؤكد النظام الإسلامي على الانتماء الديني النابع من الأخوة الإيمانية بين المؤمنين.

٣- لا يعارض النظام الإسلامي الانتماءات الفرعية كالانتماء للوطن أو للقبيلة أو العشيرة أو العائلة بشرط أن لا تطغى على الانتماء الإيماني.

٤- أساس المواطنة بين المؤمنين في الدولة الإسلامية قائم على الأخوة الإيمانية.

٥- الانتماء الأكبر في النظام الإسلامي هو للأخوة الإيمانية بين المؤمنين مهما تباعدت الأوطان والبلاد.

٦- يتضمن مبدأ المواطنة في النظام الإسلامي مفهوم التعايش بين أفراد الوطن الواحد.

٧- تعد «صحيفة المدينة» التي أرساها النبي ﷺ أحد الأسس الشرعية لمبدأ المواطنة في النظام الإسلامي.

٨- إن الإسلام كدين عالمي لم يمنع ما فُطر عليه الناس من الانتماء الاجتماعي للأسرة، أو القبيلة، أو الوطن، ما دام منضبطاً بالضوابط الشرعية.

٩- إن النظام الإسلامي لا يتعارض مع اعتماد المواطنة كوحدة بناء للجماعة السياسية داخل البلد الواحد.

١٠- للخطاب الديني الوسطي أهمية كبرى في الحفاظ على أمن المجتمع وتعميق الانتساب للدين والوطن.

١١- يرسخ الخطاب الديني الوسطي لدى أفراد المجتمع مبادئ عظيمة، من أهمها: مبدأ الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، ومبدأ الانتماء إلى الأمة الإسلامية وتأكيد الأخوة الإيمانية بينهم، ويؤكد على مبدأ التعايش والمواطنة بين أبناء الوطن الواحد.

١٢- يقع على عاتق الخطاب الديني إيضاح المفهوم الصحيح للمواطنة المنطلق

من التصور الإسلامي، بعيداً عن المفاهيم الأخرىٰ.

١٣- يقع علىٰ عاتق الخطاب الديني الوسطي تعزيز مفهوم الانتماء الصادق للوطن بما لا يتناقض مع ولائه للإسلام وانتسابه للأمة.

١٤- للخطاب الديني الوسطي دور في التأكيد علىٰ نشر ثقافة الحوار والتسامح بين أفراد المجتمع لتحقيق الأمن المجتمعي.

١٥- للخطاب الديني الوسطي دور في التأكيد علىٰ الجانب التطبيقي للمواطنة وحب الوطن والانتماء إليه، القائم علىٰ الممارسات والأعمال وعدم الاكتفاء بمجرد الأقوال أو العواطف والمشاعر.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبيه الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊ ❊

الوعد الملزم في العقود المصرفية وعلاقته بالمخاطرة
(دراسة على عقدي بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة المنتهية بالتمليك)

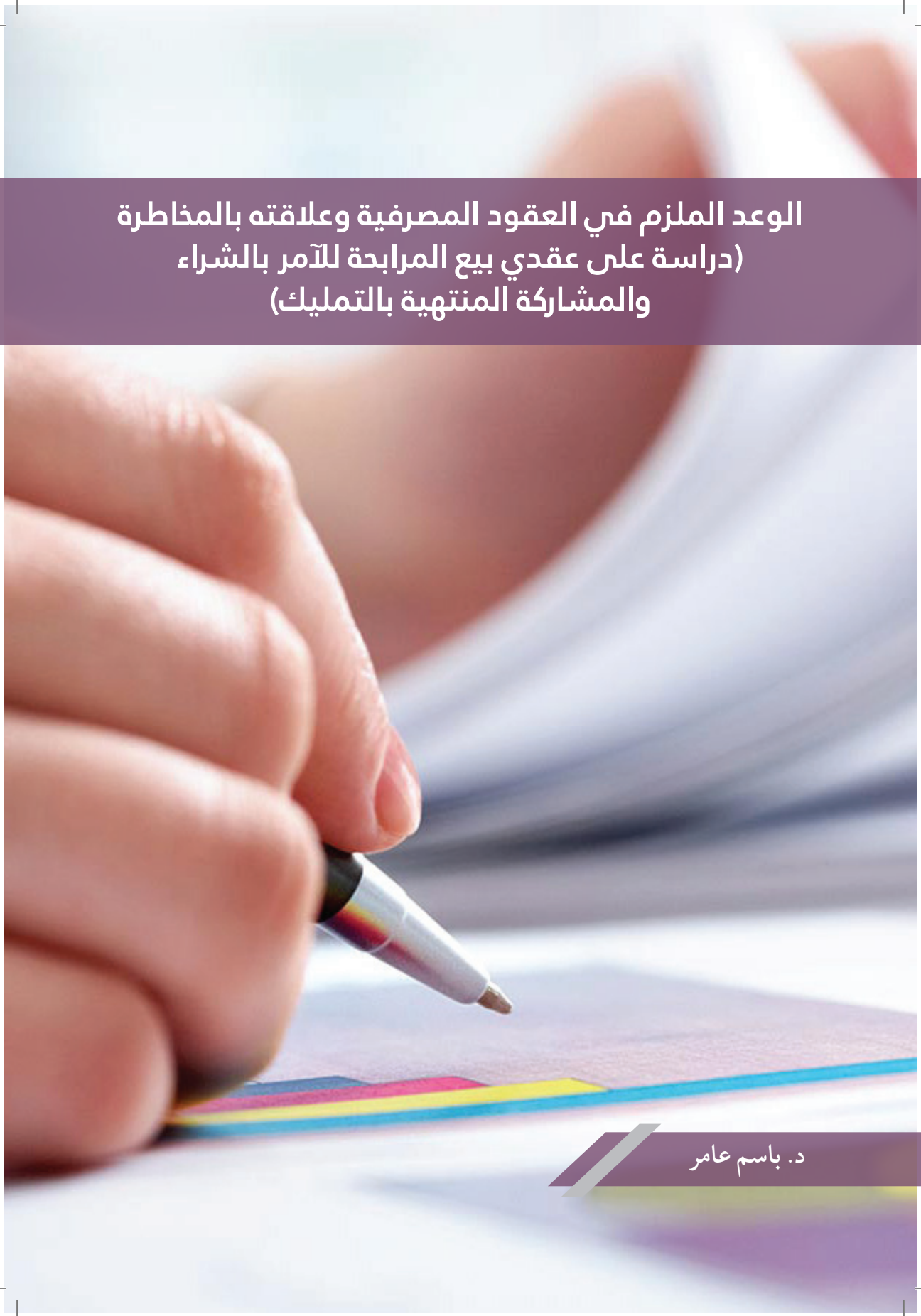

د. باسم عامر

ملخص البحث:

يتناول البحث موضوع الوعد الملزم وأثره في العقود المصرفية الإسلامية، وبالتحديد في عقدي بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة المنتهية بالتمليك (المشاركة المتناقصة)، وسيتناول الباحث أثر الوعد الملزم في هذه العقود من حيث وجود المخاطرة من عدمها، حيث يُلاحظ أن المصارف الإسلامية لكي تتخلص من عنصر المخاطرة الذي هو أساس مهم في معظم العقود المالية المصرفية تلجأ إلىٰ الوعد الملزم في تعاملاتها مع العملاء، فأصبح ربح المعاملات المالية المصرفية شبه مضمون للمصارف بسبب هذا الوعد الملزم، مما جعل كثيراً من الباحثين في مجال الصيرفة الإسلامية يعيدون النظر في الحكم الشرعي لتلك المعاملات بسبب مشابهتها للبنوك التقليدية من ناحية ضمان الفوائد والأرباح من جهة المصرف علىٰ حساب العميل.

الكلمات المفتاحية: الوعد الملزم، المخاطرة، العقود المصرفية، المرابحة، المشاركة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ خير المرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من الموضوعات التي كثر النقاش حولها موضوع الوعد ومدىٰ جواز إلزاميته، ومن ثم مشروعية استخدامه في العقود المصرفية التي تبرمها المصارف الإسلامية، بحيث يمكن للمصرف من خلال هذا الوعد أن يجنب نفسه خسائر مستقبلية ومخاطر متوقعة.

سيتناول هذا البحث مفهوم الوعد ومشروعية إلزاميته ديانةً وقضاءً، ومفهوم المخاطرة وعلاقتها بالعقود المالية في الفقه الإسلامي، ثم دراسة عقدين من العقود المصرفية التي يتضمنها الوعد، وهما: بيع المرابحة للآمر بالشراء، والمشاركة المنتهية بالتمليك، وعلاقة هذين العقدين بالمخاطرة بعد إدخال عنصر الوعد الملزم فيهما.

وقد اشتملت الدراسة علىٰ مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة علىٰ النحو الآتي:

* مقدمة
* المبحث الأول: مفهوم مصطلحي الوعد والمخاطرة
* المبحث الثاني: المخاطرة وعلاقتها بعقود المعاوضات المالية الإسلامية
* المبحث الثالث: حكم الوعد من حيث اللزوم وعدمه
* المبحث الرابع: المخاطرة في عقدي بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة المنتهية بالتمليك مع وجود عنصر الوعد الملزم فيهما
* خاتمة

مشكلة البحث:

يناقش البحث ظاهرة قد أخذت في الانتشار والتقنين بين المصارف الإسلامية وهي مسألة الوعد الملزم في العقود المصرفية، حيث بمجرد أن يوقع العميل على استمارة الوعد يكون المصرف قد ضمن ربحًا مؤكداً قبل وجود العقد وتوابعه، وهذا في ظاهره يتعارض مع القواعد الشرعية التي نصت على أهمية المخاطرة في عقود المعاوضات عموماً.

فتحاول الدراسة من خلال دراسة نموذجين من العقود المصرفية الإجابة عن سؤال: هل للمخاطرة وجود في المصارف الإسلامية حينما يقترن الوعد الملزم بعقودها المصرفية ؟

فرضية البحث:

ينطلق البحث من فرضية أساسية وهي: أن التجارة عموماً وعقود المعاملات المصرفية خصوصاً لا بد وأن تخضع للقواعد الشرعية والمبادئ الأساسية لفقه المعاملات المالية، ومن تلك القواعد قاعدة المخاطرة (استحقاق الربح في مقابل تحمل الخسارة)، كمعيار هام لصحة العقود المصرفية.

منهجية البحث:

اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التحليلي، وهو الأسلوب العلمي المناسب لهذا الموضوع، والذي من خلاله يمكن التوصل إلى الأهداف المرجوة من هذا البحث.

أهداف البحث وأهميته:

يهدف البحث إلى إبراز أهمية عنصر

المخاطرة في عقود المعاوضات المالية في المصارف الإسلامية، فكما هو معلوم أن المعاوضات المالية كالبيوع والمشاركات وسائر التجارات معرضة للربح والخسارة، وهذا ما يعبر عنه بـ (المخاطرة)، إلىٰ درجة أن هناك شبه تلازم بين تلك العقود وبين المخاطرة، ومن هنا تأتي أهمية البحث في تجلية هذا الجانب الهام والدقيق في معاملات المصارف الإسلامية.

المبحث الأول: مفهوم مصطلحي الوعد والمخاطرة:

أولاً: الوعد:

الوعد لغة: يقال: وعد كل منهما الآخر، أي: عاهده علىٰ أن يوافيه في وقت معين وفي موضع معين[١].

والوعد قد يكون بمعروف، كقرض حسن أو تمليك عين أو منفعة مجانًا للموعود، وقد يكون بصلة أو بر أو مؤانسة كعيادة مريض وزيارة صديق وصلة رحم ومرافقة في سفر ومجاورة في سكن، وقد يكون بنكاح كما في خطبة النساء، وقد يكون بمعصية كما إذا وعد شخصًا بمعونة علىٰ شرب خمر أو فعل فاحشة أو إتلاف مال ظلمًا وعدوانًا ونحو ذلك[٢].

ثانيًا: المخاطرة:

المخاطرة لغة: من الخطر بفتحتين، الإشراف علىٰ الهلاك وخوف التلف، ويقال: هذا أمر خطر، أي: متردد بين أن يوجد وأن لا يوجد، ويطلق علىٰ السبق الذي يتراهن عليه، والمخاطرة المراهنة، وخاطرته علىٰ مال راهنته عليه[٣].

أما في الاصطلاح فقد ترد المخاطرة بمعنىٰ مقبول شرعًا بل مطلوب في باب التجارة ونحوها، وقد ترد بمعنىٰ مذموم منهي عنه في الشرع كما في الميسر والقمار، يقول ابن القيم: «المخاطرة مخاطرتان: مخاطرة التجارة، وهو أن يشتري السلعة بقصد أن يبيعها ويربح ويتوكل علىٰ الله في ذلك، والخطر الثاني: المَيْسِر الذي يتضمن أكل المال بالباطل...»[٤]، ويقول

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص ٦٧٤.
(٢) معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، نزيه حماد، ص ٣٥٢.
(٣) الموسوعة الفقهية، مادة خَطَر، جزء ١٩.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد، جزء ٥، ص ٨١٦.

ابـن مفلح مؤكداً المعنىٰ الأول الذي ذكره ابن القيم: «أمّا مخاطرة التجارة، فيشـتري السـلعة بقصد أن يبيعها بربح، ويتوكل علىٰ الله في ذلك، فهذا الذي أحله الله»[1].

فيمكـن أن يقال: بأن الفقهاء قد اسـتخدموا مصطلح المخاطرة بمعنيين متناقضين، الأول: بمعنىٰ مباح، والآخر: بمعنىٰ محرم:

أمّا الاسـتخدام المباح فكان بمعنىٰ: تحمل نتائج الاستثمار ربحًا أو خسارة، أو تحمل نتائج العملية التجارية أو المضاربة ربحًا أو خسـارة، وبمعنىٰ التقابل والتلازم بين المغارم والمغانم، وبمعنىٰ التكافؤ بين المغانم والمغارم، وأحيانًا اسـتخدموا عبارة: (مخاطر اسـتمرار الملك)، مؤكدين لمبـدأ التقابـل والتكافؤ بيـن المغارم والمغانـم؛ فالجهـة المتحملـة للمغـارم ينبغي أن تكـون هي ذات الجهة المسـتحقة للمغانم، والخـراج بالضمـان بمعنىٰ: يسـتحق الربح أو الناتج بالاستعداد لتحمل الخسائر.

أما المعنىٰ المحرم المناقض للمعنىٰ الأول، فقـد اسـتخدم الفقهـاء كلمـة مخاطـرة بمعنىٰ يترادف مع معنىٰ الغـرر والقمار، وهذا المعنىٰ معاكـس تمامًـا للمعنـىٰ الأول؛ وبينمـا يقـرر المعنـىٰ الأول لكلمـة المخاطرة مبـدأ التعادل والتكافؤ والتقابل بيـن المغارم والمغانم، وهو ذات المبـدأ الـذي يقـرر اسـتحقاق الربـح بما يتقابـل مـع الاسـتعداد لتحمـل نتائـج العملية الاسـتثمارية، فإنّ المعنىٰ الثاني لكلمة مخاطرة كما جـاء في الاسـتخدام الفقهي غالبًـا يعاكس تمامًـا ما تقـدم، فالغـرر والقمار يخـلان بمبدأ التكافؤ الـذي يقرره المعنىٰ الأول، فالمخاطرة بهـذا المعنـىٰ (أي الغـرر والقمـار): أن يَسْـلَم لأحد المتعاقدين العوض، بينما يكون العوض الآخر مترددًا بين السـلامة والعطب؛ أو بين أن يحصل عليـه وبين ألا يحصل عليـه، ومناقضة هذا المعنىٰ للمعنىٰ الأول تأتي عندما لا يحصل الطرف الثاني علىٰ شـيء؛ فـكان ما حصل عليه الطـرف الأول غيـر مقابل بشـيء؛ فـكان أكلًا للمـال بالباطـل وإخـلالًا لمبـدأ التكافـؤ بيـن العوضين، وكان داخلًا في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقـرة: ١٨٨]، وهـذا المعنىٰ موجـود في القمار؛ إذ قد يحصـل أحدهم علىٰ العـوض وقد لا يحصل، وهو محـرم بالنـص الظاهر، وحكمـة تحريمه

(١) ابن مفلح، الفروع، ج ٦، ص ١٤٧.

عدم التكافؤ بين الثمن والمثمن[١].

خلاصة ما سبق فيما يتعلق بالمعنىٰ الاصطلاحي، أن المراد بالمخاطرة في هذا البحث المعنىٰ الأول وهو مخاطرة التجارة وما يصاحبها من ربح وخسارة بسبب تقلبات الأسعار وتحولات السوق ونحوها.

المبحث الثاني: المخاطرة وعلاقتها بعقود المعاوضات المالية الإسلامية:

من خلال التأمل في جزئيات الشريعة وفروعها الفقهية يلاحظ أن المخاطرة (احتمال الربح والخسارة) مؤشر مهم في الحكم علىٰ العقود المالية بالصحة أو البطلان.

فكما هو مقرر في الفقه الإسلامي أن الشخص يستحق الربح بالعمل أو بالمخاطرة، أما العمل فظاهر، وأما المخاطرة فتتمثل باستحقاقه أرباح التجارة في مقابل تحمل خسارتها، وهو ما عبر عنه الفقهاء بقولهم: (الخراج بالضمان)[٢]، وقولهم: (الغنم بالغرم)[٣]، وهذه القاعدة وما في معناها تقرر العدل في المعاملات، إذ لا يصح أن يضمن الإنسان لنفسه مغنماً ويلقي الغرم علىٰ عاتق غيره، وتتضح أهمية هذه القاعدة عند تطبيقها في المعاملات المالية الإسلامية، ويتجلىٰ الظلم في النظم الغربية عندما يعيش المدخرون علىٰ عوائد مدخراتهم دون أن يخاطروا باستثمارها، أو دون أن يقدموا أي عمل؛ أي ينالون مغنماً دون مغرم، أو حسب التعبير الاقتصادي: يمكنهم الحصول علىٰ عوائد دون مخاطرة اقتصادية[٤].

وقد جاءت أدلة من الشرع تثبت صحة هذا المبدأ، فمن ذلك نهي الرسول الله ﷺ عن ربح ما لم يضمن، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (لا يحل سلف وبيع، ولا شرطان في بيع، ولا ربح ما لم يُضمن، ولا بيع ما ليس عندك)[٥]، وقد جاء في شرح قوله ﷺ: (ولا ربح ما لم يُضمن) أنّ الربح في كل شيء إنما يحل لو كان الخسران

(١) انظر: نظرية المخاطرة في الاقتصاد الإسلامي، عدنان عويضة، ص ٢٠.
(٢) أصل هذه القاعدة نص حديث نبوي شريف، رواه أبو داود برقم (٣٥٠٨)، والترمذي (١٢٨٥)، والنسائي (٤٥٠٢)، وابن ماجه (٢٢٤٢)، والدارقطني (٣/ ٥٣)، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٣) مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية، محمد رواس قلعه جي، ص ١١٢.
(٤) انظر: نظرية المخاطرة في الاقتصاد الإسلامي، عدنان عويضة، ص ٣٢.
(٥) رواه الترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح، برقم (١٢٣٤).

عليه، فإن لم يكن الخسران عليه كالبيع قبل القبض إذا تلف، فإنّ ضمانه على البائع[١].

وإذا كانت المخاطرة تبيح الربح، فإن الخطر كلما عظم وازداد ازداد معه الربح، فالربح يتناسب مع درجة الخطر الذي تتعرض له السلعة للتلف أو العطب، وازدياد الربح يعني ارتفاع قيمة السلعة، فالخطر إذًا يشكل أساسًا من أسس تقدير قيمة الأشياء، وعاملًا من عوامل ارتفاع السعر وانخفاضه[٢].

وهكذا يتضح بكل جلاء تأكيد الفقهاء على أهمية التكافؤ في المقابلة بين المغنم والمغرم، فالتشريع المالي يقوم على مبدأ المقابلة، والتكافؤ في المقابلة، وعلى وجه الخصوص والعناية، فإنّ هناك نوعًا مخصصًا من التكافؤ يرعاه التشريع المالي ويؤكده الفقهاء، هو مقابلة المغنم (العائد) بالمغرم (المخاطرة)، وإنّ غياب المخاطرة لا يطيب معه الربح، بينما يطيب الربح بوجود المخاطرة، فالمخاطرة يقابلها الربح، بل هناك تكافؤ في هذه المقابلة؛ فعلى قدر المخاطرة يكون الربح، ويحكم هذا التكافؤ علاقة طردية موجبة، ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ استحقاق المضارب لجميع الربح إذا شرط عليه رب المال الضمان، إنّما سببه انقلاب العلاقة بين المضارب ورب المال إلى علاقة مقترض بمقرض، وما عادت مضاربة، حيث يستحق المقترض جميع الربح؛ لأنّه يتحمل وحده مخاطر المال، بينما لا يستحق المقرض شيئًا من الربح لغياب المخاطرة، وهي حكمة تحريم الربا، والمخاطرة ليست مقصداً شرعياً؛ أي: أنّها لا تراد لذاتها، لكنّها معيار السلامة الشرعية لاستحقاق الربح؛ كونها ترتبط بالعمل الإيجابي وتحقق التعادل بين أطراف التعامل[٣].

مما سبق يتبين أن المخاطرة تعد معيارًا هامًا لصحة عقود المعاوضات المالية في الفقه الإسلامي، وحيثما انتفت المخاطرة من العقد المالي استدعى ذلك مراجعة المعاملة من حيث أصلها، والنظر فيها من جديد من الناحية الفقهية.

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، ج٤، ص ٣٦١.
(٢) انظر: مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية، (مرجع سابق)، ص ١١٢.
(٣) انظر: نظرية المخاطرة في الاقتصاد الإسلامي، عدنان عويضة، ص ٥٧.

فهل التطبيقات العملية للوعد الملزم في العقود المالية المعاصرة في المصارف الإسلامية تتضمن المخاطرة أو تخلو منها ؟

هذا ما سيتم الإجابة عنه في المباحث القادمة.

المبحث الثالث: حكم الوعد من حيث اللزوم وعدمه:

مسألة الإلزام بالوعد من المسائل التي تندرج تحت النصوص الشرعية الآمرة بالوفاء بالوعد أو الناهية عن الإخلاف بالوعد، لكن هل هذا يعني أن الإلزام يكون ديانة أو قضاءً ؟

تحرير محل النزاع:

هذه المسألة فيها جوانب متفق عليها، وأخرىٰ جرىٰ فيها الخلاف بين أهل العلم، وذلك كالآتي:

أولًا: الوعد بشيء محرم لا يجوز الوفاء به إجماعًا، سواء كان ديانة أم قضاء.

ثانيًا: الوعد بشيء واجب علىٰ الواعد يجب الوفاء به إجماعًا، وأما من ناحية الوفاء قضاءً فذلك يرجع إلىٰ نوع الواجب.

ثالثًا: من وعد بأمر مباح فلا خلاف في أنه يُستحب الوفاء به[1].

رابعًا: محل النزاع في وجوب الوفاء بوعد علىٰ أمر مباح، فهل يلزم به ديانة؟ وهل يمكن أن يلزم به قضاء؟

أولًا: حكم الإلزام بالوعد ديانة:

اختلف العلماء في مسألة حكم الإلزام بالوعد في الأمور المباحة ديانة علىٰ قولين:

القول الأول: أن الوفاء بالوعد مستحب وليس بواجب، وهو رأي الحنفية والشافعية والحنابلة والظاهرية والمالكية (فيما إذا كان الوعد مجردًا)[2].

واستدلوا ببعض الأدلة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي فلم يف ولم يجيء للميعاد فلا إثم

(١) المحلىٰ بالآثار، ابن حزم، جزء ٦، ص ٢٧٨.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص ٢٨٨، روضة الطالبين، النووي، (٥/ ٣٩٠)، المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح، (٩/ ٣٤٥)، الفروق، القرافي، (٤/ ٢١).

عليه)[1]، وجه الدلالة: أنه لو كان الوفاء بالوعد واجبًا لما قال ذلك، وأجيب أن الحديث ضعيف ولا يثبت.

القول الثاني: أن الوفاء بالوعد واجب بحيث يحرم إخلافه بلا عذر، وهو قول عند الحنابلة، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[2].

واستدلوا بأدلة كثيرة، منها وأقواها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، فهذه الآية ذمت من يقول ما لا يفعل، واستدلوا كذلك بقول النبي ﷺ: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[3]، فبين الرسول ﷺ أن إخلاف الوعد علامة علىٰ النفاق، مما يدل بلا ريب علىٰ أن الوفاء به واجب، وإخلافه محرم.

ولعل الراجح هو القول بوجوب الوفاء بالوعد ديانة، وهذا ما تدل عليه ظواهر النصوص الشرعية من الكتاب والسنة.

ثانيًا: حكم الإلزام بالوعد قضاء:

اختلف الفقهاء في مسألة لزوم الوعد قضاء علىٰ أربعة أقوال مشهورة، وهي كالآتي:

القول الأول: ذهب جمهور الفقهاء إلىٰ القول بأن الوعد غير ملزم قضاء[4]، فمن وعد آخر بأن يعطيه مالًا، سواء كان معينًا أم غير معين، فإن الأفضل ديانة الوفاء بما وعد، ولا يجبر القضاء علىٰ الوفاء؛ وذلك لأن الوعد عقد تبرع، والتبرعات غير لازمة كما في عقد الهبة.

القول الثاني: ذهب بعض الفقهاء إلىٰ أن الوفاء بالوعد واجب مطلقًا، أي ديانة وقضاءً، فيقضىٰ به علىٰ الواعد، ويجبر علىٰ الوفاء به، وهذا الرأي مشهور عن أحد فقهاء المالكية وهو ابن شبرمة[5]، واختار هذا القول بعض

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٩٥)، والترمذي (٢٦٣٣).

(٢) انظر: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي، (١١/ ١٥٢)، الاختيارات الفقهية من فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، البعلي، ص ٣٣١.

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: القبض والإلزام بالوعد في عقد المرابحة للآمر بالشراء، كمال حطاب، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الخامس، ص ٢٤٠.

(٥) نقله عنه ابن حزم في المحلىٰ بالآثار بقوله: «قال ابن شبرمة: الوعد كله لازم، ويقضىٰ به علىٰ الواعد ويجبر»، انظر: المحلىٰ لابن حزم (٨/ ٢٨).

العلمـاء المعاصرين[١]، وبه صـدر قرار مؤتمر المصـرف الإسـلامي الأول المنعقـد بدبي[٢]، وقرار مؤتمر المصرف الإسلامي الثاني المنعقد بالكويـت[٣]، وبعض الهيئات الشـرعية للبنوك الإسلامية[٤].

القـول الثالث: ذهب المالكية في المشـهور والراجـح عندهـم أن الوفاء بالوعـد واجب إذا كان مرتبطًا بسـبب ودخل الموعود في السبب، أي أن الوعـد إذا كان مرتبطًـا بسـبب ثم باشـر الموعـود السـبب معتمـدًا علىٰ وعـد الواعد، فإن الواعد يكون ملزمًا بالوفاء بوعده، ويقضىٰ عليـه بذلك الوعـد، كأن يقول رجـل لصديقه: تزوج ومهرك عليَّ، ثم قام صديقه بالشـروع في الزواج اعتمادًا علىٰ ذلك الوعد.

وهـذا الـرأي صـدر بـه قـرار مجمـع الفقه الإسـلامي، حيث جـاء فيه: الوعـد وهو الذي يصـدر من الآمر أو المأمـور علىٰ وجه الانفراد يكـون ملزمًا للواعد ديانـة إلا لعذر، وهو ملزم قضـاء إذا كان معلقًا بسـبب ودخل الموعود في كلفة نتيجة الوعد[٥].

القول الرابع: ذهب بعض فقهاء المالكية[٦] أن الوفاء بالوعد واجب ويقضىٰ به علىٰ الواعد إذا كان الوعـد علىٰ سـبب، حتىٰ لـو لم يدخل الموعـود في السـبب، وعلـىٰ هـذا القـول فإن الوعد المجرد عن السـبب يكون غير لازم، ولا يقضىٰ علىٰ الواعد به ولا يجبر.

أبرز أدلة القائلين بعدم لزوم الوعد قضاء:

الدليـل الأول: حديـث عطـاء بن يسـار أن رجـلًا قـال لرسـول الله ﷺ: أكـذب لامرأتي ؟ فقال رسـول الله ﷺ: لا خير في الكذب، فقال: أفأعدهـا، وأقول لها ؟ فقال رسـول الله ﷺ: لا جناح عليك[٧].

(١) انظر: المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، عبد الرزاق الهيتي، ص٥٢٤.
(٢) عقد في جمادىٰ الآخرة ١٣٩٩ هـ، وحضره تسعة وخمسون عالمًا، انظر: المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، عبد الرزاق الهيتي، ص٥٢٥.
(٣) عقد في جمادىٰ الآخرة ١٤٠٢ هـ، وشاركت فيه اثنا عشر مؤسسة مالية إسلامية، انظر: المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، عبد الرزاق الهيتي، ص٥٢٥.
(٤) الهيئة الشرعية لبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وغيرهم، انظر: الخدمات الاستثمارية في المصارف وأحكامها في الفقه الإسلامي، يوسف الشبيلي، ص ٣٩٧.
(٥) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الخامس، ج ٢، ص ١٥٥٩.
(٦) نقلًا عن: كمال حطاب، القبض والإلزام بالوعد في عقد المرابحة، ص ٢٤١.
(٧) انظر: التمهيد، ابن عبد البر، (٣/ ٢٠٧).

وجه الدلالة: أن الحديث يدل على أنه لا يجب الوفاء بالوعد، إذ سؤاله عن الكذب ونهي النبي ﷺ عنه، ثم سؤاله عن الوعد يدل على أنه يريد السؤال عن إخلاف الوعد، فأجابه النبي ﷺ بنفي الحرج عنه.

وأجيب بأنه مخصوص بالعلاقة بين الزوجين، وقد رخص النبي ﷺ بالكذب فيه ومنه إخلاف الوعد[1].

الدليل الثاني: أن النبي ﷺ قال: (إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي فلم يف ولم يجيء للميعاد فلا إثم عليه)[2].

وجه الدلالة: ظاهر أن النبي ﷺ رفع الإثم عن مخلف الوعد، ولو كان الوفاء بالوعد واجبًا لما قال ذلك.

الدليل الثالث: أن المتبرع لا يلزمه إتمام تبرعه قبل قبضه، فمن وهب شخصًا شيئًا ثم رجع فيه قبل قبضه فله ذلك، فإذا كان المتبرع لا يلزمه قبل قبضه فمن باب أولى أن لا يلزمه الوعد بالتبرع[3].

أدلة القائلين بلزوم الوعد قضاء:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وجه الدلالة: ذم الله تبارك وتعالى لمن يقول ما لا يفعل، إذ أخبر سبحانه وتعالى أنه يمقت ذلك، والمقت أعظم البغض، ولا يكون مثل ذلك إلا على ترك واجب أو فعل محرم، وإخلاف الوعد من قبيل هذا فيشمله الوعيد[4].

الدليل الثاني: قوله ﷺ: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[5].

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ نص على أن إخلاف الوعد علامة من علامات النفاق، مما يدل بلا ريب على أن الوفاء به واجب، وإخلافه محرم.

(١) انظر: الوفاء بالوعد، ضمن بحوث مجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد ٥، ج ٢، ص ٨٥٣.
(٢) أخرجه أبوداود برقم (٤٩٩٥)، والترمذي (٢٦٣٣).
(٣) المبدع شرح المقنع، ابن مفلح، (٩/ ٣٤٥).
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، (٤/ ٣٠٤).
(٥) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

الدليل الثالث: ولأن في الإلزام بالمواعدة منعًا من الإضرار بالطرفين، وبترك الإلزام إضرار بأحدهما غالبًا، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (لا ضرر ولا ضرار)[١]، ومن القواعد الشرعية المحكمة أن الضرر يزال، فقد تقع المواعدة على سلعة نادرة في السوق وقل من يطلبها، فإذا نكل الواعد عن شرائها بعد أن يحضرها المصرف فقد لا يتمكن المصرف من تصريفها، والأمر كذلك بالنسبة للآمر فقد يتسبب تخلف المصرف عن الالتزام له في الإخلال بتعهدات كان قد أوجبها لغيره، ولا سبيل لرفع هذا الضرر إلا بالقول بالإلزام بالوعد[٢].

مناقشة أدلة الفريقين:

أدلة الفريق الأول القائلين بعدم لزوم الوعد قضاء:

نوقش حديث عطاء بن يسار بأنه حديث مرسل لا يصح الاحتجاج به كما ذكر ذلك الإمام ابن عبد البر في الاستذكار[٣].

وأما الحديث الثاني فقد حكم أهل الحديث على سنده بالضعف، فبالتالي لا حجة فيه[٤].

وأما الدليل الثالث فنوقش بأن الكلام ليس في إتمام التبرع المجرد عن وعد، بل الخلاف في حكم الوفاء بالوعد، وعليه فالتبرع الناشئ عن وعد يجب الوفاء به وإتمامه، ولا يجوز الرجوع فيه[٥].

مناقشة أدلة الفريق الثاني القائلين بلزوم الوعد قضاء:

أن النصوص الشرعية التي ذمت الإخلاف في الوعد إنما المقصود منها عند الفقهاء المتقدمين هو الوعد بالمعروف، أما الوعد في المعاوضة فلم يقل أي منهم بلزوم الوفاء به؛ لأنه يصير حينئذ عقداً، فالاستدلال بكلامهم على هذه المسألة استدلال في غير محله[٦].

وأما قولهم أن في الإلزام بالمواعدة منعًا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٢٤٠٧)، وهذا الحديث يعد عند الفقهاء من القواعد الفقهية الكلية.
(٢) انظر: الخدمات الاستثمارية في المصارف وأحكامها في الفقه الإسلامي، يوسف الشبيلي، ج ٢، ص ٤٠٢.
(٣) انظر: الوفاء بالوعد، ضمن بحوث مجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد ٥، ج ٢، ص ٨٥٣.
(٤) قال الترمذي: وليس إسناده بالقوي، (٥/ ٢٠).
(٥) انظر: بيع التقسيط وأحكامه، عبد المحسن التركي، ص ٤٤٩.
(٦) انظر: بيع المرابحة كما تجريه البنوك الإسلامية، محمد الأشقر، ص٣٢.

من الإضرار بالطرفين، وبترك الإلزام إضرار بأحدهما غالبًا، فيجاب بأن هذا هو سبيل التجارة المشروعة، بأن يتحمل التاجر قدرًا من المخاطرة، وهذا هو الفارق بين الربح المشروع والربح الربوي، وبأن الإلزام بالوعد لم يتعين طريقًا وحيدًا لرفع الضرر، فمن الممكن أن يشتري المأمور السلعة بشرط الخيار، وهي الحيلة التي ذكرها محمد بن الحسن وابن القيم[1].

الراجح:

لعل من خلال النظر في الأقوال الأربعة في المسألة فإنه يترجح لدىٰ الباحث القول القائل بوجوب الوفاء بالوعد إذا كان مرتبطًا بسبب ثم باشر الموعود السبب معتمدًا علىٰ وعد الواعد، فإن الواعد في هذه الحالة يكون ملزمًا بالوفاء بوعده، ويقضىٰ عليه بذلك الوعد، وهذا هو المشهور والراجح في مذهب المالكية، وهو الذي صدر به قرار مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورته الخامسة كما سبق بيانه، وسبب ترجيح هذا الرأي هو الجمع بين أدلة القائلين بلزوم الوفاء بالوعد قضاء وبين أدلة القائلين بعدم لزوم الوفاء بالوعد قضاء، فإنه من القواعد الأصولية أنه إذا أمكن الجمع بين الأدلة فإن ذلك مقدم علىٰ ترجيح دليل علىٰ آخر، والله أعلم.

المبحث الرابع: المخاطرة في عقدي بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة المنتهية بالتمليك مع وجود عنصر الوعد الملزم فيهما:

مع انتشار المصارف الإسلامية في سائر البلاد ظهرت مسألة الوعد الملزم في العقود المصرفية وصيغ التمويل الإسلامية، ولعل من أهم هذه العقود وأشهرها بيع المرابحة للآمر بالشراء والمشاركة المنتهية بالتمليك.

في هذا المبحث نلقي الضوء علىٰ بعض هذه التطبيقات وأثر إلزامية الوعد فيها من حيث وجود المخاطرة فيها من عدمها.

أولاً: بيع المرابحة للآمر بالشراء:

مفهوم بيع المرابحة للآمر بالشراء:

مصطلح بيع المرابحة للآمر بالشراء ظهر منذ فترة وجيزة، وإن كان له أصل في كتب الفقهاء المتقدمين، حيث كان معروفًا ببيع

(١) انظر: الخدمات الاستثمارية في المصارف وأحكامها في الفقه الإسلامي، يوسف الشبيلي، ج ٢، ص ٤٠٢.

المرابحة، وفي هذا العصر تم تطويره ليصبح بهذه الصيغة، ولعل أول من قام بتسميته بهذا الاسم هو د. سامي حمود في رسالته العلمية المقدمة لنيل الدكتوراه[١].

صور بيع المرابحة للآمر بالشراء المطبقة في المصارف الإسلامية:

الصورة الأولىٰ:

وهي المتداولة في معظم المصارف الإسلامية، حيث يتقدم العميل إلىٰ المصرف طالبًا منه شراء سلعة معينة بالمواصفات التي يحددها هو، وعلىٰ أساس الوعد من قبله بشراء تلك السلعة مرابحة، بنسبة محددة يتفق عليها، بعد ذلك يقوم المصرف بشراء تلك السلعة وتملكها، ومن ثم يقوم بعرضها علىٰ العميل الذي أمر بشرائها، وعلىٰ العميل الالتزام بشرائها بناء علىٰ وعده المسبق[٢].

الصورة الثانية:

وهي شبيهة بالصورة الأولىٰ، إلا أنها تقوم علىٰ أساس عدم الإلزام بالوعد لأي من المتعاقدين العميل أو المصرف[٣].

وبالنسبة للصورة الأولىٰ فإن بعض المصارف تلتزم ببيع السلعة للعميل، أي يكون الوعد ملزمًا للطرفين المصرف والعميل، وبعضها تقوم علىٰ أساس الإلزام لأحد الطرفين المصرف أو العميل.

هذه هي صورة بيع المرابحة للآمر بالشراء، وقد لاحظنا أثر الوعد الملزم فيها سواء بالنسبة للمصرف أو للعميل[٤].

المخاطرة في بيع المرابحة للآمر بالشراء المقترن بالوعد الملزم وغير الملزم:

بعيدًا عن الترجيحات الفقهية في مسألة حكم المرابحة المصرفية، فإن البحث هنا منصب علىٰ إظهار أوجه المخاطرة المعتبرة شرعًا في بيع المرابحة للآمر بالشراء.

وكما تبين سابقًا أن الوعد في بيع المرابحة للآمر بالشراء إما أن يكون ملزمًا للطرفين، أو

(١) انظر: بيع المرابحة للآمر بالشراء، حسام الدين عفانة، ص ٢٧.
(٢) انظر: المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، عبد الرزاق الهيتي، ص ٥١٤.
(٣) انظر: بيع المرابحة للآمر بالشراء، حسام الدين عفانة، ص ٣٥.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٦.

ملزمًا لطرف دون آخر، أو غير ملزم لأي من الطرفين.

لذا سنرىٰ وجه المخاطرة في كل حالة من هذه الحالات الثلاث علىٰ حدة:

١- أن يكون الوعد ملزمًا لكلا الطرفين:

إن الحديث عن المخاطرة في هذه الصورة والصورتين الآتيتين إنما يدور علىٰ المصرف؛ لأنه هو الرابح في عقد المرابحة المصرفية، وقد سبق في مقدمة البحث أن المعيار المعتبر للربح في الشريعة هو تحمل المخاطرة، فما هي المخاطرة التي يتحملها المصرف في بيع المرابحة للآمر بالشراء إذا كانت المواعدة التي بينه وبين العميل ملزمة لكلا الطرفين؟

عند التأمل في هذه الصورة نجد أنه بمجرد ما أن يوقع العميل علىٰ استمارة الوعد الذي بينه وبين المصرف فإن عقد البيع علىٰ السلعة المرادة ينعقد ويتم ولو افترضنا أن الوعد منفصل عن عقد البيع، وذلك أن المصرف في حالة توقيع العميل علىٰ استمارة الوعد قد ضمن من العميل أن يقوم بشراء السلعة التي أرادها، ولو نكل وتراجع عن البيع فإنه يلتزم بدفع كل خسارة وتكلفة تقع علىٰ كاهل المصرف من الناحية القانونية والقضائية.

كما أن المصرف يستطيع أن يشترط علىٰ البائع الرد بالعيب، ويستطيع أن يشترط تأمين وصول السلعة علىٰ البائع أو علىٰ غيره، ويعتبر ذلك جزءًا من كلفة التقوم، كما أن المصرف يشترط علىٰ الواعد بالشراء إنفاذ الشراء أو تحمل الضرر الذي يحيق بالمصرف في حالة نكوله عن الشراء، فأي مخاطرة ظلت تبرر ربح المصرف[1]؟!

يتضح مما سبق أن المصرف الإسلامي وبقيامه بهذه الإجراءات قد ضمن ربحًا مؤكدًا في مقابل عدم تحمله للمخاطرة، مما يدل علىٰ وجود ما يتعارض مع قاعدة استحقاق الربح في مقابل تحمل الخسارة (المخاطرة) في تطبيق المصرف لبيع المرابحة للآمر بالشراء في صورة الإلزام بالوعد لكلا الطرفين.

٢- أن يكون الوعد ملزمًا لطرف دون آخر:

وفي حالة كون الوعد ملزمًا لطرف دون آخر، فإن أحد الطرفين إما أن يكون المصرف وإما أن يكون العميل.

(١) انظر: ملاحظات في فقه الصيرفة الإسلامية، عبد الجبار السبهاني، ص ٣٣.

ففي حالة كون المصرف ملزَمًا بوعده دون العميل، أي أن المصرف ألزم نفسه بالوفاء بالوعد في بيع المرابحة، وترك العميل مختارًا بين أن يشتري السلعة أو أن يتراجع، فإنه في هذه الصورة نلاحظ أن المصرف يتعرض للمخاطرة، وذلك لأن العميل ليس ملزمًا بوعده وله أن يتراجع عن البيع، وبالتالي فإن المصرف معرض للخسارة.

فهذه الصورة متماشية مع مبدأ المخاطرة، حيث إن التاجر وهو المصرف مستحق للربح في مقابل تعرضه للخسارة.

وفي حالة كون العميل ملزمًا بوعده دون المصرف فإن هذه الصورة لا تخرج عن إلزامية الوعد بين الطرفين المصرف والعميل من ناحية وجود المخاطرة، وذلك أن المصرف بمجرد توقيع العميل على استمارة الوعد قد ضمن الربح من العميل، بغض النظر عن كون المصرف غير ملزم بالوفاء بالوعد؛ لأن المصرف إذا سنحت له الفرصة بتحقيق الربح من غير أن يتحمل الخسارة وتبعاتها فلن يفوت هذه الأرباح المضمونة، وبالتالي فإنه سيلتزم بالوفاء للعميل في هذه المعاملة؛ لأن العميل ملزم قضاء بالشروع في عملية المرابحة.

فإذًا المخاطرة في هذه الصورة تكاد تكون منعدمة، فالمصرف يربح من غير أن يتحمل الخسارة، وهذا يتعارض مع قاعدة المخاطرة.

٣- أن يكون الوعد غير ملزم لأي من الطرفين:

إذا دخل الطرفان المصرف والعميل في المواعدة على أنها غير ملزمة لأي من الطرفين، بحيث يكون المصرف غير ملزم ببيع السلعة على العميل، والعميل غير ملزم بشراء السلعة من المصرف، فهذه الصورة واضحة جدًّا بأنها متوافقة مع قاعدة المخاطرة من ناحية تحقيق الربح في مقابل تحمل الخسارة.

فالمصرف في هذه الصورة لا يتحمل فقط مخاطرة هلاك السلعة قبل تسليمها للمشتري أو ردها من عيب خفي فيها (وكل ذلك يمكنه أن يرجع فيه على المنشأ أو غيره)، ولكنه يتحمل أيضًا مخاطرة تقلب الأسعار وتحول الأسواق وتغيرات الطلب، وهذه المخاطرة الأخيرة تسوغ له ربحه، إذ هي التي قد تضطره إلى أن يبيع السلعة تولية أو وضيعة (بخصم جزء

من كلفتها أو كلفة التقوم بهدف التصريف)، وهكذا نلاحظ أن ربح المرابحة مبرر بخسارة ما يضعه البائع من الكلفة بهدف التصريف في حال بيع الوضيعة، ومبرر بفوات الربح في حال التولية[١].

ثانيًا: المشاركة المنتهية بالتمليك:

تعد المشاركة المنتهية بالتمليك أو المشاركة المتناقصة من الأساليب الجديدة التي استحدثتها البنوك الإسلامية في معاملاتها المالية.

والمشاركة المنتهية بالتمليك تختلف عن المشاركة الدائمة في عنصر الاستمرارية، فالمصرف الإسلامي في المشاركة المنتهية بالتمليك يتمتع بكامل حقوق الشريك وعليه جميع التزاماته، غير أنه لا يقصد منذ التعاقد البقاء والاستمرار في الشركة إلىٰ حين انتهائها، بل إنه يعطي الحق للشريك ليحل محله في ملكية المشروع، ويوافق علىٰ التنازل عن حصته في المشاركة دفعة واحدة أو علىٰ دفعات حسبما تقتضي الشروط المتفق عليها.

وتوجد في الواقع العملي صور متعددة للمشاركة المتناقصة، وأكثرها انتشارًا هي تلك التي يتم بموجبها اتفاق الطرفين علىٰ تنازل المصرف عن حصته تدريجيًّا مقابل سداد الشريك ثمنها دوريًّا (من العائد الذي يؤول إليه أو من أية موارد خارجية أخرىٰ)، وذلك خلال فترة مناسبة يتفقان عليها، وعند انتهاء العملية يستقل الشريك بملكية المشروع[٢].

فيتضح من صورة المشاركة المنتهية بالتمليك أنها عبارة عن شركة عقد مقترنة بوعد ملزم (في بعض تطبيقات المصارف الإسلامية) للمصرف والعميل بإتمام عملية البيع، وبالتالي انتقال ملكية العين الممولة إلىٰ العميل[٣].

المخاطرة في المشاركة المنتهية بالتمليك في حال اقترانها بالوعد الملزم:

لا شك أن عقود المشاركة بشكل عام من أكثر العقود تعرضًا للمخاطرة، حيث إن جوانب

(١) انظر: ملاحظات في فقه الصيرفة الإسلامية، عبد الجبار السبهاني، ص ٣٣.

(٢) انظر: الخدمات الاستثمارية في المصارف وأحكامها في الفقه الإسلامي، يوسف الشبيلي، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٣) انظر: المشاركة المتناقصة كأداة من أدوات التمويل الإسلامي، كمال حطاب، بحث في مجلة دراسات اقتصادية إسلامية، ص ٢٠.

المخاطرة فيها متعددة وأسبابها مختلفة[1].

وفي صورة المشاركة المتناقصة المنتهية بالتمليك كما سبق بيانها، نجد أن في نهاية العقد وعدًا من المصرف ببيع حصته للعميل أو التنازل عنها بحسب صيغة العقد بينهما، ووعدًا آخر من العميل بشراء حصة المصرف، ومن ثم انتقال ملكية العين الممولة إلىٰ العميل.

في الحقيقة ومن خلال التأمل في صورة المشاركة المنتهية بالتمليك نجد أن المخاطرة واقعة أثناء مدة الشركة، فالمصرف يتحمل الخسارة إن وقعت وكذا العميل، وهذا في مقابل الربح المستحق للطرفين، ولكن لا بد من تحديد التزامات الطرفين في عقد الشركة كما هو محدد في الفقه الإسلامي، وخاصة فيما يتعلق بالمصرف؛ لأن الأنظار تتجه نحوه في التطبيقات المصرفية؛ لأنه لا يدخل في إبرام العقود غالبًا إلا إذا تأكد من جدواها وربحيتها.

ومن هذه الالتزامات المقررة:

١- الالتزام الصيانة (صيانة الأصل) غير الدورية.

٢- تحمل تبعة الهلاك الكلي أو الجزئي.

٣-عدم استحقاق الأجرة خلال فترات تعذر استيفاء المنفعة أو انقطاع الإجارة بالأعذار، حسبما هو مفصل في كتب الفقه.

٤- تحمل خطر انخفاض قيمة الأصل والاستفادة من ارتفاع تلك القيمة، وهذا بإعادة تقويم الأصل بسعر السوق في فترات دورية خلال سريان العقد.

٥- تحمل التزامات البائع نحو المشتري، إذ المصرف يبيع حصته تدريجيًّا، ومن أمثلة هذه الالتزامات العيوب الخفية[2].

فمما سبق يتبين أن المخاطرة موجودة في المشاركة المنتهية بالتمليك أثناء فترة العقد، ولكن ما يعكر علىٰ صفاء العقد هو ذلك الوعد الملزم المترافق مع بداية عقد المشاركة المنتهية بالتمليك، فهل يؤثر الوعد الملزم في عقد المشاركة المنتهية بالتمليك من ناحية وجود المخاطرة أو انتفائها؟

في الواقع أنه مع القول بالإلزام بالوعد في عقد المشاركة المنتهية بالتمليك، فإن

(١) انظر: إدارة المخاطر، طارق خان، وحبيب أحمد، ص ٦٩.

(٢) انظر: تعليق علىٰ حسين فهمي في عقد المشاركة المتناقصة، محمد أنس الزرقا، ج ١٠، ع٢، ص ٢.

المخاطرة ما زالت موجودة في العقد لكلا الطرفين الشريكين في العقد.

وبالتالي فإن المخاطرة كمعيار مهم لصحة العقد لم تنتف في عقد المشاركة المنتهية بالتمليك مع القول بالوعد الملزم.

ولكن مع ذلك لا يمكن إصدار الحكم الشرعي لهذه الشركة بمجرد أن هذا العقد يتضمن المخاطرة؛ لأن هناك جوانب أخرىٰ بصدد هذه الشركة تحدد مدىٰ الجواز والحرمة لها.

وقد جاء في المعايير الشرعية الصادرة عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية ما يتعلق بالوعد في المشاركة المتناقصة ما يلي:

لا بد أن تكون الشركة غير مشترط فيها البيع والشراء، وإنما يتعهد الشريك بذلك بوعد منفصل عن الشركة، وكذلك يقع البيع والشراء بعقد منفصل عن الشركة، ولا يجوز أن يشترط أحد العقدين في الآخر[1].

من خلال ما سبق يتبين ما مدىٰ أثر الوعد الملزم في العقدين السابقين، في صورة بيع المرابحة للآمر بالشراء، وفي صورة المشاركة المنتهية بالتمليك، حيث إن القول بالإلزام بالوعد في كلا المثالين يؤثر تأثيرًا جوهريًّا، لا سيما في مسألة ارتفاع وانخفاض درجة المخاطرة.

الخاتمة:

تقرر لدىٰ الباحث من خلال صفحات هذا البحث أن الوعد الملزم في العقود لا سيما المصرفية منها مؤثر من ناحية استقرار العقد أو اختلاله، وهذا يظهر جليًّا من خلال معيار المخاطرة، والذي يعد معيارًا هامًّا لصحة العقود، حيث وجدت بعض العقود التي ترافق معها الوعد الملزم كبيع المرابحة للآمر بالشراء قد انخفضت فيها درجة المخاطرة إلىٰ مستويات متدنية تصل في كثير من الأحيان إلىٰ درجة الصفر، مما يدل علىٰ وجود شبهة في العقد المبرم، مما يستوجب التوقف وإعادة النظر فيه.

(١) المعايير الشرعية الصادرة عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، ص ٢٢٠.

الخلاصة أنه يمكن القول بأن الوعد الملزم قد سبب إشكالات كثيرة تصل أحيانًا إلىٰ القول بأن المصارف الإسلامية قد تشبهت بالبنوك التقليدية، حيث إن البنوك التقليدية تحقق أرباحًا من غير أن تتحمل مخاطر الخسارة وتوابعها، وكذلك المصارف الإسلامية قد توصلت إلىٰ هذه النتيجة من خلال عنصر الوعد الملزم، مما يستدعي المعنيين في المصارف الإسلامية إلىٰ وقفة جادة لتصحيح المسار من جديد، حتىٰ تتخلص معاملاتها من أية شبهة شرعية، والله أعلم.

قائمة المصادر والمراجع:

١- ابن نجيم الحنفي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- البعلي، علاء الدين الدمشقي، الاختيارات الفقهية من فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، أشرف علىٰ تصحيحه عبد الرحمن محمود، المؤسسة السعيدية، الرياض.

٣- التركي، عبد المحسن، بيع التقسيط وأحكامه، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤- الشبيلي، يوسف، الخدمات الاستثمارية في المصارف وأحكامها في الفقه الإسلامي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٥- الأشقر، محمد سليمان، بيع المرابحة كما تجريه البنوك الإسلامية، دار النفائس، عمَّان، ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٦- ابن حزم، المحلىٰ بالآثار، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧- حطاب، كمال، المشاركة المتناقصة كأداة من أدوات التمويل، مجلة دراسات اقتصادية إسلامية، العدد ٢.

٨- حطاب، كمال، القبض والإلزام بالوعد في عقد المرابحة للآمر بالشراء، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الخامس.

٩- حمَّاد، نزيه، معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط ٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠- الزرقا، محمد أنس، تعليق على حسين فهمي في عقد المشاركة المتناقصة، دراسات اقتصادية إسلامية: نصف سنوية، ج ١٠، ع٢ (محرم ١٤٢٤، مارس ٢٠٠٣).

١١- السبهاني، عبد الجبار، ملاحظات في فقه الصيرفة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، مجلد ١٦، العدد ٢.

١٢- طارق الله خان، حبيب أحمد، إدارة المخاطر، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ١٤٢٣ هـ.

١٣- ابن عبد البر القرطبي، التمهيد، مكتبة السوادي للتوزيع، الرياض.

١٤- عدنان عويضة، نظرية المخاطرة في الاقتصاد الإسلامي، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في قسم الاقتصاد الإسلامي بكلية الشريعة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٦م.

١٥- عفانة، حسام الدين، بيع المرابحة للآمر بالشراء، مكتبة دنديس، عمَّان، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٦- علاء الدين المرداوي، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٧- القرافي، شهاب الدين، أنوار البروق في أنواع الفروق، عالم الكتب، بيروت.

١٨- قلعه جي، محمد روَّاس، مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٩- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، طبعة الحلبي، مصر.

٢٠- المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار عالم الكتب.

٢٢- مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الخامس، مطابع المجموعة الإعلامية، جدة.

٢٣- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، مكتبة دبي للتوزيع، دبي، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٤- المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، البحرين، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٥- ابن مفلح المقدسي، الفروع، مؤسسة الرسالة، ط الأولىٰ ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٢٦- ابن مفلح الدمشقي، المبدع شرح المقنع، المكتب الإسلامي.

٢٧- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، الكويت.

٢٨- النووي، أبو زكريا، روضة الطالبين وعمدة المفتين، دار الفكر.

٢٩- الهيتي، عبد الرزاق، المصارف الإسلامية بين النظرية والتطبيق، دار أسامة، الأردن، ط ١، ١٩٩٨م.

❊ ❊ ❊ ❊

عقد المضاربة
وكيفية تطبيقاته العقارية في البنوك التشاركية

أ. محمد لحبيب لسيق

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ مولانا رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد:

لا يخفىٰ علىٰ أحد أهمية الاقتصاد في عالمنا المعاصر؛ لأن له ارتباطًا بالمال الذي هو قوام الحياة، وأحد الضروريات الخمس التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، كما يعتبر المحرك الأساس للدورة الاقتصادية، ومن ثم نجد في القرآن الكريم والسنة النبوية الكثير من الآيات والأحاديث التي تبين طرق تحصيل المال، وكيفية حفظه وتنميته واستثماره، وكل ما ورد في الكتاب والسنة حول المسألة الاقتصادية بشكل عام، إنما هو قيم ومبادئ عامة لضبط المسيرة الاقتصادية، وحمايتها من أي خلل أو انحراف، وعليه فالبحث في عقود المعاملات المالية يعتبر من الأولويات في علم الاقتصاد الإسلامي، ومن بين هذه العقود عقد المضاربة، الذي سنعمل علىٰ بيان بعض تطبيقاته العقارية ومدىٰ إمكانية تعامل البنوك التشاركية بهذا العقد، نظراً للحاجة الماسة إليه، وللإشارة فإن البنوك التشاركية لم تتعامل بهذا العقد حتىٰ الآن، لكنها علىٰ وشك تطبيقه.

والسؤال الإشكالي الذي سنحاول الإجابة عليه في هذا المقال، هو كيف يمكن للبنوك التشاركية أن تطبق هذا العقد في مجال العقار؟ وذلك علىٰ سبيل المثال فقط، وإلا فعقد المضاربة يمكن تطبيقه في مجالات اقتصادية كثيرة، إلا أنني اخترت الحديث عن السكن؛ لأنه يعتبر من الحاجات الضرورية للإنسان، كما أن العقار يمثل أحد الأنشطة الهامة في الحركة الاقتصادية، وعليه فالمقال يهدف إلىٰ بيان إسهام العلوم الشرعية وتوظيفها في المجال الاقتصادي الحديث، وبيان أن البنوك التشاركية المغربية يمكنها أن تقوم بتمويل المشاريع العقارية انطلاقًا من عقد المضاربة، باعتبار أن تجربة البنوك التشاركية في المغرب جاءت في إطار تعزيز الإصلاحات الرامية إلىٰ تدعيم القطاع المالي المغربي، ودعم صلابته علىٰ الصمود أمام المخاطر المتعلقة بتداعيات الأزمات المالية علىٰ الصعيد الدولي، وقانون هذه البنوك يأتي لتعزيز الصناعة المالية المغربية من خلال إحداث نوع جديد من الخدمات

البنكية من خلال إدماج البنوك التشاركية في النظام البنكي الوطني، وقد جاء في تقرير لجنة المالية، والتنمية الاقتصادية بالمملكة المغربية حول مشروع قانون رقم ١٢. ١٠٣ يتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها، والذي وافق عليه مجلس المستشارين في ٢٧ ذي الحجة ١٤٣٥ الموافق لـ ٢٢ أكتوبر ٢٠١٤ في المادة ٥٨: أنه يمكن للبنوك التشاركية أن تمول العملاء بواسطة المنتوجات التالية على الخصوص: المرابحة، الإجارة، المشاركة، المضاربة، السلم، الاستصناع، وإذا كانت البنوك التشاركية تتأسس فقهيًا على صيغ تمويلية أطَّرها فقهاؤنا وحددوا معالمها، ومن هذه الصيغ عقد المضاربة، فما حقيقة المضاربة في الفقه الإسلامي؟ ومتى بدأت الصور الحديثة لهذا العقد وتطورت؟ وكيف يمكن أن تتم تطبيقاته العقارية في البنوك التشاركية؟ وما هي آثاره الاقتصادية والاجتماعية؟ هذه جملة الأسئلة المحورية التي سيحاول المقال الإجابة عنها، في ستة مباحث، ومقدمة تعتبر المدخل الأساس وتحدد الإطار العام لهذا المقال، وخاتمة تقدم زبدته وأهم الاستنتاجات التي توصل إليها.

المبحث الأول: الصيرفة الإسلامية في المغرب

لا بد أن نلقي نظرة عن الصيرفة الإسلامية بالمغرب على اعتبار أن المقال يتعلق بالبنوك التشاركية المغربية، ومن المعلوم أن الصيرفة الإسلامية عمومًا مرت بعدة مراحل منذ نشأتها، وتم اعتمادها تدريجيًا في كثير من دول العالم، والمغرب سيعتمد هذه التجربة من خلال البنوك التشاركية في إطار القانون رقم (١٢-١٠٣) الذي يتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها، وهي تجربة حديثة، وقد كان قبل ميلاد البنوك التشاركية في المغرب تجربة في تسويق منتجات بديلة، فأول انطلاقة للتمويلات البديلة كانت في ٢٠٠٧م فقد أصدر بنك المغرب توصية سنة ٢٠٠٧م رقم (٣٣- ٢٠٠٧) والتي تتضمن تسويق ثلاث منتجات بديلة هي: (المرابحة والمشاركة والإيجار)، طرحتها في الأسواق بعض البنوك، ثم جاء قرار والي بنك المغرب رقم (٢٧- ٢٠١٠) أعلن من خلاله عن إنشاء أول شركة متخصصة في التمويلات الإسلامية، وستتعامل بالمرابحة وفقًا لأحكام الشريعة، وهذه الشركة هي دار الصفا وهي تابعة لبنك

(التجاري وفا بنك)، ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها لم تكن ناجحة لعدة أسباب.

وعليه فميلاد البنوك التشاركية يعتبر البداية الحقيقية للصيرفة الإسلامية في المغرب، وسيتم الحديث عن هذه التجربة عبر الخطوات الآتية:

المطلب الأول: قانون البنوك التشاركية

البنوك التشاركية في المغرب أصبحت واقعاً عملياً في يونيو ٢٠١٧م. فبعدما صدر القانون البنكي المغربي الجديد رقم (١٢-١٠٣) والمتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها الصادر بظهير شريف رقم (١٩٣-١٤-١) في فاتح ربيع الأول ١٤٣٦هـ ٢٤ دجنبر (ديسمبر) ٢٠١٤م الجريدة الرسمية عدد (٦٣٢٨, G) الصادر بتاريخ فاتح ربيع الثاني ١٤٣٦هـ ٢٢ يناير ٢٠١٥م.

فقد أعطي الترخيص للبنوك التشاركية بالبداية، ويأتي هذا القانون لتعزيز الصناعة المالية لعدة أسباب، منها: إحداث نوع جديد من الخدمات البنكية من خلال إدماج أنشطة البنوك التشاركية في النظام البنكي الوطني، ويستند هذا النمط الجديد من الأنشطة البنكية إلىٰ فلسفة ومقاربة مالية وتشريعية مميزة تسمح بالمساهمة في تنويع مصادر التمويل، ويفتح الطريق أمام الابتكار في مجال الهندسة المالية، وبناء الاستثمار، ووضع أسس بنكية جديدة تقوم علىٰ مبادئ اقتسام الأرباح والخسائر، والاعتماد الحصري علىٰ المجلس العلمي الأعلىٰ من أجل إبداء الرأي بالمطابقة[1].

ويتكون قانون البنك المغربي من تسعة أقسام وتضم هذه الأقسام ١٩٦ مادة.

وقد خصص القسم الثالث من هذا القانون للبنوك التشاركية، وفيه ١٧ مادة تبدأ من المادة ٥٤ إلىٰ المادة ٧٠. وهذه المواد موزعة علىٰ ثلاثة أبواب:

الباب الأول: مجال التطبيق، ويتضمن الخدمات والعقود التي تقدمها البنوك التشاركية، وفيه ثمان مواد، من المادة ٥٤ إلىٰ المادة ٦١.

الباب الثاني: هيئات المطابقة، وفيه أربع مواد، من المادة ٦٢ إلىٰ المادة ٦٥.

(١) انظر: مشروع قانون البنوك رقم (١٢-١٠٣) الذي يتعلق بمؤسسات الائتمان والهيئات المعتبرة في حكمها ص١.

الباب الثالث: أحكام متفرقة، وفيه خمس مواد، من المادة ٦٦ إلىٰ المادة ٧٠.

إذن المواد التي تتعلق بالبنوك التشاركية في هذا القانون هي ١٧ مادة، متفرقة علىٰ ثلاثة أبواب.

المطلب الثاني: لماذا سميت هذه البنوك بالتشاركية وليس الإسلامية؟

القانون البنكي المغربي صرح باسم البنوك التشاركية في القسم الثالث من مشروع القانون رقم (١٢ - ١٠٣)، وعليه فالاسم الرسمي لهذه البنوك هو: البنوك التشاركية، وتعريف البنوك التشاركية في الاصطلاح هو تعريف المصارف الإسلامية، أما في اللغة فإن أصل التشاركية من التشارك والاشتراك، يقال: اشترك الرجلان وتشاركا، أي: كان كل منهما شريك الآخر، وصيغة التفاعل تقتضي التشارك في أصل الفعل لغة[1].

إذن المشرع المغربي سماها بالبنوك التشاركية وليس الإسلامية، وهذه التسمية اختلف حولها المختصون وغير المختصين، وكثر السؤال حولها، وتضاربت الآراء في تفسيرها، والواقع أن تسمية هذه البنوك بالتشاركية ينقسم الناس حولها بشكل مجمل إلىٰ قسمين: قسم مناصر لهذه التسمية، وقسم معارض لها.

فالمناصرون لهذه التسمية يرون أن هذه التسمية مناسبة، وينطلقون من مقاصدها وعدم المشاحات في الاصطلاح، فالعبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني، وأن القائل إذا قال: البنوك التشاركية، وفهم أن هذه البنوك هي التي تعمل في جميع عقودها وفق الشريعة الإسلامية، فإن المقصود عنده المصارف الإسلامية، ويرىٰ هؤلاء المناصرون أن المغرب فتح الباب للبنوك التي تعمل وفق مقتضيات الشريعة، فلا يهمها المصطلح وإنما يهمها الالتزام بشرع الله، ولا مشاحات في الاصطلاح كما قلنا.

ويستدل هؤلاء المناصرون لهذه التسمية بعدة أدلة، منها:

- أن طبيعة عمل هذه المؤسسات المالية هو التشارك بينها وبين عملائها، حيث إن العقود تنشأ بين الطرفين علىٰ أساس اقتسام

(١) انظر: تاج العروس للزبيدي، مادة (شرك)، والمعجم الوسيط.

المخاطر، وهذا المعنى موجود في تسمية البنوك التشاركية.

- أن اختيار التشاركية بدل الإسلامية لتجنب الألفاظ التي قد تحرج الطرف الآخر، فقد يفهم الطرف الآخر (وهو البنوك التقليدية) بأنها غير إسلامية بصفة مطلقة، والحقيقة أن البنوك التقليدية رغم ما فيها من المعاملات المحرمة، ففيها أيضاً معاملات لا تخالف الشريعة، فلا يصح نفي الإسلامية عنها بصفة مطلقة، فمثلاً لو عندك جار مسلم يشرب الخمر ويتعامل بالربا ويصلي، فلا يصح لك أن تقول له: أنت غير مسلم، رغم المعصية التي يرتكبها. وهناك أدلة أخرى يستدل بها المناصرون لهذه التسمية.

وأما غير المناصرين لهذه التسمية فيرون أن هذه التسمية بالتشاركية جاءت انطلاقاً من الحساسية من كل ما هو إسلامي، فتم وضع التشاركية بدل الإسلامية تحايلاً حتى يستطيع الناس التعايش مع الحرام ويمارسونه، وذكر البعض بأن التسمية بالمصارف الإسلامية هي الأولى، حتى يتم بيان الهوية الحقيقية لهذه المصارف، وتميزها عن البنوك الأخرى، وغير ذلك من الأمور التي يستدلون بها على انتقادهم لهذه التسمية.

المطلب الثالث: أسماء البنوك التشاركية المغربية التي تمارس النشاط المصرفي

تجربة البنوك التشاركية انطلقت في النصف الثاني من سنة ٢٠١٧م، وتوجد اليوم خمسة بنوك تشاركية تعتبر فروعاً مستقلة، وثلاث نوافذ تشاركية تحترم الآراء بالمطابقة لأحكام الشريعة التي تصدر عن المجلس العلمي الأعلى بالمغرب.

وأسماء هذه البنوك نضعها في الجدول الآتي:

البنك التشاركي	البنك الذي تفرع منه
أمنية بنك	القرض العقاري والسياحي
بنك اليسر	البنك الشعبي
بنك الصفاء	التجاري وفا بنك
البنك الأخضر	القرض الفلاحي
بنك التمويل والإنماء	البنك المغربي للتجارة الخارجية
نافذة نجمة	البنك المغربي للتجارة والصناعة
نافذة دار الأمان	الشركة العامة
نافذة الرضى	مصرف المغرب

المبحث الثاني: تعريف عقد المضاربة

إن تحديد المفاهيم الأساسية في أي عمل علمي يكتسب أهمية خاصة، لكونه يؤسس لقواعد الفهم الصحيح لموضوع البحث، ويزيل الغموض الذي يلف المفاهيم، كما يوفر مدخلاً مناسباً للتحليل العلمي، وعليه نجد أن التعرض لمفهوم المضاربة يكتسب أهمية قصوىٰ في إطار هذا المقال، ذلك أن جانباً مهماً من إشكالية هذا المقال تكمن في طبيعة المضاربة، وكيفية فهمها، وتحديد أبعادها وشروطها، وصورها الحديثة، وبالتالي تطبيقها في الواقع المعاصر، لهذا سأبدأ بهذا المحور لأحدد الإطار العام للموضوع، والذي يعتبر مدخلاً أساساً لمعالجة مفهوم ومضمون المضاربة في الفقه الإسلامي، والتعريف عموماً هو تحديد جوهر الشيء ومضمونه، لذا سأتناول تعريف المضاربة في اللغة ثم في الاصطلاح لأشكل حجر الأساس لبداية هذا المقال العلمي إن شاء الله تعالىٰ.

المطلب الأول: تعريف المضاربة في اللغة

المضاربة علىٰ وزن مُفاعلة، يقال: ضاربه في المال مضاربة، والمضاربة مشتقة من الفعل (ضرب)، وهو يأتي علىٰ معان متعددة، منها:

١- ضرب بمعنىٰ سار وسافر، يقال: ضرب في الأرض يضرب ضرباً وضرباناً، ومضرباً بالفتح خرج فيها تاجراً أو غازياً، وقيل: أسرع، وقيل: ذهب فيها، وقيل: سار في ابتغاء الرزق، وضربتُ في الأرض أبتغي الخير من الرزق[١]، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:١٠١]، أي: سافرتم.

٢- ضرب بمعنىٰ: كسب وطلب[٢]، يقال: فلان يطلب المجد، أي: يكسبه ويطلبه، وأهل الحجاز يسمون عقد المضاربة: قراضاً أو مقارضة، وهو مشتق من القطع؛ لأن أصل القرض في اللغة القطع، قال الزمخشري: أصلها من القرض في الأرض، وهو قطعها بالسير فيها[٣]؛ وذلك لأن المالك قطع قطعة من ماله وأعطاها للعامل مقارضة من أجل أن يتجر فيها.

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، مادة ضرب، ج ١ ص ٥٤٤.
(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (ضرب)، ج ١ ص ٥٤٤.
(٣) مرتضىٰ الزبيدي، تاج العروس، دار الهداية، باب: (قرض)، ج ١٩ ص ١٩.

المطلب الثاني: المضاربة في الاصطلاح

إذا بحثنا عن تعريف المضاربة عند الفقهاء سنجد أن لهم تعريفات كثيرة، وقد اتفقوا في بعض الأمور أحيانًا واختلفوا في أمور أخرىٰ، وسبب هذا الاختلاف يرجع في الأساس إلىٰ عدم وجود نص صريح سواء من الكتاب أو السنة النبوية حول المضاربة، وسأذكر بعض التعريفات وفقًا للترتيب الآتي:

المالكية: لقد عرف المالكية المضاربة بتعريفات كثيرة، أذكر منها تعريفي الدردير وابن جزي رحمهما الله.

عرفها الدردير بأنها: دفعُ مالكٍ مالاً من نقد مضروب مسلم معلوم لمن يتجر به بجزء معلوم من ربحه قل أو كثر بصيغة[١].

عرفها ابن جزي بقوله: القراض -المضاربة- هو أن يدفع رجل مالاً لآخر ليتجر به ويكون الفضل بينهما حسب ما يتفقان عليه[٢].

* مناقشة تعريف المالكية: إن فقهاء المالكية ذكروا في تعريفهم الاشتراطات التي يجب أن تتوفر في المضاربة، ونصوا علىٰ كيفية توزيع الربح، والملاحظ أنهم لم يذكروا العقد في التعريف، لكن عندما أشار الدردير رحمه الله بقوله في التعريف: (بصيغة) فيفهم من ذلك الإيجاب والقبول وبواسطة الإيجاب والقبول تنعقد المضاربة.

- **تعريف الشافعية**: لقد عرف الشافعية المضاربة بأنها: أن يدفع إليه مالاً ليتجر فيه والربح مشترك بينهما[٣].

- **الحنفية**: لقد عرف الحنفية المضاربة بأنها: عقد علىٰ الشركة بمال من أحد الجانبين وعمل من الآخر[٤].

- **تعريف الحنابلة**: لقد عرف الحنابلة المضاربة بأنها: أن يدفع رجل ماله إلىٰ آخر يتجر له فيه علىٰ أن ما حصل من الربح بينهما حسب ما يشترطانه[٥].

(١) الصاوي أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، حاشية الصاوي علىٰ الشرح الصغير، دار المعارف، ج٣ ص٦٩٢.
(٢) ابن جزي الكلبي، القوانين الفقهية، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، دار الرشاد الحديثة، المغرب، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م، ص٣٠٤.
(٣) شهاب الدين الرملي، نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج، ح٤ ص ٦١.
(٤) ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير، دار الفكر، كتاب المضاربة، ج٨ ص ٤٤٥.
(٥) ابن قدامة المقدسي، المغني، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، ج٥ ص ١٩.

المطلب الثالث: أسماء أخرىٰ للمضاربة

إذا استقْرينا كتب الفقه وتأملنا عقد المضاربة سنجد أن للمضاربة عدة أسماء، وهي: القراض والمقارضة والمعاملة، وقد أحببت إضافة هذا المطلب هنا حتىٰ لا يقع أي لبس للقارئ عندما يعرض للأسماء الأخرىٰ التي تعني المضاربة.

أولاً: القراض: إن المالكية والشافعية اختاروا لهذا العقد اسم القراض، والقراض في اللغة مشتق من قرض قرضًا، والقرض يأتي علىٰ معان، منها: أن القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازىٰ عليه[١]، القرض: القطع، يقال: قرضه يقرضه بكسر الراء وقرضه بالتشديد إذا قطعه[٢].

ثانيًا: المقارضة، المقارضة مشتقة من (قارض) بمعنىٰ: ساوىٰ ووازن، يقال: القرنان يتقارضان النظر، إذا نظر كل واحد منهما شزرًا[٣].

ثالثًا: المعاملة، وهي مشتقة من الفعل (عمل) بمعنىٰ: قام بعمل، والعمل: المهنة والفعل، والجمع أعمال، والعامل هو الذي يتولىٰ أمور الرجل في ماله وملكه وعمله[٤].

بعد ذكر هذه الأقوال أعيد ما ذكرت سابقًا من أجل تأكيده وهو: أن لفظ المضاربة قد شاع استعماله في كتب فقه الحنفية والحنابلة أما لفظ القراض فقد شاع في كتب فقه المالكية والشافعية. وكلمة قراض ترادف تمامًا كلمة مضاربة. صرح بذلك علماء اللغة وعلماء الشريعة أيضًا، فقد صرح ابن حزم الظاهري للموضوع في كتابه المحلىٰ بعنوان: كتاب المضاربة وهي القراض[٥]، وأما لفظ المعاملة فلا يكاد يذكر في كتب الفقه إلا عند ذكر تعدد أسماء هذا العقد.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة قرض، ج ٧ ص٢١٧.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة قرض، ج ٧ ص٢١٦.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة قرض، ج ٧ ص٢١٨.
(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة قرض، ج ١١ ص٤٧٤.
(٥) ابن حزم الظاهري، المحلىٰ بالآثار، دار الفكر، بيروت، ج٧ ص ٩٦.

المبحث الثالث: حكم المضاربة وأركانها وشروطها والحكمة من مشروعيتها

المطلب الأول: حكم المضاربة

عقد المضاربة من العقود الجائزة شرعًا، ولا يوجد خلاف بين العلماء عليه، بل هناك إجماع على جوازه، وأن هذا العقد كان في الجاهلية فأقره الإسلام، وقد نقل الإجماع كثير من الفقهاء، وأذكر أقوال بعضهم على سبيل المثال، لا الحصر، وهي على الشكل الآتي:

قال ابن رشد: (ولا خلاف بين المسلمين في جواز القراض، وأنه مما كان في الجاهلية فأقره الإسلام)[1].

قال ابن عبد البر: (والقراض مأخوذ عن الإجماع الذي لا خلاف فيه عند أحد من أهل العلم، وكان في الجاهلية فأقره الرسول ﷺ في الإسلام)[2].

وقال ابن حزم في كتابه المحلى: (القراض كان في الجاهلية، وكانت قريش أهل تجارة، لا معاش لهم من غيرها، وفيهم الشيخ الكبير الذي لا يطيق السفر، والمرأة، والصغير، واليتيم، فكانوا وذوو الشغل والمرض يعطون المال مضاربة بمن يتجر به بجزء مسمى من الربح، فأقره رسول الله ﷺ بعد ذلك في الإسلام، وعمل به المسلمون عملاً متيقنًا لا خلاف فيه، ولو وجد فيه خلاف ما التفت إليه؛ لأنه نقل كافة بعد كافة إلى زمن رسول الله ﷺ، وعِلْمه بذلك)[3].

وأدلة مشروعية المضاربة هي الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس على اختلاف بين العلماء.

أولاً: الدليل من الكتاب:

لم ترد آيات بخصوص عقد المضاربة بعينه، ولكن عقد المضاربة داخل تحت عموم الآيات المبينة لذلك، وقد ذكر العلماء ثلاث آيات تدل على جواز عقد المضاربة:

أ- قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المزمل: ٢٠].

(١) ابن رشد أبو الوليد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، حققه أبو أوس البكري، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م، ص ٧٦٤.
(٢) ابن عبد البر، الاستذكار، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، ج٧ ص٣.
(٣) ابن حزم الظاهري، المحلى بالآثار، ج٧ ص ٩٦.

فالله سبحانه وتعالىٰ ذكر فضل الضرب في الأرض والسفر طلبًا للرزق للنفقة علىٰ نفسه وعلىٰ أهله، وهذا يدل علىٰ أن المضاربة مشروعة؛ لأن المضارب يضرب في الأرض ويبتغي من فضل الله تعالىٰ، وهذا داخل تحت عموم هذه الآية.

ب- قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال القرطبي: «هذا أمر إباحة، والمعنىٰ: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم، ﴿ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: من رزقه»[(١)].

ج- قال تعالىٰ: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

قال الماوردي: «والأصل في إحلال القراض وإباحته قوله تعالىٰ: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾، وفي القراض ابتغاء فضل وطلب نماء»[(٢)].

ثم إن رفع الجناح يقتضي الإباحة، إذن فعقد المضاربة داخل تحت عموم هذه الآية كذلك.

ثانيًا: الدليل من السنة:

ما قلت عن الاستدلال بالقرآن الكريم عن مشروعية المضاربة ينطبق أيضًا علىٰ السنة الشريفة حيث لم ترد أحاديث نبوية صحيحة قولية أو عملية بخصوص هذا العقد بعينه وإنما هي السنة التقريرية.

قال الشوكاني[(٣)]: «وليس فيها شيء مرفوع إلىٰ النبي ﷺ إلا ما أخرجه ابن ماجه من حديث صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث فيهن البركة: البيع إلىٰ أجل، والمقارضة، وإخلاط البر بالشعير للبيت لا للبيع)»[(٤)]. قال الشوكاني: «في إسناده نصر بن القاسم عن عبد الرحمن بن داود وهما مجهولان».

وهذا الحديث لا يصح الاستدلال به؛ لأنه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عماد البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، ج ١٨ ص٨٣.
(٢) أبو الحسن الماوردي، المضاربة، ص ١٠١.
(٣) الشوكاني محمد بن علي، نيل الأوطار، تحقيق: الدكتور نضر فريد محمد واصل، المكتبة التوفيقية، ج٥ ص٣٨٠.
(٤) أخرجه ابن ماجه،كتاب التجارات، باب الشركة والمضاربة، بإسناد ضعيف، رقم ٢٢٨٩.

ضعيف، والحديث الضعيف لا يستدل به في بناء الأحكام.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إذا دفع مالاً مضاربة اشترط علىٰ صاحبه ألا يسلك به بحراً ولا ينزل به وادياً، ولا يشتري به ذات كبد رطبة، فإن فعل ذلك فهو ضامن، فرفع شرطه إلىٰ رسول الله ﷺ فأجازه[1].

والمقصود من هذه الشروط هي المحافظة علىٰ المال، ولما أجاز النبي ﷺ شروط العباس رضي الله عنه عد ذلك تقريراً منه لمشروعية عقد المضاربة والتقرير أحد وجوه السنة، وعليه فالمضاربة ثابتة ومشروعة بالسنة التقريرية.

ثالثًا: الإجماع:

لقد تعامل الصحابة رضوان الله عليهم بالمضاربة ولم يوجد فيهم مخالف ولا منكر، وبذلك يحصل الإجماع ولم يخرج عليه أحد من التابعين، وأخذ به كل الأئمة المجتهدين، والدليل علىٰ إجماع الصحابة ما روي عنهم من آثار عديدة تفيد الحث علىٰ إعطاء المال مضاربة، وسأذكر بعض الآثار علىٰ سبيل المثال لا الحصر، وهي علىٰ الشكل الآتي:

- جاء في موطأ الإمام مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلىٰ العراق فلما قفلا مرا علىٰ أبي موسىٰ الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل، ثم قال: لو أقدر لكما علىٰ أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال: بلىٰ هاهنا مال من مال الله، أريد أن أبعث به إلىٰ أمير المؤمنين، فأسلفكماه فتبتاعان به متاعاً من العراق، ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلىٰ أمير المؤمنين ويكون الربح لكما، فقالا: وددنا ذلك، ففعل وكتب إلىٰ عمر بن الخطاب بأن يأخذ منهما المال، فلما قدما باعا فأربحا، فلما دفعا ذلك إلىٰ عمر قال: أكلّ الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما؟ قالا: لا، فقال عمر ابن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما، أديا المال وربحه، فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال: ما ينبغي لأمير المؤمنين هذا، ولو نقص هذا المال وأهلك لضمناه، فقال عمر: أدياه، فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ، كتاب الفرائض في سنة كتاب البيوع.

جعلته قراضـًا، فقال عمر: قـد جعلته قراضـًا، فأخـذ عمر رأس المـال ونصف ربحـه، وأخذ عبـدالله وعبيد الله ابنا عمر بـن الخطاب نصف ربح المال[١].

- روىٰ عـروة بن الزبير عن حكيم بن حزام رضـي الله عنه أنه كان يدفـع المال مقارضة إلىٰ الرجل ويشـترط عليـه ألا يمر به بطـن واد ولا يبتـاع بـه حيوانـًا ولا يحمله في بحـر، فإن فعل شـيئًا مـن ذلك ضمـن: قـال: فإن تعـدىٰ أمره ضمنه من فعل ذلك[٢].

- عن العـلاء بن عبد الرحمـن عن أبيه عن جـده: أن عثمان بن عفان رضـي الله عنه أعطاه مالاً قراضـًا يعمل فيه علىٰ أن الربح بينهما[٣].

وقد أجمعـت الأمة من بعـد الصحابة علىٰ جـواز المضاربـة، قـال الزرقـاني: «ونقلتـه - القـراض- الكافة عن الكافـة... ولا خلاف في جوازه»[٤].

وقال الكاسـاني بعد أن بين إجماع الصحابة علىٰ مشروعية المضاربة وتعاملهم بها: «وعلىٰ هـذا تعامل النـاس من لدن رسـول الله ﷺ إلىٰ يومنـا هذا في سـائر الأعصار من غيـر إنكار من أحد، وإجماع كل عصر حجة»[٥].

فهذه الآثار المروية وهذه الأقوال المذكورة تدل علىٰ مشروعية المضاربة بالإجماع.

رابعًا: القياس:

ذهـب بعـض الفقهـاء إلـىٰ أن المضاربـة شـرعت علـىٰ مقتضـىٰ القياس، لكـن جمهور الفقهـاء ذهبوا إلـىٰ أن المضاربة شـرعت علىٰ خـلاف القياس، فهـي عندهم رخصة مسـتثناة مـن الإجـارة المجهولـة، والذيـن قالـوا: بأنها علـىٰ مقتضىٰ القياس، قاسـوها علىٰ المسـاقاة والمزارعـة بجامـع أن في كل العمـل في شـيء ببعض نمائه مع جهالة العوض.

(١) الموطـأ للإمام مالك، تحقيق: الأخضري، نشـر اليمامة، الطبعـة الثانية، ١٤٢٠هـ، كتاب القراض، بـاب ما جاء في القراض، ص ٥٩٩.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب القراض، حديث رقم: ١١٦١٠.

(٣) الموطأ، كتاب القراض، باب ما جاء في القراض، ج ٣ ص ٦٠٠.

(٤) الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف، شرح الزرقاني علىٰ الموطأ، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، كتاب القراض، ج٣ ص ٤٣٧.

(٥) الكاسـاني علاء الدين بن مسـعود بن أحمد، بدائع الصنائع، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، فصل في ركن عقد المضاربة، ج٦ ص ٧٩.

قال ابن رشد الحفيد: «وإن هذا -أي القراض -مستثنىٰ من الإجارة المجهولة، وأن الرخصة في ذلك إنما هي لموضع الرفق بالناس»[١].

وقال السرخسي: «وجواز عقد الشركة بين اثنين بالمال دليل علىٰ جواز هذا العقد؛ لأن من جانب كل واحد منهما هناك ما يحصل به الربح، فينعقد بينهما شركة في الربح، ولهذا لا يشترط التوقيت في هذا العقد، ولكل واحد منهما أن ينفرد بفسخه؛ لأن انعقاده بطريق الشركة دون الإجارة»[٢]. والملاحظ أن السرخسي ذهب إلىٰ خلاف ما ذهب إليه ابن رشد.

المطلب الثاني: أركان المضاربة:

عقد المضاربة له أركان يقوم عليها، ويتحقق بوجودها، وينعدم بعدمها، وقد اختلف أصحاب المذاهب الأربعة في هذه الأركان، وهذه هي أقوالهم:

أولاً: المالكية: ذهب المالكية إلىٰ أن القراض أركانه أربعة، وهي: العاقدان، وهما: (الوكيل والموكل)، والمال، والصيغة، والجزء المعلوم من العمل[٣]. وزاد بعضهم خامساً: وهو العمل[٤].

ثانياً: الحنفية: ذهب الحنفية إلىٰ أن ركن المضاربة الإيجاب والقبول بألفاظ تدل عليهما[٥].

ثالثاً: الشافعية: جاء في نهاية المحتاج: «ولها خمسة أركان: عاقدان، ومعقود عليه، وعمل، وصيغة»[٦].

رابعاً: الحنابلة: ذهب بعض الحنابلة إلىٰ أن أركانها هي: صيغة، وعاقدان، ومال، وعمل، وتقدير نصيب العامل[٧].

وخلاصة هذه الأقوال: أن أركان عقد المضاربة عند الجمهور خمسة، وهي:

(١) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص٧٦٤.
(٢) السرخسي محمد بن أبي سهل، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، ج ٢٢ ص ١٩.
(٣) العدوي أبو الحسن علي بن أحمد، حاشية العدوي، ج٢ ص ٣٥٥.
(٤) العبدري محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف، التاج و الإكليل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ- ١٩٩٤م، ج٥ ص ٧٩.
(٥) الكاساني، بدائع الصنائع، ج٦ ص ٧٩.
(٦) الرملي شمس الدين محمد بن أبي العباس شهاب الدين، نهاية المحتاج، دار الفكر، بيروت، ج٥ ص ٥.
(٧) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج٥ ص٢٠.

الصيغة: وهي كل لفظ يدل علىٰ الإيجاب والقبول، قولاً أو كتابة أو إشارة تدل علىٰ المضاربة، وعلىٰ قصد العاقدين.

العاقدان: وهما رب المال أو من يقوم مقامه والعامل.

المال: وهو الذي يقدمه المالك، وليس كل مالٍ يصلح للمضاربة.

العمل: وهو ما يقوم به العامل مقابل جزء من الربح.

الربح: وهو القدر المتفق عليه بين كل من رب المال والمضارب.

المطلب الثالث: شروط صحة المضاربة

لقد أحاط الفقهاء عقد المضاربة بسياج من الضمانات حرصاً منهم علىٰ تحقيق مقصد الشارع في التعامل وهو منع الغبن، والتظالم بين الناس. واشترط الفقهاء لصحة المضاربة شروطاً في العاقدين وفي رأس المال وفي الربح، وهذه الشروط علىٰ الشكل الآتي:

أولاً: شروط العاقدين: (رب المال والمضارب):

يشترط فيهما أهلية التوكيل؛ لأن المضارب يتصرف بإذن صاحب المال. وبالتالي فالمضاربة فيها معنىٰ التوكيل.

قال القرافي في الذخيرة: «وفي الجواهر: لا يشترط فيهما إلا ما يشترط في الوكيل والموكل»[(١)].

وقال الخرشي عند قول خليل: (القراض توكيل...)، قال: «علم من قوله: (توكيل) أن رب المال والعامل لا بد أن يكونا من أهل التوكيل»[(٢)].

ثانيًا: شروط رأس المال.

أ- أن يكون رأس المال من الدراهم والدنانير (النقود الرائجة)، ولا تجوز المضاربة إذا كان رأس المال عروضاً أو عقاراً أو منقولاً.

قال ابن رشد: (اتفقوا علىٰ أنه يجوز

(١) القرافي شهاب الدين، الذخيرة، تحقيق: أبي إسحاق أحمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ج٥ ص١٦٦.

(٢) الخرشي محمد بن عبد الله بن علي، شرح مختصر خليل، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ج٦ ص٢٠٣.

بالدنانير والدراهم، واختلفوا في غير ذلك)[١].

وفي النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني: من كتاب محمد، قال مالك: لا يصلح القراض بغير العين[٢].

ب- أن يكون رأس المال معلوم المقدار، فالمضاربة لا تصح إذا كان رأس المال مجهولاً.

قال الشيخ خليل في تعريف القراض: «إن علم قدرهما»[٣]. قال الدردير في شرحه: «أي المال والجزء، كربع أو نصف»[٤].

ج- أن يكون رأس المال عيناً لا ديناً، فالمضاربة لا تصح على دين، ولا على مال غائب.

قال الإمام مالك: «إذا كان لرجل على رجل دين فسأله أن يقره عنده قراضاً، إن ذلك يكره حتى يقبض ماله، ثم يقارضه بعد ذلك، أو يمسك؛ وإنما ذلك مخافة أن يكون أعسر بماله، فهو يريد أن يؤخر ذلك على أن يزيده فيه»[٥].

د- أن يكون رأس المال مسلماً إلى العامل، فالمضاربة لا تصح مع بقاء يد المالك على المال.

قال الدسوقي: «قوله: (مسلم من ربه للعامل)، أي بدون أمين عليه، لا بدين عليه أو برهن أو وديعة»[٦].

ثالثاً: شروط الربح:

أ- أن يكون الربح معلوم القدر؛ لأن المعقود عليه هو الربح، وجهالة المعقود عليه توجب فساد العقد.

قال الدردير: «لو قال: الربح مشترك بيننا أو شركة، فهو ظاهر في أن له النصف؛ لأنه يفيد التساوي عرفاً، بخلاف ما لو قال له: اعمل فيه

(١) ابن رشد، بداية المجتهد، ص ١٧٨.
(٢) ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ج٧ ص٢٤٣.
(٣) الشيخ خليل، مختصر خليل، ص٢٣٨.
(٤) الدردير، الشرح الكبير على مختصر خليل، ج٣ ص٥١٨.
(٥) الإمام مالك، الموطأ، كتاب القراض، باب ما لا يجوز في القراض.
(٦) الدسوقي حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ج٦ ص٨٤.

ولك في الربح شرك، فإن المضاربة لا تجوز إلا إذا كانت هذه عادة تعيين إطلاق الشرك على النصف مثلاً، فيعمل عليها»[1].

ب- أن يكون الربح جزءاً مشاعاً في المضاربة، يجب أن يكون الربح مشاعاً بين طرفي العقد، ولو شرطا لأحدهم مائة درهم مثلاً من الربح أو أقل أو أكثر، والباقي للآخر لا يجوز[2].

المطلب الرابع: الحكمة من مشروعية المضاربة

مشروعية المضاربة من تجليات رحمة الإسلام التي وصفت بها رسالة المصطفى ﷺ، فالإسلام جاء لجلب التيسير للأمة ودفع المشقة عنهم، إذ إن الإسلام شرع هذا العقد تيسيراً على الناس وتسهيلاً لهم، فمن سنن الله تعالى في هذا الكون أن منح بعض الناس المال، ومنح البعض الآخر الذكاء وحسن التصرف، وليس كل من يملك المال يستطيع استغلاله وحسن تنميته، بل هناك الكثير من أرباب الأموال يرغب في تنمية ماله لكنه لا يملك المهارة، وفاقد لحسن التصرف في الأمور التجارية، وبالمقابل يوجد من الناس من يمتلك المهارة ويملك حسن التصرف في الأمور التجارية وتنمية الأموال، لكنه لا يملك المال، على هذا الأساس فإن جواز المضاربة يتناسب مع مقتضى العقل؛ لأن عقد المضاربة فيه الجمع بين مصلحة كل من رب المال والمضارب معاً، لكي لا يحصل للمال تعطيل عن وظيفته في خدمة المجتمع وتحقيق التنمية الاقتصادية، كما لا يحصل أي تعطيل يتعلق بالقدرات عن العمل الذي يؤدي إلى تنمية الاقتصاد كذلك، لهذه الاعتبارات وغيرها المبنية على مصالح كثيرة مع خلوها عن المفاسد التي تضر بالمجتمع، شرعت المضاربة، ومن المعلوم أن كل ما شرع الله في الإسلام إنما شرع لجلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم. يقول صاحب الهداية: «وهي -أي المضاربة - مشروعة للحاجة إليها فإن الناس بين غني بالمال وغني عن التصرف فيه، وبين مهتد في التصرف صفر اليد عنه، فمست الحاجة إلى شرع هذا النوع من التصرف لتنظيم مصلحة الغني والفقير»[3].

(١) الدردير الشرح الكبير على مختصر خليل ج٣ ص٥١٩.
(٢) انظر مزيداً من التفصيل: الدكتور صالح حميد العلي، المؤسسات المالية الإسلامية ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، دار النوادر، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، ص٢٨٥.
(٣) علي المرغيناني، الهداية في شرح بداية المبتدي، ج٣ ص٢٠٠.

المبحث الرابع: بداية ظهور عقد المضاربة الحديثة وأنواع التمويل بها في البنوك الإسلامية

المطلب الأول: بداية ظهور عقد المضاربة الحديثة

المضاربة تعد أول وسيلة تمويلية اعتمدها منظرو المصارف الإسلامية لتكون بديلاً شرعيًا لأدوات التمويل التقليدي، وعلىٰ أساس أن توظف هذه المصارف أموال المودعين التي تتلقاها.

وقد كان رائد فكرة تأسيس المصارف الإسلامية بناء علىٰ عقد المضاربة هو المرحوم الدكتور محمد عبد الله العربي في بحثه الذي قدمه إلىٰ مجمع البحوث الإسلامية في مؤتمره الثاني، والذي انعقد بالقاهرة في عام (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م) وعنوانه: المصارف الإسلامية ورأي الإسلام فيها.

وفي هذا البحث يقرر الدكتور العربي تكييف علاقة المودعين بالبنك علىٰ أنها من قبيل المضاربة، ويعتبر المودعين مجموعهم لا فرادىٰ (رب المال) والبنك (المضارب) في مضاربة مطلقة، وأن للبنك حق توكيل غيره في استثمار مال المودعين[1].

هذا التصور للعلاقة بين المودعين والبنك أخذت به بعض الدراسات، لتعتمده البنوك الإسلامية التي تم إنشاؤها بعد ذلك، وتصبح العلاقة بين المودعين الذين يودعون أموالهم في صيغة وديعة استثمارية، وبين البنوك علاقة مضاربة، المودعون فيها يمثلون (رب المال) والبنك يمثل (المضارب)، ويكون ذلك وفق القواعد المقررة لدىٰ الفقهاء، وهكذا فقد اعتمدت البنوك الإسلامية المضاربة كأسلوب من أساليب الاستثمار، إلا أن البنوك الإسلامية لم تقف عند الصورة الفقهية القديمة للمضاربة، وإنما استحدثت صوراً جديدة للمضاربة، اعتمدت كصيغ للتمويل والاستثمار.

المطلب الثاني: أنواع التمويل بالمضاربة في البنوك الإسلامية

من الصور الجديدة للمضاربة التي استحدثت والتي تطبقها البنوك الإسلامية: المضاربة المنتهية بالتمليك، والمضاربة المشتركة.

(١) انظر: د. محمد أحمد سراج، د. أحمد جابر بدران، وغيرهما، موسوعة فتاوىٰ المعاملات المالية للمصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، ج٢ ص١٤.

١ - المضاربة المنتهية بالتمليك:

المضاربة المنتهية بالتمليك: هي مضاربة استثمارية بين البنك والعميل، وهي تشبه المشاركة المنتهية بالتمليك، ولكنها تختلف عليها.

يقول الدكتور محمد عثمان شبير: «وهي (المضاربة المنتهية بالتمليك) تشبه المشاركة المنتهية بالتمليك، إلا أن الشريك في المضاربة لا يشارك في رأس المال، وإنما يشارك بعمله، ويحاول شراء حصة المصرف شيئًا فشيئًا، فلا يختلف حكمها عن حكم المشاركة المنتهية بالتمليك»[(١)].

ومن أمثلة المضاربة المنتهية بالتمليك: أن يقدم المصرف أداة للإنتاج بجزء شائع من الناتج، على أن يجنب نصيب العامل، أو جزء منه حسب الاتفاق، إلى أن يبلغ قيمة تلك الأداة، فيتنازل المصرف عن ملكيتها لصالح العامل عليها، فلو اشترى المصرف سيارة بمبلغ ما، ثم قدمها لمن يعمل عليها، واتفقا على أن يكون للمصرف ٢٥% من صافي الأرباح، وللعامل ٥٠ %، يوضع ٢٥% من الأرباح في حساب خاص حتى يبلغ ثمن السيارة، وعندها يتنازل المصرف عن ملكية السيارة لصالح العامل[(٢)].

والمضاربة المنتهية بالتمليك تتضمن العناصر الآتية:

أ- شركة مضاربة في بدايتها.

ب- وعد من المصرف ببيع حصة للمضارب.

ج- بيع المصرف حصة للشريك جزئيًا أو كليًا، فالمضارب يصبح شريكًا في السلعة عندما يدفع أول حصة (قسط)، بالإضافة لكونه مضاربًا.

د- شركة عنان ومضاربة عند تسديد المضارب أول حصة للمصرف.

إذن هذه المعاملة تجمع بين عناصر جائزة مشروعة، وليس فيها ما يخالف نصًا شرعيًا[(٣)].

(١) الدكتور محمد عثمان شبير، المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، دار النفائس الأردن، الطبعة السادسة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٨م، ص ٣٤٢.

(٢) الدكتور صالح حميد العلي، المؤسسات المالية الإسلامية ودورها في التنمية الاقتصادية، ص٢٩٠.

(٣) الدكتور صالح حميد العلي، المؤسسات المالية الإسلامية ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ص٢٩٠-٢٩١.

٢- المضاربة المشتركة:

المضاربة المشتركة من الصور الجديدة التي تطبقها البنوك الإسلامية، وهي الصيغة التعاقدية المطورة للمضاربة الفردية، أي المضاربة المعروفة في الفقه الإسلامي، فقد تم تطوير العلاقة السابقة بين المودعين والمصرف علىٰ أساس أنها علاقة مضاربة يمثل المودع فيها (رب المال) والمصرف (المضارب)، إلىٰ علاقة بين المودعين والمصرف علىٰ أساس المضاربة المشتركة، وليس المضاربة الفردية الفقهية، والمضاربة المشتركة تتكون من ثلاثة أشخاص، وهم: ملاك الأموال، والعاملون فيها، والجهة الوسيطة بينهما وهو البنك، وعليه فالمضاربة المشتركة ليست علاقة ثنائية كما هو الحال في المضاربة الفردية، وإنما هي علاقة ثلاثية.

وصورة المضاربة المشتركة أن يعرض البنك الإسلامي علىٰ المودعين أصحاب الأموال استثمار أموالهم علىٰ أساس أنه مضارب، ثم يعرض البنك علىٰ أساس أنه صاحب المال أو وكيل عن أصحاب الأموال علىٰ أصحاب المشروعات الاستثمارية استثمار رأس المال الذي جمعه من المودعين الذين عرض عليهم استثمار أموالهم، وتوزع الأرباح حسب الاتفاق بين الأطراف الثلاثة وتقع الخسارة علىٰ أصحاب الأموال فقط.

الخطوات العملية للمضاربة المشتركة[١]:

أ- يتقدم أصحاب رؤوس الأموال بمدخراتهم بصورة فردية إلىٰ المصرف الإسلامي، وذلك لاستثمارها لهم في المجالات المناسبة.

ب- يقوم المصرف بدراسة فرص الاستثمار المتاحة والمرشحة للتمويل.

ج- يخلط المصرف أموال أصحاب رؤوس الأموال ويدفع بها إلىٰ المستثمرين كل علىٰ حدة، وبالتالي تنعقد مجموعة من شركات المضاربة الثنائية بين المصرف والمستثمر.

د- تحتسب الأرباح في كل سنة بناء علىٰ ما يسمىٰ بالتنضيض[٢] التقديري، أو التقويم

(١) محمد عثمان شبير، المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، ص٣٤٣.

(٢) التنضيض في اللغة: من نض المال إذا ظهر وحصل، ويقال لما تيسّر وحصل من الدين: ناضا، ويقال: نضّ الثمن إذا حصل وتعجل،

لموجودات الشركة بعد حسم النفقة.

هـ- توزع الأرباح بين الأطراف الثلاثة: صاحب رأس المال، والمصرف، والمضارب.

٣- الفرق بين المضاربة المشتركة والمضاربة الفقهية (الثنائية):

المضاربة المشتركة التي تطبقها البنوك الإسلامية تعتبر من صور المضاربة الجديدة كما رأينا، وبالتالي فهي تختلف عن المضاربة الفقهية من عدة وجوه، منها:

أ- المضاربة المشتركة لها ثلاثة أطراف، وهم: صاحب رأس المال، المصرف، والمضارب، وجميعهم يستحقون الأرباح إذا حصلت، في حين المضاربة الفردية لها طرفان: صاحب المال، والمضارب المستثمر.

ب- المضاربة المشتركة فيها الخلط المتلاحق للأموال المستثمرة في المضاربة، أما الفردية فليس فيها خلط.

ج- المضاربة المشتركة تقوم على أساس استمرارية الشركة؛ لأن من صفاتها ما تنتهي بسنة ومنها ما يحتاج إلى أكثر من سنة.

د- يكون في المضاربة المشتركة ضمان رأس المال، في حين لا يجوز ذلك في المضاربة الفردية[1].

المبحث الخامس: تعريف العقار

لابد في هذا المبحث من تعريف العقار حتى نعرف ما المقصود بالتطبيقات العقارية في البنوك التشاركية، والحديث عن مدلول لفظ العقار في البداية يقتضي التعريف به في اللغة ثم في الفقه الإسلامي.

المطلب الأول: العقار في اللغة

جاء في مختار الصحاح: «و(العقار) بالفتح مخففاً: الأرض والضياع والنخل، ويقال: في البيت عقار حسن، أي متاع وأداة»[2].

وقال ابن منظور: «(العقار): المنزل

وأهل الحجاز يسمون في لغتهم الدراهم والدنانير خاصة نضًا، ويقولون: (نض المال)، ويعنون به صيرورته نقداً بعد أن كان متاعًا، انظر: حماد نزيه، معجم المصطلحات الاقتصادية.

(١) الدكتور محمود عبد الكريم إرشيد، المدخل الشامل إلى معاملات وعمليات المصارف الإسلامية، دار النفائس الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، ص١٠٠-١٠١.

(٢) الرازي مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ص٢١٤.

والضيعة، يقال: ما له دار، ولا عقار»[1].

وقال أيضاً: «(العقار) بالفتح: الضيعة والنخل والأرض ونحو ذلك»[2].

المطلب الثاني: العقار في الاصطلاح

لم يعط الفقهاء تعريفاً موحداً للعقار، لكن تعاريفهم في المجمل متقاربة المعني، وسأقتصر علىٰ تعريف فقهاء المالكية إذ يعرفون العقار بأنه: كل شيء لا يمكن نقله أبداً، أو لا يمكن نقله إلا بتغيير هيئته، وهذا معناه: أن كلمة عقار كما تطلق علىٰ الأرض تطلق كذلك علىٰ الأشجار والبنايات وما يتصل بها مما لا يمكن نقله إلا بتغيير هيئته، ويفهم من هذا أن كل ما من شأنه أن يستقر ولا يتنقل أبداً أو لا ينتقل إلا إذا تغيرت هيئته ولحقه تلف يعتبر عقاراً.

يقول الدسوقي: «و(قبض العقار)، وهو الأرض وما اتصل بها من بناء وشجر»[3].

ويقول التسولي: «وفي (الأصول) الأرض وما اتصل بها من بناء وشجر»[4].

بمعنىٰ: أن الأصول هي الأرض وما يتصل بها اتصال قرار من البنايات والحيطان والشجر الذي جذوره مغروسة في الأرض، وعليه يمكننا أن نقول: العقار مفرد، وجمعه عقارات وهو الأرض والمنشآت التي توجد علىٰ الأرض، ومنها البيوت والشقق والمحلات التجارية وشبه ذلك. وهذا هو المراد في هذا البحث، وهو التطبيقات العقارية بالمضاربة في البنوك التشاركية.

المبحث السادس: التمويل العقاري بالمضاربة في البنوك التشاركية

في هذا المبحث الأخير نصل إلىٰ التطبيقات المعاصرة للمضاربة، التي يمكن للبنوك التشاركية تطبيقها. فبعدما رأينا مفهوم عقد المضاربة في الفقه الإسلامي، وحكمه ومشروعيته وصوره المعاصرة وصلنا إلىٰ خلاصة مفادها: أن المضاربة صيغة شرعية لها تأصيلها في الفقه الإسلامي الحالي متحررة من كل الشبهات، ولها الفضل في أن تكون صيغة

(١) ابن منظور، لسان العرب، فصل العين المهملة، ج٤ ص٥٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص٥٩٧.
(٣) الدسوقي، حاشية الدسوقي علىٰ الشرح الكبير، دار الفكر، ٢٠١٦م، فصل في أحكام الخيار، ج٣ ص٢٢٣.
(٤) التسولي، البهجة في شرح التحفة، ضبطه وصححه: محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ج٢ ص ١٧٨.

استثمارية تستعملها البنوك التشاركية، والتي تحقق التوازن والعدالة لكل الأطراف، فعقد المضاربة له عدة تطبيقات معاصرة، ومن بينها التطبيقات العقارية، بمعنىٰ أن البنوك التشاركية تقوم بتمويل المشاريع العقارية انطلاقاً من عقد المضاربة، وهذه المشاريع ستسهم في الحصول علىٰ المسكن بطرق مشروعة مخالفة لأسلوب القرض التقليدي.

ومعلوم أن المسكن من الحاجات الضرورية للإنسان، والنشاط العقاري يمثل أحد الأنشطة الهامة في الاقتصاد في الوقت المعاصر، ويؤثر علىٰ العديد من الأنشطة الاقتصادية الأخرىٰ، وإذا ما حللنا الواقع المغربي، سنجد أن مشكلة سوق العقارات هي نقص القوة الشرائية لطالبي المساكن؛ نظراً لارتفاع الأثمنة بشكل مهول؛ لأن آليات التمويل تتمثل أساساً في الاقتراض بفائدة، هذا قبل وجود البنوك التشاركية، أما وقد ولد هذا المولود، وأصبح واقعاً عملياً فمن هنا يتطلب البحث عن أسلوب بديل لعلاج هذه المشكلة، ولا يكون ذلك إلا بالتوجه نحو الأسلوب الشرعي، ومن أمثلته: التمويل العقاري عن طريق المضاربة، وتنبق الحاجة إلىٰ التوجه الشرعي علىٰ أن المقصود من الشريعة الإسلامية هي تحقيق مصالح الناس بجلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم بالنسبة لمقومات الحياة الخمس وهي: الدين والنفس والعقل والمال والنسل، والإسكان من الضروريات التي يجب توفيرها لقيام حياة الناس.

هذه الأمور وغيرها تجعل أنه من الملائم التوجه إلىٰ هذه الآليات التمويلية الإسلامية التي تكلمت عليها لتنشيط السوق العقاري من طرف البنوك التشاركية المولود الجديد في هذا المجال، باعتبارها تمثل إحدىٰ الخطوات العملية في ترجمة المبادئ إلىٰ برامج، وإيجاد الأوعية الشرعية لنشاط المسلم الاقتصادي. ومن بينها كما ذكرت: التمويل عن طريق المضاربة، ويمكن أن يتم استخدام المضاربة في تنشيط السوق العقاري من خلال قيام البنك التشاركي بالتخطيط لإنشاء مبنىٰ مثلاً، ويتم إنشاء هذا المبنىٰ انطلاقاً من عقد المضاربة، سواء كانت مضاربة ثنائية، بأن يكون البنك التشاركي هو رب المال ويقدمه لشركة ما من أجل بناء وحدة سكنية، أو عن طريق المضاربة المشتركة التي رأيناها في هذا المقال، وبعد ذلك تباع كل وحداته بالتقسيط ويوزع الربح

حسب النسبة المحددة التي اتفق عليها.

ومن التطبيقات العقارية التي يمكن للبنوك التشاركية تطبيقها كذلك أن يتم إنشاء تجزئة سكنة، تتكون من بقع أرضية، وتباع هذه البقع بالتقسيط بمثل الصورة السابقة، وغير ذلك من التمويلات العقارية، وهكذا سيحقق هذا العمل عدة أمور من بينها: الإسهام في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ لأن استخدام صيغة المضاربة من شأنه زيادة عدد المشاريع الإنتاجية والاستثمارية، كما يمكن لعقد المضاربة أن يطبق في كافة أوجه النشاط الاقتصادي، الأمر الذي يمكن أن يسهم في زيادة فرص العمل، وبالتالي التشغيل، وضمان دخل لأفراد المجتمع، وأما على المستوى العملي فقد تم تنفيذ هذا الأسلوب من طرف بعض المصارف الإسلامية وحقق نجاحًا يختلف من بنك إسلامي إلى آخر حسب طبيعة البنك وحسب البلد الذي يوجد فيه.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم نصل إلى خلاصة مفادها: أن المضاربة صيغة شرعية لها تأصيلها في الفقه الإسلامي، ولها الفضل في أن تكون صيغة تمويلية استثمارية تطبقها البنوك التشاركية لتسهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والمضاربة من خلال مفهومها الذي رأيناه تتيح للاقتصاد، والمجتمع، وأفراده، التوسع في النشاطات الاقتصادية اعتماداً على الربط بين المال الذي يملكه طرف، ولا يستطيع استخدامه في ممارسة النشاطات الاقتصادية، وبين طرف آخر يستطيع ذلك ولا يملك المال، وبذلك تتاح فرصة استخدام كل من العمل ورأس المال، ومما يمكن استنتاجه من خلال هذا المقال ما يلي:

* المضاربة وسيلة من الوسائل التي يستطيع بها الفرد المسلم أن يتوصل إلى الربح الحلال عن طريق استغلال أمواله وفق المنهج الشرعي.

* المضاربة يمكن للبنوك التشاركية أن تطبقها في مجال العقار وتحقق من خلالها نتائج اقتصادية حسنة.

* المضاربة تسهم في توفير فرص الاستخدام والتشغيل لكل من العامل وصاحب المال، وبذلك تسهم في معالجة البطالة وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

*المضاربة تسمح بإقامة الأنشطة الاقتصادية، وذلك يسهم في تجاوز بعض الصعوبات في المجتمع، ومن بينها الحصول علىٰ السكن.

*المضاربة تشجع علىٰ الاستثمار والابتعاد عن السلوك غير الصحيح الذي يمثله الاكتناز لتحرير الموارد المالية المكتنزة وتشغيلها في الأنشطة الاقتصادية.

لائحة المصادر والمراجع:

١- الاستذكار، للإمام الحافظ ابن عبد البر، علق عليه ووضح حواشيه: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد بن أحمد بن رشد الحفيد، حققه وعلق عليه: أبو أوس البكر، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ٢٠٠٩م.

٤- البهجة في شرح التحفة =شرح تحفة الأحكام=، للفقيه علي بن عبد السلام بن علي ابن الحسن التسولي، ضبطه وصححه: محمد ابن عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٥- تاج العروس، لمرتضىٰ الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٦- التاج والإكليل، لمحمد بن يوسف ابن أبي القاسم بن يوسف العبدري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ- ١٩٩٤م.

٧- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: عماد البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية.

٨- حاشية الدسوقي علىٰ الشرح الكبير، لمحمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، دار الفكر، ٢٠١٦م.

٩- حاشية الصاوي علىٰ الشرح الصغير، لأبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي المشهور بالصاوي، دار المعارف.

١٠- حاشية العدوي، لأبي الحسن علي بن

أحمد العدوي.

١١- الذخيرة في فروع المالكية، للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن الصنهاجي المصري المعروف بالقرافي، تحقيق: أبي إسحاق أحمد عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

١٢- سنن ابن ماجه، لابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ).

١٣- السنن الكبرىٰ، لإمام المحدثين الحافظ الجليل أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤- شرح الخرشي، للإمام محمد بن عبدالله بن علي الخرشي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٥- شرح الزرقاني علىٰ موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

١٦- فتح القدير، لكمال الدين محمد بن عبدالواحد السيواسي المعروف بابن الهمام، دار الفكر.

١٧- القوانين الفقهية، لأبي القاسم محمد ابن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، دار الرشاد الحديثة، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

١٨- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٩- المبسوط، لمحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢٠- المحلىٰ بالآثار، لأبي محمد بن علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الفكر، بيروت.

٢١- مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبد الله القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٢٢- المضاربة، للماوردي، تحقيق ودراسة: عبدالوهاب حواس، دار الأنصار، القاهرة.

٢٣- المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، للدكتور محمد عثمان شبير، دار النفائس، الأردن، الطبعة السادسة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م.

٢٤- المغني، لابن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

٢٥- موسوعة فتاوى المعاملات المالية للمصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، تصنيف ودراسة مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، دار السلام، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٢٦- الموطأ، للإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وشرح غريبه: أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضري، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٢٧- المؤسسات المالية الإسلامية ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، للدكتور صالح حميد العلي، دار النوادر، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٢٨- نيل الأوطار، للعلامة محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: الدكتور ناصر فريد محمد واصل، المكتبة التوفيقية.

٢٩- نهاية المحتاج، لشمس الدين محمد ابن أبي العباس الرملي، دار الفكر، بيروت.

٣٠- النوادر والزيادات، لأبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

❊ ❊ ❊ ❊

علماء الإسلام القدامى،
وموقفهم من المعارف الحديثة

د. رائد أبورية

إن الواقع الذي لا مرية فيه أن الشعوب الإسلامية الآن تتسول العلوم والمعارف من الغرب وتستورد كل ما تحتاجه من الضروريات والكماليات في شتىٰ المجالات.

بينما تجد الغرب يركّز علىٰ ما يحتاجه المسلمون ويقومون بتصنيعه لهم حتىٰ في المنتوجات الإسلامية لكل بلد ما يحتاجه؛ فيصنعون لدول الخليج سجادة الصلاة، والأثواب البيضاء، وما يسمىٰ (الغُترة).

ويصنعون لأهل مصر بعض المظاهر المتعلقة بالشعائر الدينية (فانوس رمضان).

كما فاجأني صناعتهم للعمامة التي يلبسها علماء الأزهر ومشايخه... وهكذا.

وقد سمعت الداعية المعروف المرحوم الشيخ/ محمد الغزالي يقول:

لو جردت نفسي من ملابسي المستوردة من الغرب لوقفت أمامكم عارياً.

وبعد، فهذه نماذج لأمور تافهة تدخل فيها الغرب بيده وعقله في كسب ثقة الحضارة الغربية الحديثة.

وهذه التدخلات الظاهرية يمكن التغاضي عنها وتمريرها، لكن الذي لا يمكن غض الطرف عنه هو التسليم لهم في كافة المجالات العلمية والتجريبية التي تتحكم في مصائر الأمم.

فصناعة سلاحنا والتحكم في قدراته ومدة فعاليته بأيدٍ غربية، وصناعة دوائنا جودةً ورداءةً بأيدٍ غربية، واستخراج ثرواتنا من بواطن أرضنا وأعماق بحارنا بأيدٍ غربية، واكتشاف أسرار الكون والفضاء بأيدٍ غربية بينما لم تقلع سفينة فضائية عربية واحدة حتىٰ الآن، واستخراج الأحجار الكريمة والنفيسة من جبالنا كذلك بأيدٍ غربية.

إن المسلمين إن لم يلحقوا بهذا الركب الحضاري فلن يكون لهم وجود حقيقي بين الأمم في عصر لا يعترف بوجود الكسالىٰ.

يرجع السبب الحقيقي في تأخر المسلمين اليوم إلىٰ إهمالهم وتفريطهم في العلوم الكونية والعلمية، وليس في الإسلام ذاته، فالإسلام دين العلم، وقد حثهم عليه وأمرهم بالبحث والنظر وكانت أول آياته نزولاً: (اقرأ)؛ دعوةً للعلم والمعرفة في شتىٰ المجالات.

يقول الأستاذ العقاد:

(وفضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة، ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم، وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن الطلب، وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر؛ لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم)[1].

ومعنى هذا أنه ليس هناك من دليل علمي يؤكد أن الإسلام كان مصدر هذا التخلف، وإنما التخلف كان مصدره انحراف كثير من المسلمين عن أصول الإسلام، وقطيعتهم التامة للعلوم العملية لدرجة أن (ذهب البعض إلى إعلان الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية وعلى الفنون والصناعات بدعوى أنها من علوم الكفار، وهذا يجلب الخطر والضرر على الإسلام والمسلمين، إذ يقصيهم عن اللحاق بركب التقدم في مجالات الحضارة والمعرفة)[2].

إنها صورة محزنة من التدين بعيداً عن التبصر بالواقع، تعيش خارج حدود الزمان والمكان، وبذلك تفقد غايتها، والسبب في فقد المسلمين غايتهم الكبرى يرجع إلى بعدهم عن العلوم الكونية وربط (العلاقة بين الدين وعلوم الكون والحياة، والبحث المتواصل في ملكوت الله، وفقدوا غايتهم حين قصروا همتهم، عن طلب العلم بعظائم خلق الله في الأرض، واستكشاف بدائع صنعه في الآفاق)[3].

وهذا يتطلب تحولاً جذرياً في العقلية الإسلامية، التي تنسجم مع التعاليم الإسلامية؛ لتلحق بركب العلم والحضارة، التي تسير بسرعة البرق، يأثم المسلمون إن هم تكاسلوا عنه.

إن سلفنا الصالح حين استلهموا كتاب ربهم وتدبروه ، قادهم إلى أمة هي خير الأمم، وأبدعوا حضارة شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه، فكان لهم هذا السبق الهائل في بناء هذا الصرح العلمي الحضاري في جميع المجالات.

وإليك بعض العلوم التي برع فيها المسلمون بإيجاز:

(١) أ/ محمود عباس العقاد: الفلسفة القرآنية، ط دار الهلال، ١٩٨٨م، ص١٣.
(٢) د/ عاصم أحمد عجيلة: حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي، ص١٥٣.
(٣) د/ محمد محمود النجار: الأمة الإسلامية والقرن الحادي والعشرون، ص٣٢.

١ - علم الفلك:

لقد اهتم المسلمون بعلم الفلك ودراسته، من أجل مقاصد شرعية كتحديد أوائل الشهور، التي ترتبط بها بعض العبادات مثل: شهر رمضان، وأشهر الحج، وكتحديد مواقيت الصلاة.

(فكان لذلك أثر في انتشاره وتقدمه، وكان الدين الإسلامي وراء هذا الاهتمام، حيث توجد إشارات كثيرة في القرآن الكريم إلىٰ السماء والنجوم والشمس والقمر والأجرام السماوية وأفلاكها، وسيرها، وكثير من الفرائض الإسلامية يعتمد علىٰ الظواهر الفلكية، فالصلاة والحج كلها تحتاج إلىٰ بيانات دقيقة عن سير الشمس وموقعها في السماء ومغيبها وشروقها ومعرفة ظهور الهلال، وتحديد شهر الصوم، ومعرفة أشهر الحج، كل هذا يتطلب معرفة بالفلك)[١].

فكان لعلماء المسلمين الباع الأطول في علم الفلك، فوضعوا الكثير من البحوث المبتكرة في هذا الفن وتوسعوا فيه؛ لمعرفتهم بالحساب والرياضيات.

ومن أبرز رواد علم الفلك في الحضارة الإسلامية «البتاني»[٢].

يقول عنه المؤرخون:

(إنه أحد العشرين فلكيًا المشهورين في العالم، وقد استخدم الهندسة والجبر وحساب المثلثات في دراسة علم الفلك، وذلك في القرن الثامن الميلادي، ووضع في هذا المجال كتابًا أسماه: (الزيج الصابي أو علم النجوم)، أوضح فيه تعليل حركات الشمس والقمر والكواكب والفلك كله، وقد ترجم هذا الكتاب إلىٰ اللاتينية في عام ١٥٣٧م، وأعيد طبعه مرة أخرىٰ عام ١٦٤٥م، أما النسخة الخطية من هذا الكتاب فمحفوظة في مكتبة الفاتيكان كأول

(١) د/ حامد الشافعي دياب : الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٤٥.

(٢) (هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتاني (٨٥٠ - ٩٢٩) عالم فلكي مسلم ولد في مدينة بتان من نواحي حران من مناطق الأكراد الواقعة علىٰ نهر الفرات في سوريا، مهندس وجغرافي وفلكي ورياضي، من مشاهير أعلام العلوم الطبيعية... ولد سنة ٢٤٠ هـ الموافق ٨٥٤م، وعاش في عصر ازدهار العلوم في عهد الخليفة المأمون بن الخليفة هارون الرشيد، و للبتاني مؤلفات عديدة هامة في الفلك والدراسات الفلكية والنجوم والحساب ويعد من طليعة الفلكيين المسلمين المبدعين، ومن أهم مؤلفاته: (معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك)، توفىٰ سنة ٩٢٩م . (شبكة الإنترنت: من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

ما كتب في علم الفلك)[١].

كما قامت أبحاثه علىٰ التجربة؛ من أجل الوصول إلىٰ القوانين العملية.

يقول الأستاذ أنور الجندي عنه: (لقد سبق عصره في نظريات العلوم الطبيعية، وأدرك أن سرعة الضوء تزيد علىٰ سرعة الصوت زيادة هائلة... وله نظرات متعددة في الفلك فيقول: أما عن دوران الأرض وانقذاف ما علىٰ سطحها في الفضاء من حيوان ومساكن فالجاذبية تمسكهم، فكل شيء علىٰ الأرض مرتبط مدفوع إلىٰ مركز الأرض)[٢].

ومما يدل علىٰ اهتمام المسلمين الأوائل بعلم الفلك وتوسعهم فيه، أن نقل الأوربيون عنهم أكثر مصطلحات علم الفلك بأصلها العربي.

(وقد نجح العرب في جعل علم الفلك علماً قائماً بذاته نقياً من خرافات التنجيم، وجعلوه علماً استقرائياً عملياً يقوم علىٰ أساس المشاهدة والاستنتاج. وما زال علم الفلك حتىٰ اليوم مليئاً بالاصطلاحات العربية وأسماء الأبراج والكواكب والنجوم والتي أخذها الأوربيون من العربية دون تحريف مثل: الطرف[٣]، والأرنب[٤]، والبطين[٥]، وغيرها)[٦].

ويمكن للمسلمين اليوم أن يتفوقوا مرة أخرىٰ في مجال علم الفلك، بشرط أن يتمسكوا بقرآنهم، وأن يستحضروا روح تعاليمه.

٢ - علم الفيزياء:

لقد تفوق المسلمون تفوقاً باهراً في مجال الفيزياء، خاصة في البصريات، ومن أبرز رواد علم الفيزياء في الحضارة الإسلامية «الحسن

(١) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص١٠٨.
(٢) أ/ أنور الجندي: الفكر الإسلامي (مقدمات في العلوم والمناهج)، (جـ١/ ٦٠).
(٣) (وهما نجمان خافتان الأول علىٰ فك السرطان والثاني عين الأسد، وأمام الطرفة كواكب كثيرة خافتة يقال لها الأشعار). (شبكة الإنترنت: الموسوعة الجغرافية).
(٤) (هو برج من أبراج السماء الشتوية). (شبكة الإنترنت: موقع إحساس عيون الكون).
(٥) (ويسمىٰ بطن الحمل وهي ثلاثة نجوم ورمزها الفلكي الحديث (إبسيلون. سيغما. رو) من الحمل، ونوء البطين ثلاثة أيام وكان عند العرب من شر الأنواء وأنذرها مطراً). (شبكة الإنترنت: الموسوعة الجغرافية).
(٦) د/ إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ط ١ العبيكان - الرياض - ١٩٩٧م، ص٩٣.

ابن الهيثم»[1]- رائد علم الفيزياء - الذي اتخذ في طريقة بحثه منهجاً علمياً بحتاً.

(فأعلن الحسن بن الهيثم أن العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي هي:

١- الاستقراء والقياس.

٢- الاعتماد علىٰ المشاهدة.

٣- التجربة والتمثيل... وقد كشف أن غرضه من بحوثه «استعمال العدل لا اتباع الهوىٰ». وقاعدته التجرد عن الهوىٰ والإنصاف بين الآراء)[2].

فيذكر ابن الهيثم جملة من خصائص هذا المنهج العلمي، الذي أقام عليه بحثه من ذلك، الاستقراء والقياس، والاعتماد علىٰ الملاحظة[3] والتجربة ، والتحلي بالأخلاق السامية. (وهو أول من قرر بأن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه المنظور، بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة إلىٰ العين التي تراها بواسطة جسمها الشفاف... وهو الذي تنبأ ببناء السد العالي في مصر، وقال وهو في البصرة: لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل النفع به في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان)[4].

وهكذا جعل ابن الهيثم علم الضوء يتخذ صفة جديدة كانت غائبة؛ فقد كان يعتقد قديماً أن رؤية الأشياء تتم بخروج شعاع من العين إلىٰ الجسم الذي تبصره، فصحح هذا المفهوم الخاطيء، وأكد أن الأشياء المرئية هي التي تعكس الأشعة علىٰ العين فتبصرها، ومن ثم فقد كانت نظرياته هي الأساس الذي قام عليه علم الضوء الحديث.

(وتعترف دائرة المعارف البريطانية أن كتابات ابن الهيثم في الضوء أوحت اختراع

(١) (ولد في عام ٣٥٤هـ - ٩٦٥م في البصرة، بدأ حياته في أزهىٰ عصور الحضارة الإسلامية من الناحية العلمية... دأب ابن الهيثم علىٰ تحصيل العلوم الفلكية والرياضية، له بحوث مبتكرة في علم الضوء، وهي الأساس الذي قام عليه علم الضوء الحديث) . انظر المصدر السابق، ص٧٦-٧٧، باختصار.

(٢) أ/ أنور الجندي: الفكر الإسلامي، (جـ١/ ٦١).

(٣) الملاحظة هي: (المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما، وتنحصر في أن يوجه حواسه وعقله إلىٰ طائفة خاصة من الظواهر، لا لمجرد مشاهدتها، بل لمعرفة صفاتها وخواصها). ينظر: د/ عبدالرحمن عميرة: أضواء علىٰ البحث والمصادر، ط٦ - بيروت - ١٩٩١م، ص٤٧.

(٤) أ/ أنور الجندي: عيون التراث وذخائر التاريخ، ص١٤.

النظـارات، وثبـت أن ابـن الهيثـم هـو واضـع أسـاس الطريقـة العلميـة الحديثـة، وقـد أتـى بتجـارب رائعـة للتحقق من صحـة النظريات، وهـذه التجـارب هـي التـي نجربهـا الآن في المدارس الثانوية والعالية)[١].

وأعلـن ابـن الهيثـم أن الهـدف الأسـمى والمغزى من بحوثه: ((استعمال العدل لا اتباع الهوى)، وقاعدته التجرد عن الهوى والإنصاف بين الآراء)[٢].

وجاء من بعده «كمال الدين الفارسـي»[٣]، الذي كان امتداداً لابن الهيثم.

(واسـتهواه مـا كتبـه ابـن الهيثـم في علـم المناظر، وهو الجزء الخـاص بالضوء من علم الطبيعـة فـدرس نظرياتـه، ووضـع كتابـاً فيها مـا زال يحتفظ بـه في معظم المكتبـات العلمية العالمية واسـمه «تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر».

هـذا الكتاب مـن أهم مراجع علـم الضوء، ونجـد نسـخة خطيـة منـه في مكتبـات ألمانيا، وقـد ترجم هـذا الكتاب إلى اللاتينيـة والعبرية والهندية واللغة الأوربية)[٤].

وهـذا مـا يؤكـد نبـوغ المسـلمين في علوم الضـوء نبوغـاً جعلهم يعتـبرون أنفسـهم أنهم رواد هذا العلم وقادته!.

٣ - علم الكيمياء:

لقد أسـهم المسـلمون بأكبر نصيب في هذا الميدان، بحيث لا ينكره أي مكابر، فقد أخذت عنهـم أوربـا، وترجمـت كتبهـم إلـى اللغـات الأخرى المتعددة.

(وكتـب الكيميـاء التي وضعها المسـلمون كثيـرة تثبـت تفوقهم التـام في هذا العلـم، ففي مكتبات فرنسا وألمانيا وإيطاليا أكثر من (٣٠٠) كتـابٍ في مختلف فـروع الكيمياء وأبحاثها، بل في المتحف البريطـاني مايربوا على (٨٠) كتابـاً

(١) سمير الحفناوي: السبق العلمي لعلماء العرب، ط مكتبة الإيمان- المنصورة - ٢٠٠٨م، ص٩-١٠.
(٢) أ/ أنور الجندي: الفكر الإسلامي (مقدمات العلوم والمناهج)، مرجع سابق، (جـ١/ ٦١).
(٣) (كمال الدين الفارسـي (٦٦٥- ٧١٨هـ/ ١٢٦٦-١٣١٩م): هو كمال الدين الحسـن بن علي بن الحسن الفارسي أحد موسوعي عصـره البارزين في مجالي الرياضيـات والفيزياء، ولد في إيران،... أبدى كمال الدين ملاحظـات دقيقة حول علم المناظر الجوية وتأثير الألوان، ومن مؤلفاته في الفيزياء «تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر» ، وهو من الذخائر القيمة في التراث العلمي الذي خلفه العلماء العرب) .(شبكة الإنترنت: الموسوعة العربية).
(٤) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٨٩-٩٠.

اتخذها علماء الكيمياء بانجلترا مراجع لدراسة هذا العلم)[١].

ولقد نبغ في علم الكيمياء كثير من المسلمين، نذكر منهم «جابر بن حيان»[٢]، الذي يعد من رواد علم الكيمياء في العالم.

(فلم تكن الكيمياء قبله علماً قائماً علىٰ التجربة العلمية، بل كانت نوعاً من الصناعة يتناقلها الناس بلا تجربة أو مشاهدة. ولهذا سمي «جابر بن حيان» برائد علم الكيمياء، وارتبط اسمه في الشرق والغرب بأول من وضع الكيمياء علىٰ أسس علمية، حتىٰ إن جامعات أوربا في مطلع النهضة الأوربية لا تعتمد علىٰ مراجع في علم الكيمياء غير كتب جابر بن حيان)[٣].

ولذا فإن جابر بن حيان يعد من ألمع علماء الكيمياء في العالم، لقد سبق الغرب في الالتجاء إلىٰ التجربة؛ للتحقق من صحة بعض النظريات؛ وإليه يرجع الفضل في استحضار كثير من الحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة، فهو أول من (استحضر الحامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشبّه وسماه «زيت الزاج» ، واستحضر أيضاً حامض النتريك، وأول من كشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب)[٤].

كما قام بتحليل كثير من المواد المختلفة عن طريق البحث والتجربة، فتوصل إلىٰ نتائج رائعة لم يسبقه فيها غيره فمن (أدلة نبوغ جابر في الكيمياء أنه توصل إلىٰ تحضير مداد مضيء استخدم في كتابة المخطوطات الثمينة لإمكان قراءتها في الظلام... كما اخترع صنفاً من الورق غير قابل للاحتراق، واكتشف نوعاً من الطلاء إذا عومل به الحديد لا يصدأ وإذا وضع علىٰ الثياب لا تبتل... ولقد حاول جابر أول محاولة من نوعها في العالم تهدف إلىٰ تحقيق الأمل الذي يراود علماء الكيمياء حتىٰ الآن... ألا وهو تحضير الذهب من مواد أولية، وقد

(١) المصدر السابق، ص٤٩.

(٢) (هو أبو موسىٰ جابر بن حيان الذي ولد سنة ١٠٠ هجرية، أي سنة ٧٢٠ ميلادية، ومات وعمره ٩٣ سنة، أطلق عليه شيخ الكيميائيين في الإسلام، له كتب متعددة في الكيمياء منها: الموازين، ما بعد الطبيعة). أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٥٠-٥٥.

(٣) د/ إسماعيل أحمد ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص٧٣.

(٤) أ/ أنور الجندي: أضواء علىٰ الفكر العربي الإسلامي، ط الدار المصرية للتأليف، ١٩٦٦م، ص٤٥.

تمكن من تحضير معدن ذي لون أصفر براق يتعذر التمييز بينه وبين الذهب)[١].

كما قام جابر بن حيان بوضع إشارات لكل من أراد التجربة في الكيمياء، وأوصىٰ من يقوم بالتجربة بوصايا غالية جامعة!.

(فدعا إلىٰ الاهتمام بالتجربة وقال: إن واجب المشتغل بالكيمياء هو العمل وإجراء التجربة، وأن المعرفة لا تحصل إلا بهما، ودعا إلىٰ الصبر والمثابرة والتأني في استنباط النتائج)[٢].

ومن ثم يمكن القول بأن علماء المسلمين هم الذين ابتكروا الكيمياء، وأضافوا إضافات هامة في هذا المجال جعلتهم في عداد الخالدين المتقدمين في علم الكيمياء لماذا؟ (لأنهم أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجارب العلمية والعناية برصد نتائجها في حين اقتصر اليونانيون علىٰ الخبرة الصناعية والفرضيات الغامضة)[٣].

٤ - الرياضيات:

لقد كان للمسلمين السبق في البحث في الرياضيات، خاصة علم الجبر، الذي اخترعه «الخوارزمي»[٤]، الذي يعد من رواد علم الرياضيات في العالم، أخذت عنه أوربا، وترجمت كتبه إلىٰ اللغات الأخرىٰ.

(وأنه أول من وضح الجبر بشكل مستقل عن الحساب، وقد بوّبه ورتبه وزاد عليه زيادات هامة تعد أساساً لكثير من بحوثه. وعلم الجبر هذا من أعظم أوضاع العقل البشري لما فيه من دقة وإحكام في القياسية)[٥].

كما تعددت مؤلفات الخوارزمي في الرياضيات، فكانت تشمل الحساب والجبر، ومن أهم مؤلفاته: (كتاب «الجبر والمقابلة»

(١) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٥٢.
(٢) أ/ أنور الجندي: الفكر الإسلامي (مقدمات في العلوم والمناهج)، (جـ١/ ٥٩).
(٣) د/ إسماعيل ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص٧٦.
(٤) (أبو عبد الله محمد بن موسىٰ الخوارزمي، عالم رياضيات وفلك وجغرافيا، ولد في خوارزم سنة ٧٨٠، اتصل بالخليفة العباسي المأمون وعمل في بيت الحكمة في بغداد وكسب ثقة الخليفة إذ ولاه المأمون بيت الحكمة كما عهد إليه برسم خارطة للأرض عمل فيها أكثر ٧٠ جغرافياً، وقبل وفاته في ٨٥٠م/ ٢٣٢هـ كان الخوارزمي قد ترك العديد من المؤلفات في علوم الفلك والجغرافيا من أهمها كتاب الجبر والمقابلة الذي يعد أهم كتبه وقد ترجم الكتاب إلىٰ اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥م). (شبكة الإنترنت: من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).
(٥) سمير محمد الحفناوي: السبق العلمي لعلماء العرب، ص٧.

للخوارزمي المصدر الذي اعتمدت عليه أوربا، وكان له أثره في تقدم علم الجبر لدىٰ الغربيين، كما كان كتابه في الحساب مصدراً استقىٰ منه الأوربيون، بحيث يمكن أن يقال: إن الخوارزمي واضع علمي الحساب والجبر)[1].

كما كان للمسلمين العرب الفضل في وصول الأرقام العربية إلىٰ أوربا، وكان للصفر الذي عرفه المسلمون أثره لدىٰ الغرب.

(ولا ريب أن الصفر يعتبر من أخطر المبادئ التي اهتدىٰ إليها العقل البشري في الرياضيات. ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلاّ عن طريق العرب في القرن الثاني عشر)[2].

وفي سياق الاهتمام بالعلوم الرياضية لدىٰ المسلمين، إلا أنهم لم يكتفوا بالجانب النظري فقط، بل اهتموا بالجانب التجريبي.

(فمن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا، وقد أحيوا الهندسة والعلوم الرياضية، ومما تجدر الإشارة إليه أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات علىٰ مجرد النظر، بل اعتمدوا علىٰ المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات)[3].

وبهذا المنهج استطاع علماء المسلمين أن يتفوقوا في العلوم الرياضية علىٰ غيرهم من علماء الغرب!!.

٥- الزراعة:

تعد الزراعة من أهم موارد الدولة، ومقوماً أساسياً في نجاح اقتصادها، فهي الأصل في حياة الناس المادية، ومن ثم اهتمت الدولة الإسلامية أيما اهتمام بالزراعة، وعملت علىٰ تعمير الأرض البور واستصلاحها.

(فعملت الدولة علىٰ إصلاح الأراضي وحفر القنوات والترع القديمة، ونقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين ولايات الدولة. واشتهرت الدولة الإسلامية بزراعة الحبوب والفواكه والقطن والأزهار والخضروات والنباتات والحشائش «كمصدر للأدوية والعقاقير». وأدخل العرب تحسينات جمة علىٰ طرق الحرث والغرس والري، وقد

(١) المصدر السابق، ص١٤-١٥.
(٢) د/ إسماعيل ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، مرجع سابق، ص٨٧.
(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، (جـ٣/ ١٢٨)، ط لجنة التأليف والترجمة - القاهرة - ١٩٦٨م.

نقل الأوربيون الكثير من الزراعات وطرق الري إلىٰ أوربا)[١].

وكما أظهر المسلمون مهارتهم في الزراعة، أظهروا كذلك مهارتهم في فلاحة البساتين، فلم تقتصر فلاحة البساتين علىٰ الفواكه بل تقدمت إلىٰ الأزهار، (فمارسوا الزراعة بطريقة علمية، وكانت لديهم طرائق جيدة للري، وكانوا يعرفون قيمة المخصبات، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع الأرض، وتفوقوا في فلاحة البساتين، وعرفوا كيف يطعمون النباتات، وكيف ينتجون أضراباً جديدة من الفواكه والأزهار، وأدخلوا إلىٰ الغرب أشجاراً كثيرة ونباتات متعددة من الشرق، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة)[٢].

إن دلّ هذا فإنما يدل علىٰ نبوغ وتفوق المسلمين في عالم النبات والزراعة.

٦ - الصناعة :

لقد أشاد القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها في الحياة، وسمي سورة كاملة بـ«الحديد»؛ ليلفت النظر إلىٰ معدن الحديد، الذي بلغ دوراً خطيراً في إقامة الصناعات.

(وهل هناك وسيلة أكثر إقناعاً لأهمية صناعة الحديد للبناء والتشييد والتحضر، وللصناعات العسكرية المدرعة، ولصناعات السكك الحديدية والسفن والسيارات والآلات التي لاعد لها ولا حصر في كل مجالات الإنتاج، ولذلك فهو أنسب العناصر لصناعة الأسلحة والصناعات الثقيلة دعامة الحضارات)[٣].

ومن ثم اهتم المسلمون اهتماماً بالغاً بالصناعة بأنواعها المختلفة.

(ومن أهم هذه الصناعات العمارة، فقد ترك المسلمون آثاراً كثيرة من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وقلاع وحصون وقصور وأسوار مدن... ومن الصناعات الأخرىٰ صناعة الزجاج والفخار والخزف، وازدهرت صناعة المعادن في العالم الإسلامي ازدهاراً كبيراً، واشتهرت صناعة السيوف والرماح والخناجر والدروع وغيرها)[٤].

(١) د/ إسماعيل ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص٦٨.
(٢) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٤٧.
(٣) د/ عبدالفتاح غنيمة: منبر الإسلام، س(٦٠)، ع(٢)، صفر١٤٢٢هـ - مايو٢٠٠١م، ص٧٢-٧٣، باختصار.
(٤) د/ إسماعيل ياغي: أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، ص٦٨-٦٩.

كما اشتهر المسلمون بصناعة الورق، وطوروا هذه الصناعة ؛ لأهداف تعليمية قبل الغرب بمئات من السنين!.

(ومن الفخر الإشارة هنا إلىٰ أن صناعة الورق لم تبدأ في أوربا إلاّ بعد القرن الثاني عشر الميلادي بعد أن أدخلها العرب إلىٰ أسبانيا، وأخذتها أوربا عن أسبانيا، فعن عرب صقلية تعرفت أوربا علىٰ هذه المادة (الورق) الكثيرة النفع والتي هي الحقيقة إحدىٰ دعائم الثقافة والحياة الفكرية)[1].

كما أظهروا مهارتهم في سائر الصناعات الأخرىٰ مع إتقان وإجادة الصنعة، تناقلها عنهم الأوربيون.

(فكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود، وكان عملهم شهيراً في كافة أرجاء أوربا، وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة، وصنعوا السكر من القصب)[2].

فحق لنا أن نقول: إن المسلمين هم الذين وضعوا أسس التقدم العمراني، والتطور الصناعي، الذي كان سبباً في تقدم الغرب.

٧ - العلوم الطبية:

أما فيما يتعلق بالعلوم الطبية، فقد نشط فيها المسلمون الأوائل؛ فبحثوا وجربوا وعالجوا الأمراض المختلفة.

يقول الدكتور أحمد شلبي:

(في هذا المجال حقق المسلمون إنجازات عظيمة جداً، فظهرت المستشفيات الإسلامية، وكان العلاج بالمجان، وظهر الأطباء، وعرف المسلمون أعراض الجدري، والسكر، والحصبة، وطرق الحماية منها، وعرفوا التطعيم كما عرفوا التشريح، وعرفوا الطب النفسي وعلاجه، وعرفوا طب الأعشاب، وتخصصوا في علم جبر العظام والكلىٰ، واكتشفوا دورة الانكلستوما، وعرفوا جراحة التجميل)[3].

وقد نبغ كثير من الأطباء المسلمين، منهم علىٰ سبيل المثال:

(١) د/ حامد دياب: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٤٩.
(٢) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٤٧.
(٣) د/ أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية وضرورتها للحضارة الغربية، دراسات إسلامية، ط المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، ع(٢٧)، شوال١٤١٨هـ - فبراير١٩٩٨م، ص٤٣.

(١) أبو بكر الرازي[١]:

الـذي يعد مـن أعظـم الأطباء المسـلمين، وقـد ترجمـت كتبـه إلـى اللغـات الأخـرى، وظلت مرجعـاً لدى الغرب، لدرجة أن (جامعة «برنسـتون» الأمريكيـة تحمـل اسـم طبيـب مسـلم، وتحتل صورته الكبيـرة مكان الصدارة في كنيسـتها، هـذا الطبيب المسـلم هـو أبو بكر الـرازي... وإذا كان الطـب التجريبـي يحتل في العصـر الحديـث أهـم مكانـة في العـلاج، فإن الرازي هـو أول من قام بـه في العالم، إذ أجرى تجاربـه الطبيـة العلاجيـة علـى الحيـوان قبل تجربتها على الإنسان واختار القرد لتجاربه)[٢].

فـكان الـرازي في منهجـه لا يعتمـد علـى الجانـب النظري فحسـب، بـل كان يجمع بين المنهج النظـري، والمنهج العلمـي التجريبي، وهـذا يـدل دلالة واضحـة على عمـق وأصالة الطب عند المسلمين.

(٢) ابن سينا[٣]:

كما نبغ في الطب ابن سينا، ويدل على نبوغه في هذا المجال مؤلفاته، التي تركت أثراً عظيماً لـدى الغرب، وترجمت إلـى اللغات الأخرى، خاصة كتابه «القانون»، (فهو أكبر الموسوعات الطبيـة التي عرفهـا التاريخ، ففيـه كل ما يتعلق بالطـب أو يتصـل بالمـرض أو ينحـو ناحيـة العلاج، ويتكون الكتاب من خمسة كتب فرعية؛ الأول: في التشريح ووظائف الأعضاء، والثاني: ما يجب معرفته من أمر الطب، والثالث: الجزء العملـي الحافظ على الصحـة، والرابع: الجزء العملـي المعيد للصحـة، والخامـس: الأدوية المركبة وهي الأقرباذيـن. وهذا الكتاب ترجم

(١) (ولد «بالرى» من أعمال «فارس» جنوبي طهران سـنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤م، وتوفي ببغداد سـنة ٣٢٠هـ - ٩٣٢م، ولقد عرف الخليفة العباسـي «عضد الدولة» مقامه، ورأى أن يستغل مواهبه ونبوغه، واستشاره عند بناء «البيمارستان العضدي في بغداد» وولاه مديرًا للبيمارسـتان العضـدي. من مؤلفاته: «كتاب الأسـرار في الكيمياء»، «كتـاب من لا يحضره الطبيب»، «كتـاب في الرياضة»). انظر سمير محمد الحفناوي: السبق العلمي لعلماء العرب والمسلمين، ص١١٨-١١٩.

(٢) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٦٤-٦٧.

(٣) (ابن سـينا هو أبو علي الحسـين بن عبد الله بن الحسـن بن علي بن سـينا، عالم مسـلم اشتهر بالطب والفلسـفة واشتغل بهما. ولد في قرية (أفشـنة) بالقرب من بخارى (في أوزبكسـتان حاليًا) من أب من مدينة بلخ (في أفغانسـتان حاليًا) وأم قروية سـنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) وتـوفي في مدينـة همـدان (في إيران حاليًا) سـنة ٤٢٧هـ (١٠٣٧م). عرف باسـم الشـيخ الرئيس وسـماه الغربيون بأمير الأطباء. وقد ألّف ٢٠٠ كتاب في مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسـفة والطب. إن ابن سـينا هو من أول من كتب عن الطبّ في العالم، وأشهر أعماله كتاب الشفاء وكتاب القانون في الطب). (شبكة الإنترنت: من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

إلىٰ اللاتينية، ودرس في مختلف كليات الطب، وكان أهم مرجع طبي لكل من أراد الاشتغال بالطب)[١].

وقد استفاد الأوربيون من المصنفات الطبّية العربية الإسلامية وترجموا أكثرها إلىٰ اللاتينية.

(وعلىٰ مؤلفات هؤلاء الأطباء الأندلسيين اعتمدت أوربا في تدريس الطب وممارسته مدة تزيد علىٰ خمسة قرون، وظلت هذه المؤلفات سارية المفعول في الطب الأوربي حتىٰ القرن السابع عشر)[٢].

ولم يقتصر الأوربيون علىٰ نقل المؤلفات العربية الطبّية فقط، بل درسوا الطب العربي، لدرجة أن سائر المعارف الطبية في أوربا تكاد تكون مأخوذة عن العرب، فمثلاً: («اسبتاي بن أبراهام اليهودي» أسره المسلمون في النصف الأول من القرن العاشر، وعاش في بغداد مدة طويلة تعلم فيها العربية ثم درس الطب العربي، وبعد أن عاد من الأسر قاد حركة طبّية علمية نشر فيها آراء علماء المسلمين... وإن أول مدرسة للطب في أوربا أنشأها المسلمون في ساليدن في إيطاليا)[٣].

ويقول: («ريتشارد نيكسون»[٤] رئيس الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً - بينما ذبلت أوربا في العصور الوسطىٰ تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبي، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة في مجال العلوم في الطب والفلسفة)[٥]. وهذا من باب: وشهد شاهد من أهلها.

إننا حين نذكر هذه النماذج المضيئة نؤكد أن القرآن الكريم هو الذي دفع هذه العقول الإسلامية للبحث والتجربة في شتىٰ المجالات؛ لأنه يجعل البحث والنظر والتأمل والتدبر في

(١) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٧٣.
(٢) د/ حامد دياب: الكتب والمكتبات في الأندلس، ص٤٧.
(٣) أ/ عبدالرازق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص٣٩-٤٠.
(٤) (ولد في ٩ يناير ١٩١٣م في يوربا لنده بكاليفورنيا، وهو ينحدر من عائلة متدينة ذات أصول ألمانية، هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثين (١٩٦٩-١٩٧٤) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثين (١٩٥٣-١٩٦١)، وتوفي يوم ٢٢ أبريل ١٩٩٤م). (من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).
(٥) د/ أحمد شلبي: الحضارة الإسلامية وضرورتها للحضارة الغربية، ص٥٦.

الكون عبادة يثاب عليها المرء إذا أخلص عمله لربه، كما يقصد تحقيق اكتشاف السنن الكونية، ومن هذا المنطلق بنىٰ المسلمون الأوائل حضارة زاهرة في شتىٰ العلوم والمعارف، آتت أكلها ضعفين؛ بتخطيط علمي، وتنفيذ عملي.

والفرصة لا تزال باقية أمام الأمة الإسلامية للّحاق بالسباق العلمي المعاصر لتبقىٰ موجودة مرفوعة الرأس موفورة الكرامة، عالية الهامة.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا ونبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊ ❊

خطوات في الطريق إلى التفوق العلمي
النحو العربي أنموذجاً

د. هادي أحمد الشجيري

الحمـد لله، والصلاة والسـلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسـلم، اللهـم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا.

تنبيه:

إن العلم ليس موهبة يخص به بعض الناس... وإنما العلم بالتعلم.

والعلـم أيضـاً لا يفرض وإنما هو وازع داخلي... وهدفنا من هذا البحث هو اسـتثارة هذا الوازع بتذكيره بما نراه مناسباً لتحفيزه...

فالكلمات والقصص إنما هي جند مرسلة ينفع الله بها من شاء من عباده...

فالحضور المجرد عن النية الصادقة للانتفاع لا ينفع... فجاهد النفس لأن تستمع أولاً، وجاهدها علىٰ التطبيق ثانياً علَّك تسلك سبيل التفوق والنجاح...

محاور الخطوات:

المحور الأول: وقفات مع العلم.

المحور الثاني: وقفات مع طالب العلم.

المحور الثالث: وقفات مع علم النحو العربي.

المحور الأول: وقفات مع العلم

ما العلم؟

وقـال بديـع الزمـان في المقامـة العلميَّـة :

((حَدَّثَنا عَيسَـىٰ بْنُ هِشـامٍ قَالَ: كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَـارِحِ الغُرْبَـةِ مُجْتَـازاً، فَـإِذَا أَنَا بِرَجُـلٍ يَقُولُ لآخَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ، قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُـهُ بَعِيـدَ المَرَامِ، لا يُصْطَادُ بِالسِّـهَامِ، وَلا يُقْسَـمُ بالأَزْلامِ، وَلا يُـرَىٰ فِي المَنَامِ، وَلا يُضْبَطُ بِاللِّجَـامِ، وَلا يُورَثُ عَنِ الأَعْمَامِ، وَلا يُسْـتَعَارُ مِـنَ الكِـرَامِ، فَتَوَسَّـلْتُ إِلَيْـهِ بِافْتِـرَاشِ المَدَرِ، وَاسْتِنَادِ الحَجَرِ، وَرَدِّ الضَّجَرِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ، وَإِدْمَـانِ السَّـهَرِ، وَاصْطِحَـابِ السَّـفَرِ، وَكَثْـرَةِ النَّظَرِ، وَإِعْمَالِ الفِكَرِ، فَوَجَدْتُهُ شَـيْئاً لا يَصْلُحُ

إِلاَّ لِلْغَـرْسِ، وَلاَ يُغْـرَسُ إِلاَّ بِالنَّفْسِ، وَصَيْداً لاَ يَقَـعُ إِلاَّ فِـي النَّدْرِ، وَلا يَنْشَـبُ إِلاَّ فِـي الصَّدْرِ، وَطَائِـراً لا يَخْدَعُـهُ إِلاَّ قَنَصُ اللَّفْـظِ، وَلاَ يَعْلَقُهُ إِلاَّ شَرَكُ الحِفظِ، فَحَمَلْتُهُ عَلىٰ الرُّوحِ، وَحَبَسْتُهُ عَلىٰ العَيـنِ، وَأَنْفَقْتُ مِنَ العَيْـشِ، وَخَزَنْتُ فِي القَلْـبِ، وَحَـرَّرْتُ بِالـدَّرْسِ، وَاسْـتَرَحْتُ مِـنَ النَّظَرِ إِلىٰ التَّحْقِيـقِ، وِمِنَ التَّحْقِيقِ إِلىٰ التَّعْلِيقِ، وَاسْتَعَنْتُ فِي ذَلِكَ بِالتَّوْفِيقِ))[1].

واعلم: أن العلم سلعة غالية كتب عليها: لا تهدىٰ ولا تباع.

شرف العلم:

وقـال بعـض العلمـاء: مـن شـرف العلـم وفضلـه أن كل مـن نسـب إليه فـرح بذلك وإن لم يكن من أهله، وكل من دفع عنه ونسـب إلىٰ الجهـل عز عليـه ونال ذلك من نفسـه وإن كان جاهلاً[2].

كيف أنال العلم؟

قالـت الحكمـاء: ((لا ينـال العلـم براحـة الجسم)).

فإليـك هـذه المعلومـات: اعلـم أن العلـم انتسـاب لا نسـب، وأن مجـرد الانتسـاب لا يكفي لأن تكون عالمـاً، فالعلم لا ينال بالادعاء والتمني بل بالطلب والتأني.

واعلـم أن درجـة العلم أشـرف الدرجات، ومن أراد تحصيلها بالدعة، وطلب البلوغ إليها بالراحة كان مخدوعـاً.

اقـرؤوا: (صفحـات من صـبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل) بقلم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة -رحمه الله-.

صفات الطالب:

١- اترك الكسل واهجر النوم:

يقـول ابـن الـوردي في الحـث علـىٰ طلب العلم[3]:

اطلُبِ العلمَ ولا تكسلْ فما
أبعـدَ الخيرَ علىٰ أهلِ الكسلْ
واهجرِ النومَ وحصّلهُ فمن
يعرفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ

(١) مقامات بديع الزمان: ٣٠١.
(٢) جامع بيان العلم: ١/ ١٢٢.
(٣) مجموع الأبيات والمنظومات لتقريب المحفوظات: ٥٣٨.

لا تقلْ قد ذهبتْ أربابُه

كلُّ من سارَ علىٰ الدربِ وصلْ

٢- داوم علىٰ الطلب:

قال الإمام ابن شهاب الزهري: من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، وإنما العلم يطلب علىٰ مر الأيام والليالي[١].

اليومَ علمٌ وغداً مثلُــه

من نُخَبِ العلمِ التي تُلْتَقَطْ

يُحصِّلُ المرءُ بها حكمةً

وإنَّمَا السيلُ اجتماعُ النُّقَطْ

٣- اصبر علىٰ الطلب:

يقول العلماء: من لم تكن له بداية محرقة لن تكون له نهاية مشرقة[٢].

قال الإمام الشافعي[٣]:

من لم يذق مرّ التعلّم ساعة

تجرّع ذلّ الجهل طولَ حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه

فكبّر عليه أربعًا لوفاته

٤- إياك والعجز:

العاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنىٰ علىٰ الله الأماني.

قال أبو إسحاق الإلبيري[٤]:

ستجنىٰ من ثمار الْعَجز جهلاً

وتصغر فِي الْعُيُون إِذا كبرتا

وَلَيْسَ لجَاهِل فِي النَّاس معنىٰ

وَلَــو ملك الْعرَاق لَهُ تأتىٰ

وَمَا يُغْنِيك تشييد المبـــاني

إِذا بِالْجَهْلِ نَفسك قد هدمتا

من ألقاب طلبة العلم في التراث:

يا طالب العلم هل سمعت بألقاب من مضىٰ، شذرات أبثها للذكرىٰ:

(١) ينظر: حلية طالب العلم: ١٥٤.
(٢) ينظر: أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ: ١٣٧.
(٣) ديوان الإمام الشافعي: ٥٩.
(٤) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٢٧.

١- هل سمعت بمن يقال له: شعلةُ نار...؟

نعم إنه وصف علمي ناله غير واحد من الأئمة ممن اشتغل بالعلم واحترق بحبه فأنار دروب السالكين...

منهم أبو القاسم ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق (ت: ٥٧١هـ)، قال عنه الإمام أبو العلاء الهمذاني، (ت: ٥٦٩هـ): ((ما كان يسمىٰ أبو القاسم ببغداد إلا شعلةَ نار؛ من توقده وذكائه وحسن إدراكه))[١].

٢- هل سمعت بمن يقال له: المُذاكَرَة...؟

قال الحافظ ابن حجر في: نزهة الألباب في الألقاب: ((المذاكرة: هو المنذر بن عبد الرحمن الأندلسي، (ت: ٣٩٣ هـ)، لقب بذلك لأن العلم سكن قلبه وأخذ لبه فمتىٰ لقي رجلاً من إخوانه قال له: هل لك في مذاكرة باب من العربية؟ فلقب بالمذاكرة لذلك))[٢].

٣-هل سمعت بمن قيل له: الباحث عن معتاص العلم...؟

هو عنوان جعله محمد بن إسحاق النديم صاحب الفهرس لمحمد بن سهل بن المرزبان الكرخي، (ت ٣٣٠ هـ)، صاحب كتاب المنتهىٰ في الكمال[٣].

غاية العلم:

ليس العلم وسيلة للتباهي والتفاخر واستغلال الناس، إنما هو وسيلة للنجاة في الدنيا والآخرة، نجاة من ذل السؤال في الدنيا، ومن عذاب الله في الآخرة: قال أبو إسحاق الإلبيري[٤]:

إذا ما لم يفدك العلم خيراً

فخير منه أن لو قد جهلتا

وإن ألقاك فهمك في مهاو

فليتك ثم ليتك ما فهمتا

المحور الثاني: وقفات مع طالب العلم

من أنا؟

١- أنا نفس أنا ساعة أنا أيام مجموعة:

(١) ينظر: الأحمدية: افتتاحية العدد ١٤.
(٢) ينظر: نزهة الألباب في الألقاب: ٢/ ١٦٥.
(٣) ينظر: الفهرست: ١٦٩.
(٤) ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ٢٧.

كان ابن الجوزي رحمه الله أوصىٰ ابنه فقال: واعلم يا بني أنّ الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاسًا، وكل نَفَسٍ خِزانة، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شيء، فترىٰ في القيامةِ خزانةً فارغة فتندم[1].

وقال الحسن البصري: ((يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم، ذهب بعضك))[2].

٢- أنا راكب قرب نزوله؟

وما المرء إلا راكب ظهر عمره

علىٰ سفر يفنيه باليوم والشهر

يبيت ويضحىٰ كل يوم وليلة

بعيداً عن الدنيا قريباً إلىٰ القبر[3]

٣- أنا مسافر يوشك أن يصل؟

قال الفضيل بن عياض رحمه الله لرجل: كم أتىٰ عليك؟ قال: ستون سنة؛ قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلىٰ ربك، يوشك أن تبلغ؛ فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فقال الفضيل: من علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، وأنه مسؤول، فليعد للمسألة جواباً؛ فقال الرجل: ما الحيلة؟ قال: يسيرة؛ قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضىٰ، فإنك إن أسأتَ فيما بقي أخذتَ بما مضىٰ وبقي[4].

أنا أحداث يومي؟

إن لم أصنعها لنفسي صنعها لي غيري:

تذكر: إن لم تصنع أحداث يومك، صنعها لك غيرك من أفراد العائلة، والأصدقاء، والوسائل التقنية...

وتذكر: أن الرجل إذا سيق لأحداث يومه، ففي الغالب لن يكون فيها شيء يعود نفعه عليه، بل هو أداة استعملها الآخرون لقضاء حوائجهم.

انظر لنفسك:

في ختام يوم من أيامك أعد بالعرض المتأني

(١) ينظر: صيد الخاطر: ٥٠٥.
(٢) ينظر: إدارة الوقت: ٣٣.
(٣) ينظر: إدارة الوقت: ٣٣.
(٤) ينظر: حلية الأولياء: ٨/ ١١٣.

أحداث ذلك اليوم من ساعة الاستيقاظ إلىٰ لحظة التفكر، ثم قرر هل أنك صنعت أحداثك اليومية، وخططت لكل حدث، ووقت لكل شيء، أم أن الناس كل الناس القريب والأقرب والأبعد هم من ساقوك سوقًا إلىٰ أحداث يومك؟

إياك وتوافه الأحداث؟

لو كان الوقت يشترىٰ؟

ويذكر أن الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله (ت١٣٣٢هـ) مَرّ بمقهىٰ، فرأىٰ رواد المقهىٰ، وهم منهمكين في لعب الورق والطاولة وشرب المشروبات ويمضون في ذلك الوقت الطويل، فقال رحمه الله: لو كان الوقت يشترىٰ لاشتريت من هؤلاء أوقاتهم[1]!.

من الكتب المهمة:

قيمة الزمن عند العلماء: عبد الفتاح أبو غدة، ط١، ١٩٨٤م، ط١٠، ٢٠٠٢م.

إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة: (كيف تنجح في إدارة وقتك.. وبالتالي حياتك) د.محمد أمين شحاته، رسالة دكتوراه مقدمة إلىٰ كلية الإدارة والإعلام جامعة فرجينيا- ٢٠٠٥م.

اصنع الأحداث التي تخدم هدفك في الحياة:

الأهداف:

الصورة التي يحب أن يراها الإنسان لنفسه في المستقبل:

هناك الأماني: وهي أهداف الكسالىٰ والعاطلين؟

الأهداف الطموحة: وهي أهداف المثابرين؟

الأهداف الواقعية: وهي أهداف من لا هدف له، وإنما سيق إليها بنتائج الاختبار، وهذا حال الكثير منا.

الأهداف الواقعية:

إن فاتتنا الصور الرائعة التي نالها المجدون فلا أقل من أن نحسن الصورة التي نحن فيها؟ ولا نتعلل بالواقع فإن لم تكن بك قدرة علىٰ تغييره فغير نفسك، ولا تتفرج إن بقاءك جاهلاً

(١) ينظر: وقفات مع حفظ الوقت: ٥.

لن يغير من الواقع شيئًا، بل علىٰ العكس ربما قرأت ما نفعك في دنياك وأخراك.

المحور الثالث: وقفات مع علم النحو العربي

أنا مميز إن أحسنت رسم شخصيتي؟

أنا مميز بالعقل:

أنت خلق مميز مكرم، خصك الله بالعقل، فإياك أن تهمله، فليس المجنون الذي لا عقل له، بل المجنون من له عقل لا يستعمله، والأجن من يستعمل عقله في هلاك نفسه؟

أنا مميز بأني طالب علم:

أنا علىٰ يقين بأن جلّ من أراه لا يقدر هذا الموقع، ولا يشعر بقيمته، تسرق منه السنوات المخصصة لبناء نفسه وفكره بتوافه الأمور، فأي عاقل يبيع أفضل أيام عمره وشبابه بلا مقابل؟

أنا مميز لأني طالب في قسم اللغة العربية؟

رغبت أو ساقتني الأقدار إلىٰ هذا التخصص فقد كفيت محنة تحديد الهدف الرئيس في حياتي، فلك الآن أن تنظر بعين المستقبل إلىٰ المكان الذي ستقف فيه، فإن أعجبك أو أقنعت نفسك به فأعد له عدته، وإن لم يعجبك فاتخذ قرارك؟ وإياك أن تشتري الجهل بأغلىٰ أيام العمر؟

لا أحط من قدر نفسي، وأعلي من شأن غيري، لمجرد الانتساب، فبنا جميعًا تكتمل الحياة، وقيمتنا بقدر ما نتقنه من علمنا، فالمرضىٰ في المشافي والمراقد يتعلقون بالمداوي الطبيب، والمستمعون في المحافل والمساجد يتعلقون بالواعظ الخطيب، والطلاب في المجامع والمعاهد يتعلقون بالعالم اللبيب.

علم النحو العربي:

قال ابن حزم الأندلسي: ولو سقط علم النحو لسقط فهم القرآن، وفهم حديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ولو سقط لسقط الإسلام[1].

تذكر: أنه لا سهولة مع الكسل ولا صعوبة مع الجد والعمل، لا أقول: إن تحصيل علم النحو سهل بل هو الآن علم كسائل العلوم، لن

(١) رسالة التلخيص لوجوه التخليص: ١٨٨.

يتأتىٰ بالكسل وإلقاء اللوم علىٰ الآخرين بل لا بد من الجد والمثابرة وبذل الجهد والوقت في تحصيله، فلماذا كل العلوم تحصل بالكسب وبذل الوسع ومداومة السهر في تحصيلها إلا علم النحو يجب أن يأتي بلا تعب؟ أي منطق علمي هذا؟ إنه منطق الجهل والكسل؟

هل الطبيب يصبح طبيباً بمجرد أن دخل كلية الطب؟ أم أن الليل والنهار قد أخذت منه كل مأخذ في سنوات التحصيل حتىٰ نال الإجازة في آخرها، وبتقدير في أحسن أحواله أنه: مقبول؟

وتذكر: أن علم النحو تطلبه كل العلوم، وهو يزين من حصله، ويشين من فقده، قال ابن الوردي[1]:

جمل المنطق بالنحو فمن

يحرم الإعراب بالنطق اختبل

شكوىٰ الدرس الأول- شكوىٰ طلابية؟

لا تسألوني عن العلامات التي ترتسم علىٰ وجوه أبنائنا عندما يقرؤون أو يسمعون أول أبيات ألفية ابن مالك، درسهم الأول في مقرر النحو في أقسام اللغة العربية في الجامعات العراقية وكثير من الجامعات العربية، إنها علامات تقصر الكلمات عن وصفها، وإنما يستشعرها من نظرها عن قرب، وتناهت إلىٰ أذنيه همسات من راعهم نظم الألفية؟

لقد بهت بعضهم نظمُ الكلام، وعجز أكثرهم عن فهم المرام، مشاعر من الإنكار والاستغراب، والعجز والارتياب انبعثت فاختلطت فارتسمت علىٰ الوجوه قسمات من الحيرة والتوجع والألم والتفجع، من هذا الوافد الجديد، الذي يتحتم علينا أن نسمعه ما بقينا طلبة في قسم اللغة العربية...

شكوىٰ الدرس الأخير-شكوىٰ أستاذية؟

التجارة الخاسرة تجارة الكسالىٰ من الطلبة:

ثمنها أجمل أيام العمر، بضاعتها ورقة تشهد بنجاحي وواقع يشهد بفشلي:

يعز علينا أن نرىٰ أبناءنا الطلبة، وقد مضت بهم الأيام، وأخذت سنوات التحصيل من أعمارهم خيارها، حتىٰ إذا فارقوا مقاعد الدرس، وتصدروا مجالس التدريس هالهم

(١) مجموع الأبيات والمنظومات لتقريب المحفوظات: ٥٣٨.

الغبن في تجارتهم التي أنفقوا فيها أجمل أيام عمرهم، فسنوات التحصيل مرت بلا مقابل، فيالها من تجارة خاسرة تجارة الكسالىٰ من الطلبة...

ويعز علينا، أساتذةَ اللغة العربية، أن نرىٰ غرسنا ليس له ثمر، مع كل ما أنفقناه فيه من جهد ووقت...

أنا كلما حدثت نفسي عن لغتي، سمعت صوتها في تبجيل العربية وتقديمها، والثناء عليها وتقديرها، ولكن هذا الصوت قد تكاثر معارضوه في عصرنا، فلم يعد الصوتُ العربي يطرب أسماع أبناء العربية، بل أصبح الأمر علىٰ نقيضه، فالمثقف الكبير المتحرر من قيود الرجعية والتخلف عند كثير من العامة والخاصة هو من هجّن عربيته بالكلمات الأجنبية، وكتب دعايته بالحروف الأعجمية، وهذا أمر يحزن كلَّ غيور علىٰ لغته ودينه، ويزداد المرء حزنًا إذا علم أن طلاب العربية في أقسامها المتخصصة بتخريج أساتذة اللغة العربية قد ضاقوا بها ذرعًا، وعجزوا عن مسايرتها والتآلف معها، فأنىٰ لهم أن يكونوا رعاتها وحماتها، وأنىٰ لهم أن يعلموها طلابها؟

ما بين الدرسين؟

- لا بد من أن أتخلص من القراءة التكليفية المتعبة؟

- لا بد من أن أحول القراءة إلىٰ متعة؟

لا بد من أن أجعل القراءة متعة:

المتعة الإنسانية: أنواع بحسب مصادرها، فهناك متع حسية: مصادرها الحواس، وهناك متع معنوية: مصادرها المشاعر، وهناك متع فكرية: مصادرها الفكر، وأجلىٰ طرقها القراءة:

القراءة علىٰ نوعين:

الأولىٰ: قراءة متعبة غير مثمرة:

١ - القراءة الصوتية:

ما الفرق بيننا وبين ابن الجهم؟

قال ابن الجَهْم: إذا غشيني النُّعاس في غير وقت نومٍ -وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة- قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظَّفَر ببعض

الحاجة، والذي يَغْشىٰ قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين أشدَّ إيقاظاً من نهيق الحمير وهَدَّة الهَدْمِ[1].

٢- قراءة الشارد:

إننا في واقع حياتنا لا نعيش لحظتنا في كثير من الأحيان، بل نعيش لحظة متخيلة نصنعها في كثير من الأحيان في المواقف النافعة.

الوقوف في الصلاة: إذن الفرصة سانحة للذهن أن يفتش في وقائع الماضي، أو أن يتخيل مستقبل الأحداث.

مع الكتاب: فإذا ما تصافحت اليد مع الكتاب، وتعانق سواده وبياضه بسواد العين وبياضها طار الفكر بعيداً مع أحداث الماضي أو خيالات المستقبل ... فأنىٰ لهذه القراءة أن تثمر! إنها ضياع للوقت ألبس ثوب الجد والاجتهاد؟

نحتاج إلىٰ التعايش مع ما نقرأ:

قول ابن الأعرابي؟

ساق ابن عبد البر بسنده في ((جامع بيان العلم وفضله))[2] أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلاماً من غِلْمانه إلىٰ أبي عبد الله بن الأعرابي -صاحب الغريب- يسأله المجيءَ إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضَيتُ أَرَبي منهم أتيتُ.

قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحداً، إلا أن بين يديه كتباً ينظر فيها، فينظر في هذا مرَّة، وفي هذا مرة، ثم ما شعرنا حتىٰ جاء، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله، سبحان الله العظيم! تخلَّفت عنَّا وحَرَمْتنا الأُنسَ بك، ولقد قال لي الغلامُ: إنه ما رأىٰ عندك أحداً، وقلتَ: أنا مع قومٍ من الأعراب، فإذا قضيتُ أَرَبي معهم أتيتُ، فقال ابنُ الأعرابي:

لنا جُلَساءٌ ما نَمَلُّ حديثَهم

أَلِبَّاءُ مأمونون غَيْباً ومَشْهدا

يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مضىٰ

وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسَدَّدا

بِلا فتنةٍ تُخشىٰ ولا سوء عِشْرةٍ

ولا نتَّقي منهم لساناً ولا يدا

(١) ينظر: المحاسن والأضداد: ٢٠.
(٢) ينظر: جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٩٤٢.

فإن قلتَ: هم موتىٰ فلست بكاذِبٍ

وإن قلتَ: أحياءٌ فلستَ مُفنَّدا

الثانية: القراءة النافعة:

١ – القراءة القصصية الاعتبارية.

٢ – القراءة العلمية التخصصية.

١ – قراءة قصصية اعتبارية: ثمرتها المتعة الفكرية، والراحة النفسية، والسلوك الحسن:

مقدمة للقراءة العلمية أقترح أن نبدأ بالقراءة الممتعة، وهي القراءة القصصية، فمتعتها آنية محسوسة. متعة القراءة:

تدابير القدر: محمود شيت خطاب.

عدالة السماء: محمود شيت خطاب.

النظرات والعبرات: مصطفىٰ لطفي المنفلوطي.

٢ – القراءة العلمية: ثمرتها بناء الشخصية العلمية، والنجاح في الحياة العملية:

أنواع القراءة العلمية:

وقفات مع القراءة التخصصية في النحوي العربي:

القراءة الدراسية: علىٰ قسمين:

الأول: قراءة قبل التخصص:

القراءة الاختبارية: ثمرتها الظاهرة نتيجة الاختبار، وبعدها انتقال من مرحلة إلىٰ مرحلة؛ فهي قراءة انتقالية يشهد الواقع أن أوضح ثمارها هو تجاوز مرحلة إلىٰ ما بعدها.

الثانية: قراءة التخصص:

القراءة البنائية: أي أن كل مرحلة لها نصيبها من بناء الشخصية، فإذا ما أخفقت في مرحلة ما بقيت ثلمة في بناء شخصيتك الثقافية لا يسدها إلا بالعودة إلىٰ المادة المعرفية المفقودة. فإذا جعلتها كالانتقالية، فليس بعدها مرحلة فإلىٰ أين النقلة إذن؟ لأن بعدها ميدان الاختبار، في مجال العمل، وإن لم تعمل فكل من يعرفك يمكن أن يختبرك اختباراً مفاجئاً في موقف مجهول؟

خطوات التفوق في الدراسة النحوية:

الخطوة الأولىٰ: تصحيح الاعتقاد الذهني:

إذا أردت أن تكون مميزاً فكن شخصاً مختلفاً ولا تكن محكوماً باعتقادات الآخرين، إن تصرفات الفرد وسلوكياته في الحياة هو صورة حية لمعتقداته الذهنية الوضعية منها والربانية، فلا يتصرف الإنسان سلوكاً في هذه الحياة يخالف معتقداته؟

والمعتقد الوضعي الذي نما في أذهاننا، أبناء العربية، صعوبة المادة النحوية، فبذرة التعقيد في المادة النحوية منشؤها أولاً في أذهاننا، ثم تصيدنا لهذه البذرة ما ينميها من أسباب خارجية تعاون كثير من طلاب العربية علىٰ تكوينها، فتارة نقول: إن الصعوبة في نطق أصواتها، وتارة نقول: بل في رسم حروفها، وتارة نقول: بل في حركات إعرابها، ورابعة وخامسة وقائمة الأعذار تطول...

الخطوة الثانية: الإفادة من ملكتنا اللغوية والنحوية:

- الإفادة من ملكتنا اللغوية:

يجب أن يتنبه دارس النحو أن له ملكتين، الأولىٰ ملكة لغوية ذاتية، والثانية ملكة نحوية مكتسبة:

فالملكة اللغوية: مكتسبة بمخالطة المجتمع، وهو ملكة لسانية يشترك فيها جميع أبناء اللغة، وهي متفاوتة بحسب البيئة العامة، والثقافة الشخصية ووسيلة أدائه: المفردات، والتراكيب.(معاني المفردات، والتراكيب الصحيحة)، والمعنىٰ العام له دلالات ظاهر، وله إشارات خفية مبطنة يتفاوت الناس في إدراكها. وهذه كالأساس الذي ستبنىٰ عليه الملكة النحوية.

والملكة النحوية: مكتسبة بدراسة كتب الفن، فهي قواعد مكتسبة مستنبطة من استقراء الكلام العربي؛ لضبط المعنىٰ العام، كلما توسع المرء في فهمها عرف دقة المعنىٰ، وبراعة الكلام الأدبي وأسرار صياغته، وإشاراته الخفية الكامنة في أساليبه المتنوعة، من التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتأسيس والتوكيد...

الخطوة الثالثة: التنبه إلىٰ التراث النحوي والتفريق بين القاعدة النحوية والفكر النحوي:

إن النحاة أرادوا أن يعلموا فقعدوا، وأرادوا أن يقنعوا فعللوا، وأرادوا أن ينتصروا

فجادلوا.... فالتراث النحوي يمكن لنا أن نصنفه على ثلاث مستويات:

الأول: المستوى القواعدي:

وله مهمتان أساسيتان: حفظ اللسان عند النطق، وحفظ القلم عند الخطّ.

الثاني: المستوى التعليلي:

هي مرتبة متقدمة ينشغل فيها من تصدر للتعليم، وغايته أن يجد العلة المناسبة المقبولة للتوفيق بين القاعدة والاستعمال، لتحظى بالقبول المنطقي عند المتلقي.

وهو علم له نصيب من النقل والعقل، وهذا العلم أنتجه علماء العربية للتدليل على منزلة العربية، ومكانتها، وانسجامها، وقوتها في ذاتها، وعلى الحكمة في أصواتها، وبناء مفردات، وتأليف كلماتها.

فهو علم بيان فضيلة العربية، وعلم تأملي تلوح أفكار لمن صفا ذهنه، وجادت قريحته، وكان القياس ميدان هذا العلم، لا أعني القياس على المنقول، ولكن قياس حمل بعض العوامل على بعض للعلل الجامعة التي توهموها، وهو ميدان لاختلاف الآراء، واختلاف الأحكام، فكل يحمل على القياس الذي ظهر له من غير أن يكون هناك نقل ضابط، أو أصل مطرد يحتكم إليه، وإنما منشؤه التفكر والذهن وما يلوح له من مشتركات بين المقيس والمقيس عليه.

الثالث: المستوى الجدلي:

وهي فلسفة الكبار من المتخصصين الذين يحاولون أن ينتصروا بكل ما أوتوا من خبرة ومكنة لما تبنوه من آراء.

وهو علم عقلي فلسفي، وهذا علم البراعة والخيال الذهني، أنتجه علماء العربية للتفاضل والتفاخر بمبلغ علمهم بهذه اللغة الجليلة.

وهو علم النخبة من علماء العربية، إنه فلسفة للنحو وقواعده المستنبطة، وهم متأثرون بهذا بعلم الكلام الذي كان شائعًا في تلك العصور.

الخطوة الرابعة: معرفة وظيفة القواعد النحوية:

إن القواعد النحوية وسيلة لضبط معاني الكلام، وليست هي غاية بحد ذاتها؛ فضبط البنية، والحركة، والتركيب كله من أجل صحة المعنى.

يقول عبد القادر المهيري: إن النحو هو وسيلة إلىٰ تكوين وعي لمتكلمها بمكوناتها وأبنيتها وتراكيبها.

- فلا بد من الربط بين القاعدة والمعنىٰ.

الخطوة الخامسة: تجاوز النظرة القاصرة إلىٰ النحو، والخلط بين النظام النحوي والعلامة الإعرابية:

- فالعلامة جزء يسير جداً من النحو وليست هي النحو.

يقول محمد حماسة عبد اللطيف: ((وإن كان هناك أثر أكثر ضرراً علىٰ دارسي العربية، وهو أنهم أخذوا ينظرون إلىٰ النحو علىٰ أنه جانب قاعدي لا جدوىٰ منه... وهؤلاء قد خلطوا بين أمرين:

أولهما: العلامة الإعرابية التي تظهر علىٰ بعض الكلمات دلالة علىٰ علاقة نحوية معينة، وهذه العلامات جانب واحد من جوانب كثيرة تعمل علىٰ وضوح المعنىٰ النحوي.

ثانيهما: النظام النحوي جملة بما فيه من علاقات وقرائن مختلفة تكشف غنىٰ وخصوبة في حركة الجملة العربية وتنوعها.

وبعد أن خلطوا بين هذين الجانبين سوغوا لأنفسهم النظر إلىٰ النحو كله من منظار العلامة الإعرابية وحدها، ثم استثقلوها وتمنوا الخلاص منها، وأخيراً صار الأمر إلىٰ كراهية النحو وازدرائه))[1].

الخطوة السادسة: هل القواعد تتغير؟

* إن القواعد لا تتغير؟
* وكثرة المؤلفات النحوية لا تعني الاختلاف القواعدي بقدر ما تعني اختلاف المؤلفين في طريقة توصيل القواعد.
* فكل من كتب في النحو وفي كل عصر، كانت ركيزتاه:
* فهم الأصول النحوية...
* والعرض بطريقة عصرية؟

المكتبة النحوية:

* بدأ التأليف فيها من سنة ١٨٠هـ، وإلىٰ هذه اللحظة والتأليف مستمر؟

(١) النحو والدلالة: ١٨٠.

* هل تريد أن تجمع الكتب النحوية؟

ما الذي يكتبه جيل بعد جيل؟

كل من كتب في النحو وفي كل عصر، كانت ركيزتاه: فهم الأصول النحوية، والعرض بطريقة عصرية؟

كلما اقتربت من الأصول النحوية لحظت الانسجام بين القاعدة والاستعمال النحوي، وكلما ابتعدت لحظت الميل إلىٰ تجريد القواعد من محيطها، وتصويرها علىٰ شكل قوالب جاهزة.

الخطوة السابعة: التدرج في طلب العلم.

لا بد من الأخذ بالطريقة الربانية في التعليم:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، قال الإمام البخاري: (الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)[(١)].

الخطوة الثامنة:

الانتقال من المكتبة العصرية إلىٰ المكتبة التراثية:

كثرة المؤلفات النحوية:

الكتب النحوية: في الجيل السابق: الآجرومية، قطر الندىٰ، شرح الألفية، شرح الرضي.

وفي جيلنا: النحو الواضح، التطبيق النحوي، جامع الدروس، معاني النحو.

القراءة العكسية: العودة العكسية هي الغالبة، أقربها أيسرها، وكلما تقدم الزمن عسر الأسلوب وتكاثرت الفروع.

وهي مبنية علىٰ افتراض أن أقرب الكتب منا عصري في عرضه، مناسب في مادته لاحتياجات الطلاب.

المصادر

- إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة: د. محمد أمين شحادة، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.

- أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ: أبو العلاء محمد بن حسين بن يعقوب السلفي المصري، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط٢.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية): ١/ ٤٦٢.

- جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف ابن عبد البر، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ٧، صفر، ١٤٢٧هـ.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، (ت: ٤٣٠هـ)، دار السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- حلية طالب العلم (وهو مطبوع ضمن كتاب المجموعة العلمية): بكر بن عبد الله أبو زيد، (ت: ١٤٢٩هـ)، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

- ديوان أبي إسحاق الإلبيري: أبو إسحاق الإلبِيري، إبراهيم بن مسعود التُّجيبي، (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة- دمشق، ط٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

- ديوان الإمام الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي، (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- صيد الخاطر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت: ٥٩٧هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- مجموع الأبيات والمنظومات لتقريب المحفوظات: سيف الطلال الوقيت، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- المحاسن والأضداد: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز =تفسير ابن عطية=: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

- مقامات بديع الزمان الهمذاني: بديع الزمان الهمذاني، أبو الفضل أحمد بن الحسين ابن يحيىٰ، (ت: ٣٩٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الأزهرية، ١٣٤٢هـ -١٩٢٣م.

- وقفات مع حفظ الوقت: سامي بن محمد ابن جاد الله، مقال علىٰ شبكة الإنترنت.

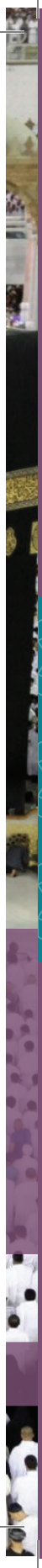

دراسات أكاديمية حديثة

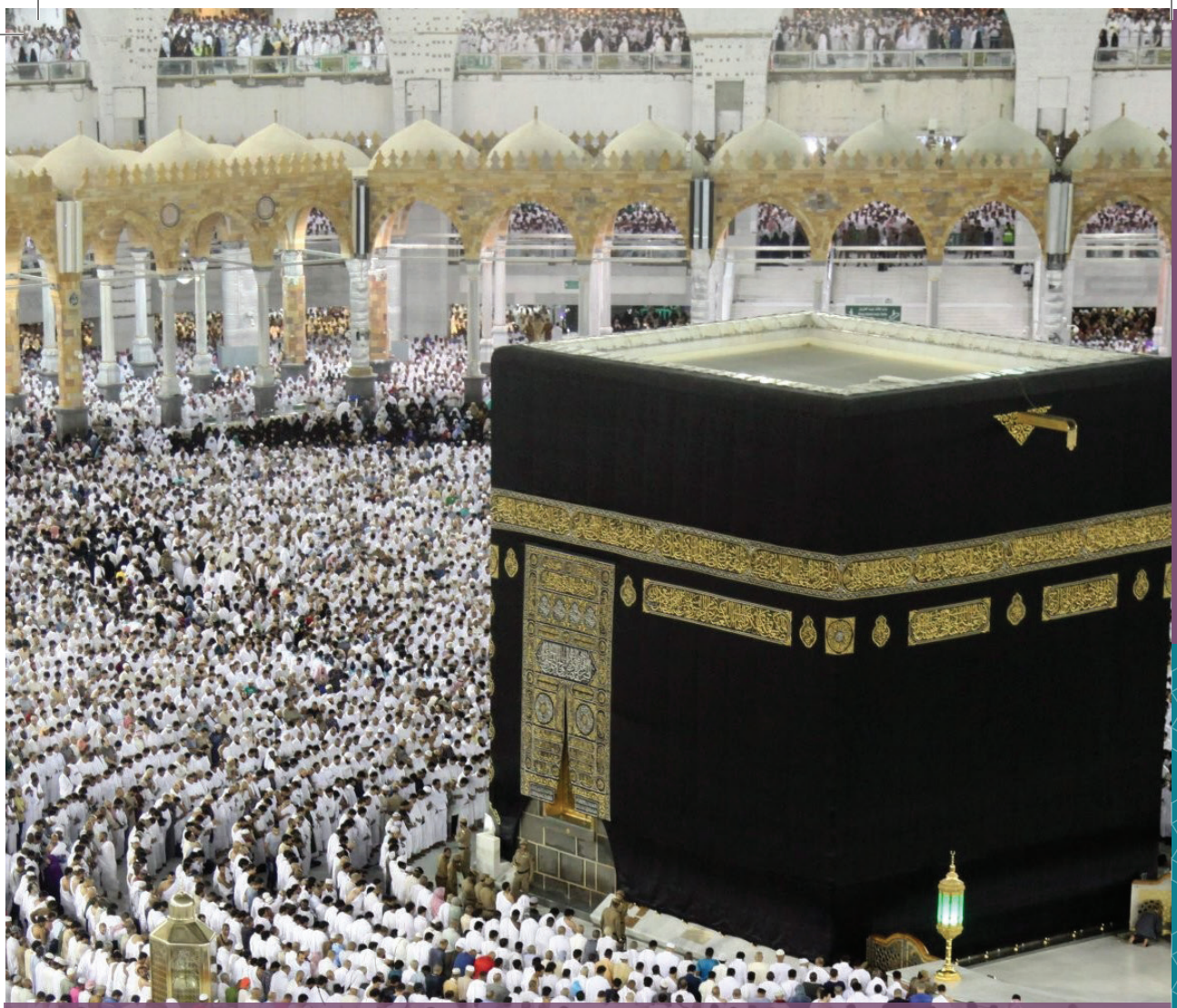

المنهج النبوي في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين من خلال مرويات السيرة النبوية

بحث لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية (السيرة النبوية)
جامعة ابن الطفيل-كلية الآداب والعلوم الإنسانية
شعبة الدراسات الإسلامية- تكوين الدكتوراه: الاختلاف في العلوم الشرعية

د. علي خليفة الزياني

إن الاجتماع والوحدة مطلب شرعي وجه إليه الشرع الحكيم وأمر به قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وإنَّ الاختلاف والتنازع والفرقة منهي عنه في الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال ﷺ: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[(١)]. وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[(٢)]، ومع أن الاختلاف سنة من سنن الله في خلقه ليكون لهم رحمةً وتخفيفًا وعونًا، إلا أنه حين يكون الاختلاف من أجل طلب الدنيا أو هوىٰ في النفس أو غير ذلك من الأسباب الذميمة، يكون الاختلاف نقمةً، وبلاءً، وسببًا من أسباب الفرقة والضعف والهلاك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم»[(٣)].

ولقد مرت الأمة الإسلامية عبر تاريخها بأحداث وفتن كثيرة، فرقت وحدتهم، وجعلت بأسهم بينهم شديدًا، وقسمتهم إلىٰ فرق وشيع وأحزاب ودويلات، وتكالبت عليهم الأمم واستباحت بيضتهم بحروب أخطرها الحروب الصليبية والحروب مع التتار واليهود. وها هي اليوم تَجني آثار هذا الاختلاف والتفرق، فتشهد حروبًا مع داخلها، وحروبًا مع خارجها، مع أن كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ بين يديها، وقد أمرت بالتمسك بهما كي لا تضلّ بعد أبدًا، كما لنا في سيرة رسول الله ﷺ القدوة وهي المنهج العملي والتطبيقي للقرآن الكريم والسنة الشريفة. فالسيرة النبوية تُعد الصورة النيرة والمجسدة لمبادئ الإسلام في واقع ملموس ومشاهد، كما أنها تمتاز بأنها نُقلت إلينا كاملة في كلياتها وجزئياتها، وبهذا يكون لا عذر لنا إن أسأنا الفهم والاقتداء، فقد حفظ الله لنا كتابه وسنة نبيه قولاً وفعلاً وتقريرًا، وقد مرّ النبي

(١) رواه البخاري، انظر جواهر البخاري شرح القسطلاني ٧٠٠ حديث مشروحة، مصطفىٰ محمد عمارة، دار الفكر ١٤٣٣هـ -٢٠١١م، باب كراهة الاختلاف والله هو الرازق، حديث ٧٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن حديث رقم (٦٦٦٥).

(٣) رواه البخاري ومسلم واللفظ له، انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب شرح أحاديث الأربعين النووية للإمام محيي الدين يحيىٰ ابن شرف النووي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الجزء الأول، الحديث التاسع، ص ٢٣٨.

ﷺ وأصحابه الكرام من فجر الإسلام بمحنة وآهات وعقبات كثيرة حينما كانوا في ضعف أو قوة تلزم عليهم مواجهتها كي يبلغوا رسالات ربهم إلىٰ الناس جميعًا، إلا أن هذه المواجهات، وما حيكت لهم من مؤامرات وما وقع عليهم من عدوان، لم تكن يومًا ما سببًا في فرقتهم أو ضعفهم، بل كانت سببًا في تماسكهم وترابطهم وتعاضدهم وزيادة قوتهم فكانوا كالجسد الواحد، فأسقطوا بهذا الإيمانِ والثباتِ عليه وبهذا الاعتصام والوحدة، دولة الفرس والروم، وقدموا للبشرية النموذج الحضاري التي كانت البشرية آنذاك وحتىٰ اليوم بأمس الحاجة إليه، ولعل في هذا البحث المتواضع ما نسلط به الضوء حول المنهجية النبوية في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين من خلال مرويات السيرة النبوية، علّنا نساهم ولو بقدر يسير في نشر الوعي والتبصرة في استشعار خطر الاختلاف والفرقة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والعودة بالأمة أفرادًا ومجتمعات، إلىٰ الفهم الصحيح والاقتداء الحق بما جاء في هديه ﷺ كي تكون هذه الأمة كما يريدها الله تعالىٰ خير أمة أخرجت للناس، وفي هذا المراد والمقصد، فإن أصبت فمن الله تعالىٰ، وإن أخطأت فمن نفسي الضعيفة القاصرة. والله نسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه.

أولاً: مشكلة الدراسة:

اتساع دائرة الاختلاف وأثره في الأمة الإسلامية وتراجع العمل بأدب الاختلاف فهمًا والتزامًا.

ثانيًا: أهمية الدراسة:

الحاجة إلىٰ التآلف والمحبة وتوحيد الصف ونبذ الاختلاف والفرقة عن طريق الالتزام بالهدي النبوي.

ثالثًا: أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلىٰ:

التعرف علىٰ المنهجية النبوية في التعامل مع الاختلاف، وسبل تحقيق الوحدة بين المسلمين علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة وذلك من خلال مرويات السيرة.

رابعًا: فروض الدراسة:

تحاول هذه الدراسة التأكد من الفروض الآتية:

١- ما هي الاختلافات التي واجهها النبي

ﷺ، وما نوعها، وحجمها؟ وما أثرها؟.

٢- هل كان للنبي ﷺ منهجية محددة في مواجهة الاختلافات داخل العنف الإسلامي؟ وما هي أساليبه ﷺ في هذا؟ وهل استطاع ﷺ تحقيق الوحدة المرجوة بين المسلمين؟

خامسًا: منهج الدراسة (منهج الباحث)

١- تعتمد الدراسة المنهج الاستقرائي لجميع الروايات من السيرة النبوية ذات الصلة بموضوع الاختلاف والوحدة، ويستخدم منهج الاستدلال الذي يبنىٰ علىٰ قواعد التأمل والتفكير والاستنتاج والربط بين الروايات (الوصف التحليلي) في فهم دلالات روايات السيرة النبوية في هذا الموضوع؛ «نظرًا إلىٰ أن أسلوب تحليل المضمون هو أسلوب بحثي تستند إليه الدراسات العلمية؛ لذلك لا يُعد هذا الأسلوب هدفًا في حد ذاته، وإنما هو مجرد أداة؛ لتحقيق هدف أو أهداف معينة تتمثل في إصدار أحكام دقيقة يتوافر بها درجات مناسبة من الصدق والثبات والموضوعية حول مضمون المادة العلمية التي يتناولها التحليل»[(١)].

٢- جمعت الروايات المطلوبة لموضوع البحث بالدرجة الأولىٰ من كتاب السيرة النبوية لابن هشام وهو من المصادر الأصلية؛ لأنه يعد في مقدمة كتب السيرة النبوية التي حظيت بالقبول والاعتماد[(٢)]. ثم جاء في المرتبة الثانية لجمع روايات السيرة في موضوع البحث من المصادر الفرعية التي أخذت عن المصادر الأصلية ككتاب زاد المعاد في هدي العباد لابن قيم الجوزية، وكتاب السيرة النبوية للإمام الذهبي، وكتاب السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي، وبعض المصادر الفرعية الأخرىٰ، كما تم الاستعانة في مواطن كثيرة بمصادر أخرىٰ لا غنىٰ عنها وأهمها القرآن الكريم وبعض التفاسير المعتمدة، وكذلك ما صح من الأحاديث النبوية وما جاء فيها من شروح.

٣- تم الاستعانة بما ألف في السيرة حديثًا سواء ما كان موضوعه بيان ما صح من السيرة النبوية ككتاب السيرة النبوية الصحيحة لأكرم

(١) شكري سيد أحمد وغيره، منهجية أسلوب تحليل المضمون وتطبيقاته في التربية، مركز البحوث التربوية، جامعة قطر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٣٥٨-٣٥٩-٣٦١.

(٢) انظر تفصيل ذلك من خلال الفصل الثاني والحديث عن تدوين السيرة النبوية والمراحل التي مرت بها كتابة السيرة، والمتضمن ذلك بيان منزلة ابن هشام رحمه الله تعالىٰ.

ضياء العمري، وكتاب صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، أو ما كان موضوعه بيان فقه السيرة النبوية ومقاصدها كما جاء في كتاب الشيخين الغزالي والبوطي، بالإضافة إلىٰ كم كبير في هذا ما يبين موسوعات ومراجع معتمدة رائجة ككتاب الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري وكتاب السيرة النبوية للدكتور علي الصلابي، وغيرها من دراسات في موضوعات محددة كبحث الدكتور عبد السميع الأنيس في بحثه بعنوان: الأساليب النبوية في معالجة المشكلات الزوجية، أو الدراسات المقاربة في موضوعها لدراستي هذه كدراسة الأستاذ وليد شلبي بعنوان: وقفات نبوية في حل الخلاف، بالإضافة لعدد كبير من المقالات والموضوعات عبر الدوريات المختلفة.

سادسًا: الدراسات السابقة:

بما أن موضوع هذه الدراسة له علاقة بثلاثة مجالات هي:

١- مجال الوحدة والاختلاف والتنازع والفرقة.

٢- مجال السيرة النبوية وكل ما يتصل بها.

٣- المنهجية النبوية في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة من خلال ما جاء في السيرة النبوية.

وبعد الاطلاع علىٰ مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع والمؤلفات والكتب والدراسات من رسائل وبحوث ذات العلاقة بموضوع البحث، فقد وجدت ولله الحمد للمجال الأول والثاني مراجع عديدة ودراسات كثيرة قديمة وحديثة، إلا أن المجال الثالث (موضوع البحث) هناك الكثير من الدراسات لها صلة بموضوع البحث هذا من قريب أو بعيد، ولكن لم أعثر علىٰ دراسة مطابقة سوىٰ دراسة الأستاذ وليد شلبي بعنوان «وقفات نبوية في حل الخلاف»، وهناك اختلاف كبير في مضمون البحث وطرق معالجة الموضوع وغيرها من الاختلافات بين الدراستين، نوضحه حين الحديث عن التعليق علىٰ الدراسات السابقة.

ولعل أهم الملحوظات التي تناولتها الدراسات السابقة ما يأتي:

١- من هذه الدراسات ما ركز علىٰ شخصية الرسول ﷺ وأهمية الاقتداء بها وبالأخص

المربين والمعلمين والدعاة.

٢- وهناك من ركز علىٰ الأساليب التربوية التي استخدمها الرسول ﷺ في تربية أصحابه.

٣- والبعض تناول أحد هذه الأساليب وتعمق في تناولها كأسلوب الحوار وأهميته وأنواعه والقيم التي يرتكز عليها.

ما تميزت به الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة:

هذه الدراسة امتداد طبيعي للدراسات السابقة وقد امتازت عن غيرها بما يأتي:

١- تناولت موضوع الاختلاف وتاريخه وأسبابه وأنواعه وآدابه، كما تناولت موضوع السيرة النبوية وكل ما يتصل بها.

٢- تتبعت جميع مرويات الاختلاف من خلال المصادر الأصلية في السيرة النبوية، فالمصادر الفرعية.

٣- التعرف علىٰ المنهجية النبوية في التعامل مع الاختلافات من خلال عرض وتحليل كل رواية وجد فيها اختلاف في السيرة النبوية، وما هو الأسلوب النبوي في التعامل المناسب معها للحفاظ علىٰ ترابط المجتمع وتحقيق الوحدة بينه؟.

٤- روعي التسلسل الزمني في عرض المرويات في العهدين المكي والمدني.

٥- تم الاستعانة بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية في تعزيز موضوع البحث وخاصة في الآتي:

أ) العهد المكي؛ لقلة مرويات السيرة النبوية في الاختلاف الداخلي بين المسلمين.

ب) اهتمام النبي ﷺ بالقضاء وفصل المنازعات بين المسلمين، وهو ما نجد رواياته في السنة النبوية.

ج) موضوع الخلافات داخل البيت النبوي وبين زوجاته ﷺ، وهذا ما نجده بوضوح في القرآن الكريم والسنة النبوية.

سابعًا: خطة البحث:

قسمت البحث إلىٰ مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

- المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه، والجهود

والدراسات السابقة، ومنهج الباحث وطبيعة عمله في البحث.

خطوات الدراسة:

الفصل الأول: الإطار النظري للدراسة (الاختلاف تعريفه، وتاريخه، والأسباب المؤدية إليه، وكيفية التعامل معه؟).

- الاختلاف في اللغة.
- الاختلاف في الاصطلاح.
- الفرق بين الاختلاف والافتراق.
- تاريخ الاختلاف.
- تاريخ الاختلاف في عهد النبي ﷺ وكيف تعامل معه؟.
- أنواع الخلاف.
- أثر الخلافات السياسية في الفقه الإسلامي.
- الخلاف الفقهي والأدوار التي مر بها.
- المجامع الفقهية والهيئات الشرعية.
- أسباب الاختلاف.
- أسباب الخلاف الفقهي.
- الخلاف أو الاختلاف بين المقبول والمردود.
- الحلول والآداب الشرعية للاختلاف.

الفصل الثاني: علم السيرة:

- أهمية دراسة السيرة النبوية.
- مصادر السيرة النبوية.
- خصائص السيرة النبوية.
- تدوين السيرة النبوية.
- المراحل التي مرت بها كتابة السيرة النبوية.
- مميزات الحركة الكتابية للسيرة النبوية في العصر الحديث.
- أسباب التباين في تدوين أحداث السيرة النبوية.
- الكتابة في السيرة النبوية ما بعد التدوين وحتىٰ العصر الحديث.
- أنواع كتب السيرة النبوية (كتب معاصرة

في السيرة النبوية).

– منهجية جمع مادة السيرة النبوية (المنهجية التي مر بها جمع السيرة النبوية).

– الضوابط المنهجية في كتابة السيرة النبوية.

– الحاجة إلىٰ اعتماد منهج علمي صحيح وسليم وشامل في كتابة السيرة النبوية.

الفصل الثالث: الخطوات الإجرائية للدراسة: المنهج النبوي في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين (العهد المكي):

– تحديد معنىٰ المنهج لغةً واصطلاحًا.

– الأسس التي يقوم عليها المنهج النبوي في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين.

– عرض المرويات التي وقع فيها الاختلاف من السيرة النبوية مع تحديد نوع الاختلاف وأسبابه في الفترة من قبل البعثة وحتىٰ الهجرة النبوية.

– بيان المنهج النبوي المتبع في ذلك من خلال تحليل تلك المرويات من السيرة النبوية ومعرفة الأساليب النبوية في التعامل الصحيح والمناسب مع تلك النماذج من الاختلافات.

الفصل الرابع: الخطوات الإجرائية للدراسة: المنهج النبوي في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين (العهد المدني):

– عرض المرويات التي وقع فيها الاختلاف من السيرة النبوية مع تحديد نوع الاختلاف، وأسبابه، وذلك خلال الفترة من بعد الهجرة وحتىٰ وفاة النبي ﷺ.

– بيان المنهج النبوي المتبع في ذلك، من خلال تحليل تلك المرويات من السيرة النبوية، ومعرفة الأساليب النبوية في التعامل الصحيح والمناسب مع تلك النماذج من الاختلافات.

ثامنًا: الخاتمة:

وتشتمل علىٰ أهم النتائج والتوصيات.

تاسعًا: الفهارس العامة: فهرس المصادر والمراجع والملاحق.

النتائج والتوصيات:

وبعد هذه الدراسة المتواضعة خلصت إلىٰ النتائج والتوصيات الآتية:

١- الحاجة إلىٰ دراسة تاريخ الأمة الإسلامية من خلال مَجْمَع متخصص في التاريخ، تكون دراسة موسوعية شاملة وفق أسس علمية سليمة منهجية علىٰ أن يتم توظيف هذه الدراسة توظيفًا عمليًّا فيما يحقق وحدة الأمة المرجوة.

٢- ترسيخ الفهم الصحيح والدقيق لعقيدة الولاء والبراء، والبعد بها عن الإفراط بالغلو أو التفريط بموالاة من يحادد الله ورسوله ويسعىٰ في الأرض فسادًا.

٣- ضرورة غرس ثقافة فقه الاختلاف وآدابه في مختلف فئات المجتمع، وجعلها ثقافة سائدة تبني لا تهدم، ومنها الحوار الهادف البناء في مختلف المجالات الفكرية.

٤- الوقوف علىٰ أسباب الاختلاف، السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، الشرعي، والتصدي لتلك الأسباب وفق خطط مدروسة.

٥- الحاجة إلىٰ اعتماد منهج علمي صحيح وسليم وشامل في كتابة السيرة النبوية، والاستفادة منه (نظريًّا وعمليًّا) في تعزيز الوحدة بين أفراد الأمة الإسلامية والقضاء علىٰ الاختلافات المذمومة وغيرها من موضوعات ذات أهمية.

ومما نستنتجه من نتائج وتوصيات خاصة بمنهجيته ﷺ في التعامل مع الاختلاف وتحقيق الوحدة بين المسلمين الآتي:

١- استخدام منهجية الوقاية والعلاج للتصدي لمختلف المشكلات التي تواجهنا بأساليب متعددة تقوم علىٰ عدد من المرتكزات منها:

أ) معرفة الحالة والظروف: فهناك ما يستدعي التعاطف معه، أو السكوت عنه، أو التبسم له، وهناك ما يستدعي له الغضب واحمرار الوجه والزجر.

ب) تكرار المشكلة: فقد يعفو في المرة الأولىٰ، ويعاقب علىٰ تكرارها بأشد أنواع العقوبات الرادعة.

ج) الأطراف المعنية بالمشكلة، فهناك من لهم الفضل والسبق ومما يشفع لهم في قول أو

فعل حيث الخطأ، وهناك من لا فضل لهم ولا منزلة، ولذا نجد في المصادر ذكر الأوصاف الآتية: (الأولون، المهاجرون، الأنصار، أهل بدر، السابقون، المتأخرون في الإسلام، الطلقاء،... إلخ).

د) المدة الزمنية والممتدة من البعثة في مكة وحتىٰ الهجرة والوفاة في المدينة، وقد روعي في ذلك كله التدرج في التشريع، واستمرار التربية وتهذيب النفوس، وتباين الأحكام واختلافها والأساليب العلاجية تجاه الخطأ، مع مراعاة ما سبق من مرتكزات.

٢- المبادرة إلىٰ سرعة حل الاختلاف قبل تفاقمه.

٣- سعة صدره ﷺ للاستماع إلىٰ مختلف الاختلافات الفردية منها والجماعية.

٤- الاستماع الدقيق للرأي الآخر، وعدم إصدار الأحكام قبل الاستماع إلىٰ جميع الأطراف ووجهات نظرهم المختلفة، ومن ثم القضاء العادل.

٥- استخدام آداب الخطاب.

٦- قبول المشورة.

٧- التحري الدقيق وعدم الأخذ بالشبهات.

٨- التذكير بالفضل وعدم نسيانه، والثناء علىٰ من أحسن بالعفو أو الصلح بين الناس أو سعىٰ في خير وسبق إليه.

٩- استقراء الأحداث والربط بينهما وبعد النظر.

١٠- المصارحة وترك المجاملات مع جميع الأطراف المختلفة.

١١- معرفته ﷺ أصحابه حق معرفة والثقة بهم، رغم صدور بعض الأخطاء من بعضهم، ومما يدل علىٰ هذه الثقة الثناء عليهم وتكليفهم بمهمات تتطلب الثقة رغم ما صدر منهم من خطأ، كما حدث للصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

١٢- التعريض بالخطأ دون التصريح حفاظًا علىٰ الأسرار ومكانة الأصحاب ومنزلتهم بين الناس.

١٣- استخدام أسلوب الحوار والإقناع والاستفادة من المواقف لصالح الدعوة.

١٤- الإرشاد إلىٰ الخطأ بالتوجيه

والملاحظة والرفق.

١٥- استخدام أساليب تأديبية متنوعة ومناسبة منها:

أ) أسلوب التوبيخ والتأنيب والعتاب الجميل.

ب) الهجر في الكلام والمعاملة.

ج) الهجر في الفراش أو هجر البيوت (خاص بزوجاته ﷺ).

د) التخيير والتشاور (حدث ذلك مع زوجاته ﷺ).

هـ) الطلاق (حدث ذلك مع اثنتين من زوجاته واحدة راجعها والأخرىٰ لم يراجعها).

١٦- احترامه ﷺ للحقوق ورعايته للمشاعر والعواطف.

١٧- إقامة العدل والمساواة ومراعاة المصالح والعواطف والأخذ بالعزم والحسم أو العفو والصفح وكل ذلك ما أمر الله به من تشريعات عادلة.

تلك أهم النتائج والتوصيات التي ظهرت بها هذه الدراسة.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊ ❊

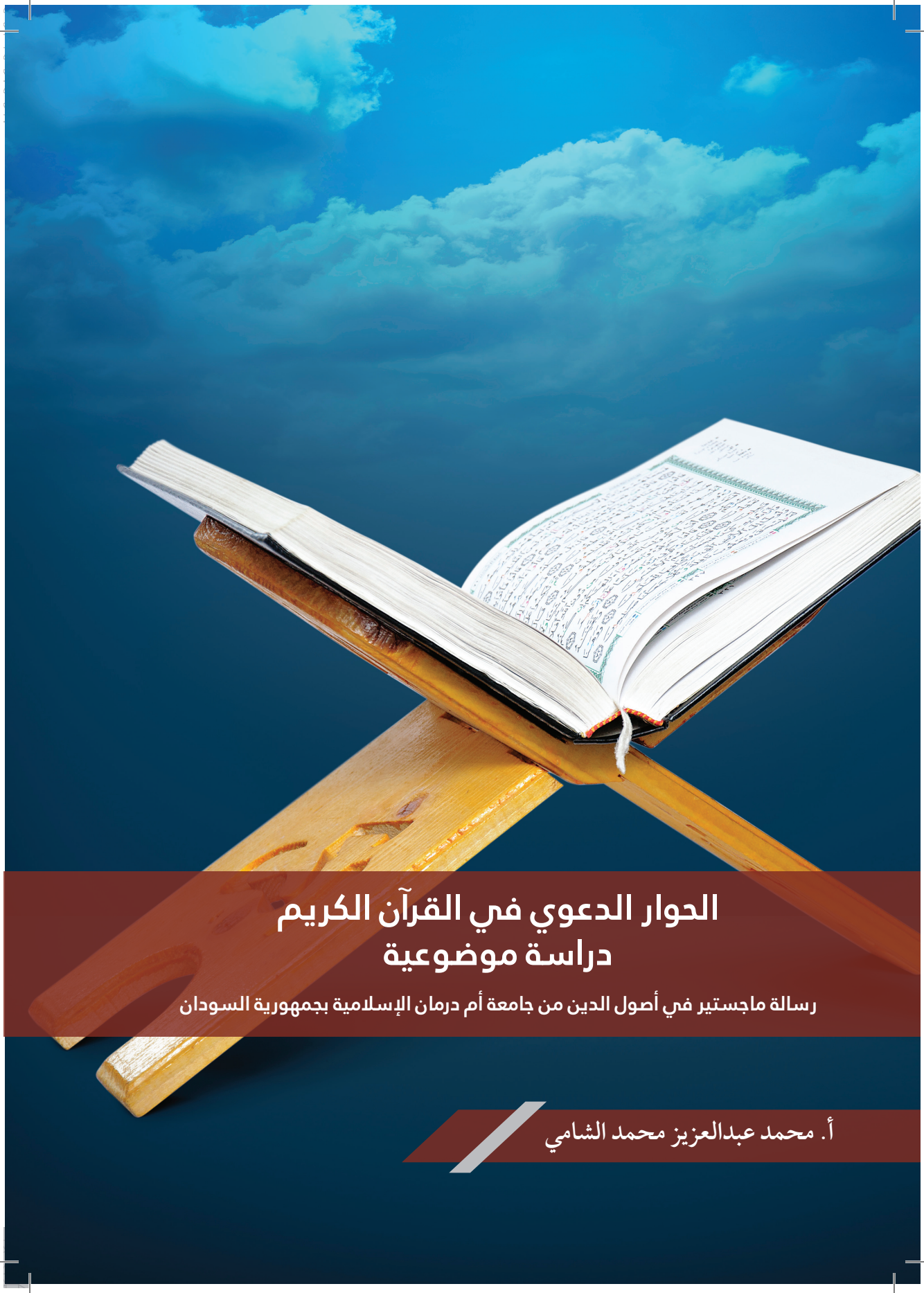

الحوار الدعوي في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

رسالة ماجستير في أصول الدين من جامعة أم درمان الإسلامية بجمهورية السودان

أ. محمد عبدالعزيز محمد الشامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الرسالة الموسومة بـ(الحوار الدعوي في القرآن الكريم – دراسة موضوعية) احتوت علىٰ أربعة فصول، وفي كل فصل مباحثه، بالتقسيم الآتي:

الفصل الأول: تعريف الحوار ومترادفاته، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: الحوار في اللغة.

المبحث الثاني: الحوار في الاصطلاح.

المبحث الثالث: مرادفات الحوار في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: خصائص الحوار القرآني، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أغراض الحوار القرآني.

المبحث الثاني: مميزات الحوار القرآني.

المبحث الثالث: أساليب الحوار القرآني.

الفصل الثالث: حوارات أولي العزم من الرسل، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: حوارات نوح عليه السلام.

المبحث الثاني: حوارات إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثالث: حوارات موسىٰ عليه السلام.

المبحث الرابع: حوارات عيسىٰ عليه السلام.

المبحث الخامس: حوارات محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

الفصل الرابع: أهمية الحوار في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: متطلبات الحوار الناجح.

المبحث الثاني: أدب الحوار.

ملخص الرسالة:

تبدأ الرسالة بفصل تعريفي لمصطلح الحوار لغة واصطلاحاً، وتاريخ الحوار، وحاجة الإنسان له، وبعض مرادفات الحوار من كتاب الله تعالىٰ، وفي الفصل الثاني تعريف

بخصائص ومميزات حوارات القرآن الكريم في بيان الحق والتوحيد بأساليب متنوعة تناسب كل المخالفين وتدعوهم وتوصلهم للحق بإثارة الأدلة العقلية وذكر قصص الأمم السابقة ليتعظوا بها، وفيه مبحث عن تنوع أساليب القرآن البديعة بدقة الألفاظ وصلاحية الخطاب وتكرار العبارة ودحض حجج المشركين، وخصص في الرسالة فصل خاص عن حوارات أولي العزم من الرسل مع قومهم حيث إنهم أشد الرسل صبراً وابتلاء، وختمت الرسالة بفصل عن أهمية الحوار في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وما يتطلبه الحوار الناجح من مقومات تؤتي أكلها وتثمر بتوفيق الله تعالىٰ من إخلاص للنية والتزود بالعلم، واختيار الوقت والمكان المناسب، والالتزام بآداب الحوار.

النتائج والتوصيات:

- في كتاب الله تعالىٰ منهج رباني من لدن حكيم عليم، لا غنىٰ للمسلم وللداعي عنه، وفي حوارات الرسل عليهم السلام منهج وقدوة للداعي إلىٰ الله تعالىٰ.

- ومن التوصيات في الرسالة: عمل دورات علمية وعملية للدعاة إلىٰ الله تعالىٰ لتعلم ودراسة منهج القرآن الكريم في الحوار والدعوة، وكذلك عقد دورات للآباء والمربين في فن الحوار مع أبنائهم.

- وتوصي أيضاً بعقد دورات للشباب والفتيات في منهج الحوار القرآني وخصوصاً مع الوالدين.

- ومن التوصيات في الرسالة استخدام وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي في نشر علوم القرآن الكريم، وسعي كل مسلم بطاقته وبما فتحه الله عليه لنشر و تبليغ سماحة هذا الدين العظيم والمنهج المستقيم.

❊ ❊ ❊ ❊